



يوسف القدي

هذه الرواية

في خريف ٦٤ ، وصلت إلى قرية
السؤال بمئة للبحث عن البترول ، ومع
أول نظرة من منظر ذلك الغمام ، رحلت
البشة ، طمان المهندس الناس ، البترول
موجود ولكن في القضاة ، المائدة
لا يخطر التكليف ، سؤجل المشروع
ستوات قد تكون ، تنهى الحكاية على
أرض الواقع ، تبدأ الرواية ، أحداثها
تدور كالتالي : أبيت قصص وأحلام
المهندس أجنبية ، ظهر بها سكان البلاد
رحلوا ، سافروا في الزمان ، كون كل
منهم لنفسه يوتوبيا خاصة به ، أصوات
المهندس تصبح شروخا وشقوقا تصيب
وجودهم ، يرحل المهندس ، الجوابون
التمسك في رحم الليل ، يلوب تحت
أقدامهم طريق الصبوة ، حب الدين
سرحان ، سلسلة على الله ، أبو
السمود ، الطم يعقوب ، المسدة ،
الموم ، ورياني ، وجوه تظل علينا من
خلال أسطر الرواية ، تصرخ لأمهم فينا
كل منهم يصحو على واقع يعيشه ،
تتعد بداخله رقة دافئة في الدخول
مع الواقع في علاقة إنسانية ، تبدأ
وتعيش وتوت مكتبة لوزن ورائحة المساء

المكان الذي يمر به الروائي ، هو
البلد الذي يعيش في قلبه ، البيات
الشتوي ، تمنح أبطالها ، الفخراء
الشرفاء وميا بالمظلة التي يجهلون في

أنفسهم ، الرواية ترفل في الحكاية
التقليدية ولغة القواميس ، والتصوير
القولونرافي ، يخلق عالم خاص بها ،
له زمانه ولغته ومكانه وشخصيته ،

واقعية تبدأ من جزئيات الواقع ونثر
الحياة اليومية ، والحقبة استورية شعريه
لا تعد بديلا للواقع الحقيقي ولا الغاء
له ، ولكنها تقدم رؤية فكرية لواقع
القرية المصرية الآن .

يوسف القعيد

البيات الشتوي

الناشر

مكتبة مدبولي - القاهرة

البيات الشعور



يوسف القعيد

احکم بالعدل یا قاضی قدامک مظلیم ..

● من موال شجی ●

ن لیبا
ن شیا



مجلس إدارة
البنك الأهلي
مصر

تقرير عن الحالة في السوام

ساعة الاصيل في مسجد سيدى الفريب .

يقف الشيخ محمود امام باب المسجد ، على الدرجتين الصغيرتين ، وفي كل يوم يدرك انهما تأكلنا ، وانه عند جمع المسانية القادمة ، سيبنى بدلا منهما ، غير انه في كل عام كان يؤجل الموضوع كله .

- السنة الجاية تفرج .

الشيخ محمود يخرج ساعته القديمة ، بتحسبها بيده ، يقربها من عينه اليمنى حتى يلامس زجاج الساعة بقايا رموش العين ، يضعها في جيب الصديري الداخلى ، يدخل الميضة ، يتوضأ ، يتمشى في باحة المسجد ببطء ، عيناه تطالعان شيوخ البلد ، رجال كبار ، يجلسون في صحن الجامع طول النهار ، يحكون حكايا مبللة بالوجد عن ايام خير مضت ولن تعود ، وتخرج الكلمات من افواههم التى بلا أسنان ، هشة خافتة كالانين . انهم يأتون وقت الضحى ، يخلعون نعالمهم القديمة ، التى كانت احذية لاولادهم . يضعونها تحتهم ، يسندون العصى التى يتوكأون عليها على الحائط . يتقارب الشيوخ ، يبتسمون وقد رقق المرض من كل شيء فيهم ، يجمعون شمل الذكريات القديمة ، وتموت الرؤى المرتعشة على الشفاه ، وتتعلق في العيون دموع جفت منذ سنوات . انهم يترحمون على الذين ماتوا .

- سبقونا الى دار الخلود .

يتذكرون الاحياء ، الذين اقدمهم المرض في بيوتهم . يتأملون حياتهم ، انهم قضوها يجرون . يلهثون ، يكرهون بعضهم البعض . يتعاركون على دور المياه والرى والحصول . يكتبون الشكاوى في السر . لاولياء الله واوى الامر في البندر . غير انهم يدركون لان . في لحظة العسارى ، انهم جميعا مجبرون على السفر بمفردهم . في آخر الامر ، الى جهة غير معلومة .

ان الشيخ محمود يستعد للصعود فوق المئذنة ، كى يؤذن لصلاة المغرب ، انه ينظر الى المئذنة من باحة المسجد ، بناء قديم ، حائل اللون ، يشق الفراغ الازرق المفسول ، يظعن السماء الصافية ، يلتقى بها على البعد ، يتلامس معها ، ويصبح في النهاية جزءا منها . من فوق المئذنة ، يشاهد الشيخ محمود ، مناظر تطالعها كل يوم ، مساحات لا نهائية من الخضرة ، وفي الحقول رجال واطفال ، يحلون البهائم ، يفتسلون ، يصلون ما فاتهم من فرائض اليوم ، استعدادا للعودة من الحقول . في السماء الصافية ، طيور تستعد للهجرة نحو اعشاشها بعد يوم طويل . يحاول الشيخ محمود ، ان يرى أكثر من ذلك ، انه يشاهد بلادا بعيدة ، بقعا يختلط فيها البياض بالسواد وسط الحقول . تبدو له ترعة ساحل مرقص ، ترتفع على البعد ، حتى تلتقى بالافق ، وتكون قد تحولت الى مجرى صغير ، خط أزرق متموج كقناة في احد الحقول ، بقايا ظلال المئذنة تنكسر على الحارات والبيوت والحقول القريبة . فوق اسطح البيوت ، يتناثر الحطب الجاف ، وبعض البيوت خلا من الحطب ، فتبدو اسطحها رمادية اللون ، ومن مناور البيوت يخرج الدخان . الشيخ محمود يدرك انه لو كان في الحواري الآن ، لسمع صوت طشش الثقيلة ، وشم رائحة السمن المحروق ، ولراى الرجال على المصاطب ، وامام دكاكين البقالة والاطفال يلعبون في الحواري . في الحقول ، رجال تأخروا في العودة بسبب أعمالهم . على الجسر يقف الشبان ، يدخنون ويتحدثون ، كلمات كسولة ، تتخللها فترات صمت طويلة ، وعلى الناحية الاخرى من الجسر ، مسافرون لم تحضر لهم سيارات . انهم يقفون وقد تعلق عيونهم بمكان بعيد في الافق ، حيث تنوء الجسر تماما بين الاشجار العالية . انه اول مكان تظهر منه السيارات القادمة من كفر غوانه . تحت الشيخ محمود مباشرة ، باحة المسجد والميضة والدورة وطلبة رفع المياه . ان الرجال يتوضأون ، يصلون ما فاتهم . وفي صحن الجامع ، مصباح قديم ناعس ، يروح ويحيى ، فتتحرك الظلال والأضواء مع حركته البطيئة ، فتكشف عن محتويات الجامع . وعلى المدى البعيد ، كانت زرقة السماء غامقة ، وكانت هناك بعض النجوم القليلة بدا لمعانها خائبا . ان ليل الخريف البارد ، ليساله الطوال ، يرتفع الآن من الحارات والجسر والحقول

المنبسطة حتى اللانهاية . الشيخ محمود يخرج ساعته ، يفربها هذه المرة من عينيه أكثر من المرة السابقة ، يضمها في جيبه بسرعة ، يدور حول المذبة ، تهب نسمة هواء خريفية فتداعب جلبابه . يعدل وضع العمامة على رأسه الاصلي ، يرفع يده اليسرى . ينحسر عنها الكم ، فتبدو رفيعة معروقة . يرفع يده اليمنى . يضمها على خده . يغطي بها نصف فمه ، يفتح عينيه اللتين بلا رموش على آخرهما ، يستنشق هواء مبلا برائحة الماء والخضرة ، يفتح فمه على آخره ، تبدو عروق رقبة غليظة منتفخة - الله اكبر ، الله اكبر .

على مدى سنوات طوال ، ولا احد يدري كم عددها ، ايام غير معلومة ، ساعات لا يحسبها احد ، حدثت اشياء كثيرة ، أحداث مذهشة ، حكايا لا تصدقها الاذان . ان هذه السنوات التي مرت ، لحظات بطيئة من الفراغ ، تسربت ومعها حياة الناس ، الميلاد ، معاناة لحظات العمر ، الشيخوخة والمرض ، ثم الموت في النهاية . وكتب الناس على وجه الايام والليالي قصص حياتهم ، حكايا ايامهم العجاف . يتعاقب الليل والنهار ، تدور دورة الخريف والشتاء ، ذلك ما كان ، وما هو كائن ، غير ان ما يحدث في هذه اللحظة ، في حياة كفور السوالم « الساعة الخامسة والدقيقة الاربعين من مساء يوم الاثنين الخامس من شهر اكتوبر سنة اربع وستين وتسعمائة والف ، من بعد ميلاد السيد المسيح » . امر غير عادي ، بل انه يحدث في حياة البلد للمرة الاولى .

الناس تنظر للأمر بدهشة ، ويحاول كل منهم حساب الامور في ذهنه ، كي يتوصل الى رأى فيما يحدث . وبمجرد ان يحدث شكل الحياة في السوالم ، حادث ما ، وينفذ الى حياة الناس ، حتى تتباين وجهات نظرهم اليه ، ياتى المساء ، ويجمعون على المصاطب ، أو على الجسر الكبير ، أو في باحة المسجد ، ويتناقشون في الامر ، يقولون كلمات بسيطة ، تخرج من افواه مطحونة ، متأكدة الحروف ، يدلي كل منهم برأيه ، ولا يتفقون على امر ما في النهاية . ان الكلمات ليست أهم الوسائل في الاتصال بين الناس ، الصمت ، النظرات المنكسرة الزاخرة بالصبر والمرارة ، التعب والاجهاد المتساقط على ملامح الوجوه . ربما كانت تشكل اتصالا روحيا بين الناس ، أكثر من الكلمات . نظرة الدنيا ، تنبع عتمة المساء ، البيوت والترعة والاشجار

والجسر الكبير . يعود الرجال الى بيوتهم ، في حجراتهم الصغيرة ، يعيدون لزوجاتهم ، واولادهم الصغار ، التعليق على ما يحدث . والرجل لا يحكى فحسب ، انه في منزله ، وهنا توجد مملكته ، لذا فانه يحكى ما حدث ، ويعلق عليه ، ويتناوله بالمناقشة ، ثم يدلي برأيه النهائي في الموضوع ، على انه الرأى الصحيح ، الذى لا يقبل مناقشته مع احد .

اليوم هو يوم الاثنين ، وفي ساعة الاصيل ، والرجال واقفون على الجسر ، يتحدثون في أمور عامة ، توقفت سيارتان ، من سيارات الحكومة . على الطريق الزراعى . ثم اتجهتا الى الجسر ، ومنه الى السوالم ، دهن الناس ، ان السيارتين تتجهان الى الغضاء الذى يفصل بين السوالم بحرى والسوالم قبلى ، وهو ليس قضاء واسعا ، فحوله منازل من كل ناحية ، والسبب في تركه فراغا ، ان فيه دائما نشع ، يصبح بركة مياه ايام الفيضان .

سما ادى باهالى البلد ، لجعله وفقا لمسجد سيدى الغريب . ينزل من السيارتين رجال ، افندية ، قادمون من البنادار ، ينزلون اشياء كثيرة ، مناضد ، خيام ، حقائب . ويدور بين الناس الغرباء ، حديث ، ضحكات ، وفي محاجرهم تدور عيون مستطلعة ، جريئة . ان من ينظر الى البيوت المحيطة بالمنطقة التى يقف فيها الرجال الغرباء ، يجد ابواب البيوت والناور الصغيرة واسطحها ، قد اصبحت مبطننة بالعيون الصغيرة المستطلعة . اطفال صغار ، نساء ، شيوخ مقعدون في المنازل . العيون تنظر ، وقد ران على الناس صمت مشحون ، متوج بالقلق والرغبة في معرفة امر هؤلاء الغرباء .

بعد قليل ، كان الاطفال والصبية ، قد اقتربوا من السيارتين والرجال الغرباء . راوهم عن قرب . استطاعوا ان يستمعوا الى كلماتهم ويرون ما معهم ، فادرك احد الصبية الصغار ، حقيقة ما يجرى . القادمون يحفرون الارض ، ويدقون الاوتاد لنصب الخيام ، للسكنى فيها ، وبمجرد ان توصل ذهنه الى ذلك ، انصرف مسرعا ، كي ينقل الخبر الى اهالى البلد ، وعندما بهل على السوالم شخص غريب ، فان جميع اهالى البلد ، رغم ما يكون بينهم عادة من الخلافات ، يعتبرونه ضيفهم ، ويرحبون به ، ويفرحون لوجوده جميعا .

على الجسر : ارسل الرجال فى طلب حب الدين سرحان ، كم

يسألونه عن الغريباء . وقبل أن يحضر حب الدين ، راح كل رجل يخمن من يكونون . قالوا : قد يكون الغريباء من مصلحة المساحة ، أو من المركز ، أو من بنك التسليف الزراعي ، أو من وزارة الصحة العمومية . قال لهم حب . بعد أن حضر ، أنه يعتقد أن الذي حضر الليلة هو الباشمهندس .

الباشمهندس مين ؟
ذكرهم حب الدين ، أنه منذ ستة أشهر مضت ، حضر الى البلد ، شاب صغير ، يضع على عينيه نظارة طبية .
قال احدهم :

صحيح ، فيهم واحد بنضارة ، أنا شففته بعيني .
أن هذا الشاب . قد أخذ عينة من الأرض الفضاء الصغيرة ، وعينة أخرى ، من نصف الفدان الذي يملكه ورداني . أخذ هذه العينات ، ثم سافر الى مصر ، ومن يومها لم يعد ، ونسى الناس التالي . حكايته تماما .
فاكرين والله .

رفع كل منهم يده الى جبهته ، ووضع السبابة بجوار اذنه اليمنى ، مؤكدا أنه يتذكر ذلك ، وأن الستة أشهر ، نصف السنة ، مرت كأنها فركة كعب قصيرة .

أرجال يستعيدون الآن حضور المهندس ، كان الوقت صباحا ، وكانت شمس ذلك اليوم زاهية . قياس الأرض ، تحديد مكانين . أرض الوقف الخلاء ، أرض ورداني بحري البلد ، أخذ عينة من المكانين ، حضور العمدة الى المهندس بنفسه ، سؤاله عن السبب في أخذ العينات ، المهندس يقول له ، وهو منهمك في عمله ، هناك احتمال وجود بترول في المنطقة ، تحليل العينات اجراء مبدئي ، ونتائجه ليست نهائية ، قد يعود أو لا يعود الى البلد بعد ذلك ، العودة متوقفة على نتائج الدراسات التي ستجرى على هذه العينات يوميا ، سأل المهندس ، أسئلة كثيرة . عن السوالم والبلاد المحيطة بها ، عدد سكان البلد ، مساحة الأرض التنظيمات السياسية ، متوسط دخل الفرد ، مستوى التعليم . وزار بعض الفلاحين في بيوتهم ، ومكث بداخل البيوت طويلا ، وشاهد طعام الناس . وجلس امام الكاثون والفرن . ودخل غرف المعاش وشرب من الأزيار . وفي المساء ، رحل المهندس عن البلد .

يقول الرجال ، ان حكاية المهندس . أيامها . منذ نصف عام ، تحولت الى نكتة ، وبعد رحيله ، في الليل ، في عشة سلسيله ، تناولوها بالحديث .
قال بترول قال .
قال احدهم :

بترول يعني جاز ، والجاز بنشفسل بيه الوابور والللمبه نمره عشرة .
يا عم دا فيها اللي مكفيها .

وضحكوا ، أنهم يستلقون على ظهورهم من الضحك . وبين رشقات الشاي ، بدأوا يتكلمون ، تتمدد أصواتهم في رهبة الليل . ومع دخان الجوزة ، بدأ بعضهم يغني ، تجرح أصواتهم الليل بموال عتاب حزين . وقال لهم حب الدين : أن البترول هو الجاز الذي يشترونه من المعلم يعقوب ، بالكابون ضمن التموين ، مع السكر والزيت . وأنه رغم غلو ثمنه ، إلا أنه يخرج من الأرض بكميات كبيرة . وعارضه احدهم ، قال أن الجاز يصنع في السويس . وقال شاب ، كان يتعلم في المدارس من قبل ، أن أول دول العالم انتاجا للبترول هي دولة الكويت .

قالت سلسيلة من خلف نصبة الشاي :

آهي تخاريف ليل .

آخر الليل ، عاد الرجال الى بيوتهم ، وكانت البيوت والحارات والأشجار ، تنام في الظلام كجنين مبهمة ، لم تتحدد ملامحه بعد . لمخلوق مقبل ، وكان السكون يمد رائحته على البلد .
ذهب الرجال الى حقولهم في صباح اليوم التالي ، وهناك ، بدروا في رحم الأرض ، ضبابا ومواسم وهبية واحلاما . ونسوا حكاية المهندس والبترول خلال سوقية الحياة وتفاهتها المتجددة ، حيث تحنط الاحلام ويرسو الدبول ، ويطلو الصدا روح الحياة ، ويؤجل كل شيء .

حب الدين يستأذن من الرجال ، أنه يريد أن يذهب الى المهندس ، للسلام عليه والترحيب به ، والسؤال عن الصحة والحال وما فعلته به الأيام .

وتعرف لنا الخبر أيه ؟

تواعدوا على اللقاء في عشة سلسيله بعد صلاة العشاء .
حب الدين يسير ناحية البلد ، شابكا يده اليمنى في يده اليسرى

خلف ظهره . يسير ببطء ، باظرا الى الارض تحت قدميه ، مفكرا فيما صارت اليه الحال . الرجال يقفون على الجسر . المساء يحل الآن بالسوالم ، وظلال الشمس اللينة الطويلة بهتت معالمها وذابت ، تهب السمات الطرية فتصافح الوجوه ، ويقل الرجال الواقفون على الجسر ، يذهب بعضهم لصلاة المغرب . ويعود البعض الآخر الى منازلهم . لم يكن هناك حديث للناس ، سوى موضوع المهندس ، الخيام التي نصبت ، السيارات ، ذكرى حضور المهندس الى البلد منذ ستة أشهر ، العينات ، الارض ، البترول ، ونسى كل فرد همومه الخاصة ، واشترك مع الآخرين في هذا الموضوع الطارئ وقال احد الرجال لزوجته ، وهما يتناولان طعام العشاء ، في وسط داره :

- لا ، ولسه ياما حانشوف .

بعد العشاء ، عشة سلسبيلة ، وسلسبيلة مشغولة الآن بتجهيز العشة . تحضر الوابور ، البراد الكبير ، الاكواب ، الشاي ، السكر ، المعسل ، عشة سلسبيلة بجوار الجسر ، على التربة ، في مواجهتها ، في الناحية الاخرى ، مصلى صغير ، دوران طيني منخفض ، في التواء سكة الثعبان ، على شكل نصف دائرة ، فرش بقش ارز ، وعند بابها الصغير درجات من الحجر ، تبدو مقسولة دائما بمياه التربة ، يتوضا الرجال عليها قبل الصلاة . في منتصف المعلى ، شجرة جميز عجوز ، يقول الرجال انها حضرت هوجة احمد عرابي المصري . بجوار عشة سلسبيلة يوجد سيل ، ثلاثة اربار دفن نصفها الاسفل في الارض ، فوقها تكمية عنب تظللهما .

« يا بخت من سقا مسافر عطشان ساءة القيلة » .

عشة سلسبيلة تقوم مقام المقاهى التي يشاهدها الرجال في البنادر ، غير انه لا يوجد في العشة كراسى ولا مناضد ، ولا يحضر كل الرجال الى العشة ، وحتى الذين يحضرون اليها ، لا يواظبون على الحضور . اثنان فقط ، لا بد من وجودهما كل ليلة ، سلسبيلة بنى الله وجب الدين سرحان ، وهما صاحبا العشة ، اما وجوه الرجال فتتغير كل ليلة .

يجلس الرجال في دائرة ، او في مجموعات صغيرة حسب الحال ، وتدور عليهم اكواب الشاي والجوزة حتى آخر السهرة .

انهم يحضرون الى العشة كي يستريحوا من عناء العمل طول النهار . سلسبيلة تجلس خلف النضبة ، في آخر العشة من الداخل ، اما حب الدين ، فانه يجلس في منتصف الرجال ويقوم بتوزيع الطلبات عليهم .

- بقى وسلمت على الباشمهندس ؟

ينسى حب الدين احيانا عمله ، ويجلس وسط الرجال ، يحكى لهم الحكايا ، الرجال ينصتون ، ويظلم يحكى ، الى ان تذكره سلسبيلة بعمله ، فيقوم كي يوزع الطلبات ، وهو يحكى خلال ذلك ايضا . الرجال في السوالم ، يحضرون الى العشة ، مدفوعين

الى ذلك برغبة في ان تكتحل عيونهم بمراى سلسيله . او سماع
حكاييا حب الدين . السهر عند سلسيله سفن من الورق ، يبحر
فيها الرجال في ليل السوالم . حب الدين يجلس الآن وسط
الرجال ، يحكى حكاية المهندس . ذهب اليه ، سلم عليه .
- الحمد لله على السلامة يا باشمهندس .

يقسم حب الدين ، ان المهندس ما زال يذكره ، لا بشكله
فقط ، بل باسمه ، وانه قال له : ازيك ياسى حب الدين .
وسأله عن البلد والعمدة ، واسم صاحب الارض ، التى اخذ
منها العينة منذ ستة اشهر ، يقول حب الدين ، ان المهندس قد
حضر هذه المرة لاقامة طويلة . وانه قد اجل زيارته للعمدة حتى
صباح الغد ، وانه قد نصب ثلاث خيام في ارض الوقف .
- وماعرفتش ايه الموضوع ؟

يقول حب الدين : الموضوع كله سيعرف في الغد . لا داعى
للاستعجال ، سيكون خيرا . قال لهم : انه مطمئن للمهندس ،
فهو رجل لطيف ، يحب الناس ويسعى لمصلحتهم ، المهندس اكد
له ، ان الايام القادمة ستحمل للسوالم كلها الخير ، خير من نوع
جديد . لم يطلق الرجال اهمية على كلام حب الدين الاخير .

- ومنين ييجى الخير ؟

- الخير ايامه راحت ياعم .

يحكى لهم حب الدين ، شاهد المهندس ، يعلق غياراته الاخرى
داخل الخيمة ، وان المهندس سأله عن كيفية الحصول على الطعام
وسمره ، وان كان في السوالم بيت من الممكن ان يستأجره ، وانه
سأله عن اسم مأمور المركز ، ومعاون نقطة وليس تكل العنب .
لم يفهم الرجال كلام حب الدين ، وبداءوا يفقدون اهتمامهم
بالموضوع كله . كانوا يتصورون ان المهندس سيفادر البلد في الصباح
الباكر على الاكثر ، غير ان الموضوع لم يكن واضحا في اذهانهم ،
كانت الامور ضبابية وقلقة في فهم كل منهم . الضبابية تكمن في
امر واحد ، ماذا يريد المهندس من بلدهم . كانت حكاية البنرول
والخير الذى ينتظر الجميع . احلاما لم يكن هناك من يحلم بها .
اقصى ما كان يحلم به احدهم . في هذه الليلة ، هو ان يكون حسابه
في الجمعية التعاونية في آخر العام بالمدل ، وان يتبقى له من ثمن
المحصول ما يكسو به الاولاد ، او ان يمتد دور المياه يوما واحدا

او ان ينجح ابنه الذى يتعلم في مدرسة المركز ، او ان تلد
جاموسته عجولين في بطن واحد .

حب الدين يقول لهم ، انه احب المهندس ، ومن يدري . نسبه
يكون اهله ، من الفلاحين مثلهم . الرجال يدخنون ، يمسك حب
الدين غابة الجوزة ، يجلس وسطهم ، تدور الغابة بين الافواه ،
وكل منهم يمسك بطرفها قبل ان يدسها بين شفثيه ، تتوهج
الجمرات في حجر الجوزة ، ويخرج الدخان الازرق من الانوف
والافواه كثيفا ، يتلون في جو العشة ، فيملؤه بالظلال ، التى تحجب
عن الرجال الضوء الخافت . ترتفع ابيادى الرجال ، تمسح الظلال
عن عيونهم ، يحدثون في بعضهم ، يتأكد كل منهم ، ان الآخرين
كما هم امامه ، يصعد الدخان الى رؤوسهم ، يشعرون بالدوخة .
وتنفك عقيدة اللسان . الكلمات تقال الآن ، لكنها بحرية
كسولة ، كما في حياة السوالم من الحزن اليومي المتجدد ، حيث
يبدأ وينتهى كل شيء بعد صلاة العشاء . ويصبح الذهاب الى
الفراش امرا له خطورته ، والجلوس في عشة سلسيله بكل
الكثير . ظلام الليل يتوج اليوم كله بالحيرة . يوم مر كفيه من
ايام العمر ، وقد يمر اليوم بلا عمل ، وبذلك يكون قد سقط من
حساب الحياة .

ان فترات الصمت التى تتخلل حديث الرجال قد طالت ،
واصبحت الشفاه المزمومة لا يخرج منها سوى حروف قلبك .
الحديث يتناول كل ما في حياة السوالم الصغيرة . الحديث يدور
بين الرجال ، وسلسيله تنظر الى الرجال بعيون ميتة ، من خلف
النسبة ، ونادرا ما تتشارك في الحديث معهم . حب الدين يتوسط
الرجال ، وقد كف عن متابعة حكاياته مع المهندس ، غير أنه كان
يود ان يقول لهم ان المهندس قد وعده بالعمل معه ، سواء في
السوالم او في بلاد اخرى ، وانه خير له ان يترك البلد ، فحاله
لا يسر احدا من الناس . غير انه صمت ، جلس ويداه في حجره .
وسند الجوزة الى صفيحة المياه امام سلسيله . الحديث يعبر
كثيرا ترعة ساحل مرقص ، الذى ينساح تحت العشة مباشرة ،
والكلمات مسترخية كما تمضى لياليهم تحت سماء منقوشة
بالنجوم اللامعة . مثقلة بضباب ليالى الخريف الباردة ، والحمل
في حديث الرجال متشاقلة كتشاقل مرور الحياة في السوالم .

قبل انتصاف الليل ، قال ورداني ، وكانت تلك أول مرة يتكلم فيها ، منذ أن جلس في العشة ، أن قلبه غير مستريح لحكاية المهندس ، وأنه يقسم للرجال ، من الآن ، أن في الموضوع شيئا ما . في غير مصلحة أهل البلد كلهم ، أن قلبه دليله ، وقلبه لا يخطئه ولا يكذب عليه .
- والله أنا عيني الشمال بترف من يومين .

قال ورداني ، أن رف عينه الشمال دليل شؤم ، وأنه لن يستريح إلا بعد سفر المهندس وتركه البلد . وطلب ورداني من الله أن تمر هذه الأيام على خير . فمن يدرى ماذا سيحدث للبلد .
- ومالكو محيرين نفسكو ليه ؟
بكره يرحل ، وترجع ريمه ..
أكمل أحدهم حديث سلسيله ..
- لعادتها القديمة ..

ضحكوا ، وتمالت الضحكات في جو العشة ، طلبوا من سلسيله دور شاي يخبثون به السهرة . وخلال شرب الشاي ، قالوا لأنفسهم ، أنه من المستحسن لهم أن يذهبوا الى المعلم يعقوب . يطلبون منه المنورة . فهو أقدر منهم على فهم هذه الأمور ، قال الآخرون . لابد من فتح الكتاب ، لقراءة لعيب . فلا يمكن السكوت على ما يحدث في بلدهم ، وتمنى بعض الرجال ، لو تمر على بلدهم في الصباح الباكر الفجرية ، تكشف لهم الاثر ، وتعرف ماسيتون . بعد شرب الدور الأخير . قام الرجال .
- تصبخوا على خير يا رجاله ..

ففرق الرجال في حوارى السوالم . الليل ينتصف الآن : وفي ظلام الليل ، تبهت المعالم المألوفة ، وتبدو للناس كالاشباح . وتبدو السماء مرسعة بالنجوم . وقد تحجبت النجوم غيمة منخفضة كأنها الوسادة فوق الأرض ، وتظهر النجوم بين الحين والآخر ، كأنها تغمز غمزات متقطعة خلال الغيمة الرمادية . ويهب على الرجال هواء مشبع برطوبة ليلية . يصل الرجال الى بيوتهم . يتبولون في الحوارى أمام ابواب البيوت ، يدخلون بيوتهم . وفي أثر رائب . يطمشون على بهائمهم ، يضمون لها العلف في المزاد ، وفي حجرات نومهم يخلعون ملابسهم ، ويرتدى الرجل منهم جلبابا قديما على اللحم ينام به . وفي حجرات نومهم ، يقضون أوقانا

رامشة ، لحظات نادرة ، يشون فيها كل الاشياء ، يتحسسون الاجساد البضة الناعمة ، يعيشون لحظات في حلاوة الشهد ، يقولون كلمات ملساء ، يشربون رحيق نسائهم ، يتحسسون بالسنتهم المشققة خدود رفيقات العمر في رقة وحضان . انهم يلبسون في الارحام اطفالا ، شوهتهم مرارة الايام وقسوتها ، وشكل الصبر ملامح وجوههم .

ذلك ما يحدث في الليل ، ولكنهم في الصباح ...

اختبارية ، قال عصمت بالحرف الواحد للعمدة ، ان هذه البئر صغيرة محدودة ، لا تكلف الشركة كثيرا ، ومن خلال البئر يمكن التعرف على امكانية وجود البترول وكميته ، اى عمر البئر ودرجة جودته .

العمدة لا يدرك حقيقة ما يقوله عصمت ، لقد تصور ان السبب في ذلك الى كلام عادى ، غير ان السكتب والمدارس . بعد ذلك انتقل عصمت الى كلام عادى ، غير ان العمدة لم يكن يعنيه هل فهم ، ام لم يفهم . لم يشعر العمدة الا بشعور واحد ، ان هذا الشاب غريب يجب معاونته . لقد ادرك العمدة . في الثانى الاولى . ان هناك شيئا ما يموت فيه ، لا يدبل قبل الاوان ، وهذا الاحساس ناتج من انه امام شيء جديد تماما ، مذهش ، غير عادى ، ممثل في هذا الشاب الصغير ، الجالس امامه ، يحذنه عن البئر والبترول والتحليلات ، يقول كل هذا بكلمات رائعة ، وان لم يكن قد فهمها .

قال عصمت ، انه قد حضر للعمدة ، للتعرف عليه ، لا يهمه موضوع البترول ، بقدر ما يهمه معرفة الرجال . انه يطلب من العمدة ان يعاونه . انه يريد قطعة ارض ، النصف فدان الموجود حرى البلد ، حيث ان احتمال وجود البترول فيه اكثر . سيؤجره من صاحبه بشكل مؤقت . وان ثبت وجود البترول فيه ، ستؤجره الشركة باى ثمن يطلبه . قال ايضا ، انه يريد ان يعاونه الرجال في العمليات الميدانية في المشروع بالاجر ، حتى يصل الى نتيجة ما ، وانه يطلب منزلا للاقامة فيه . فذلك افضل من الحياة في الخيام ، وانه يطلب غفيرا لحراسة المعدات والخيام والسيارتين . قال عصمت ، انه يمد يده للعمدة ، كى يعاونه في المشروع ، دون اللجوء الى الرسميات . وانه مطمئن لنتائج المشروع ، قال عصمت ، وهو ينظر الى الحقول ، من خلال النافذة البحرية ، ان نجاح المشروع ، يعنى ان يتغير شكل الحياة في السوالم ، لسنوات طوال قادمة .

لم يتكلم العمدة ، امتدت بينهما فترة صمت ، وكان ينتاهى اليهما نهيق حمار ، ونبغاء حيوانات ، ونداءات خافتة تأتي من الحقول البعيدة ، وصوت رياح خريفية تهب من الحقول الواسعة .

- قلت ايه يا عمدة ؟

- هيه ، اصل الموضوع .

في الصباح ، قرر المهندس عصمت ، ان يزور العمدة في منزله ، ارسل له من اخبره بذلك . في العاشرة ، اتجه عصمت الى دور العمدة . الطريق ، الشارع الرئيسى ، الحارات الضيقة ، كل شيء يؤكد معنى الجفاف ، ذبول وجوه الرجال الجالسين على المصاطب بدون عمل ، اختفاء الحطب من فوق السطوح ، افرع الاشجار العارية ، الجرداء ، كأنها تصاوير الرعب ، تحت الاشجار ، الاوراق الجافة المتساقطة على الارض ، تذكر الناس ، في كل لحظة ، ان السوالم ، تمر بايام الخريف . عصمت يسير في حوارى السوالم بمفرده ، واضمأ يده اليمنى في جيبه الايمن ، ويده اليسرى في جيبه الايسر . انه يفكر في مشروعه المقبل ، ويدرك انه وحيد ، وانه سيواجه مصيره هنا بمفرده ، انه يكاد يحدث نفسه ، غير انه يؤجل الموضوع لحين عودته الى الخيام ، وهناك سيدون ، يكتب ، ترتعش الكلمات وتلتوى الاحرف ، ومطلوب منه ان يدون الكثير .

عند الدوار ، كان العمدة وشيخ الغفر ، وحب الدين سرحان ، وبعض الرجال من اهالى البلد ، وبعض الغفر الذين ذبلت هيونهم من سهر الليالى .

- تورت الكفور يا باشمهندس .

- الله بخلبك يا عمدة .

يتبادلان معا كلمات معاده ، تقال في مثل هذه المواقف ، السؤال عن الصحة ، والحال ، والمزاج ، كلمات يقولها الناس ، عندما يلتقون لأول مرة ، انهم لم يعرفوا بعضهم البعض ، وهذه الكلمات لا تقرب ما بينهم ، ولا حتى تبعد وحشة الصمت ، ولكنها تقال تزحم مساحات الهواء بين الرجال ، تخرج من بين شفاه مزمومة ، وتلقى على وجوه يصيبها الخجل والارتباك .

عصمت يقول للعمدة ، ان التحاليل الميدانية ، لم تؤكد وجود البترول ، ولم تنف وجوده ، وان المسألة مسألة احتمال فقط . قال عصمت ، ان المتبع في مثل هذه الحالات ان يتم حفر بئر

يقول العمدة ، ان الموضوع خطير ، وانه لابد له من الرجوع الى رؤسائه .
- لازم المركز يعرف .

افهمه العمدة بكلمات بطيئة ، ان المركز ومجلس القرية في شئت الانعام ، والنقطة الثابتة في تكلا العنب ، لابد وان تعرف الموضوع ، وانه سيرسل في طلب التعليمات من هذه الجهات . صمت العمدة ، قام من مكانه ، وقف ، تمشى ، حاول ان يبتسم ، وان يقترب من المهندس ، جلس مرة اخرى ، وضع يديه في حجره ، استراح في جلسته ، وقال المهندس ، انه سيتعاون معه ، وانه يصعب عليه من الآن اى تأخير قد يعترض الامور ، قال العمدة بسرعة ، كمن تذكر شيئا ، ان للاهالي رأيها في الموضوع ، ولا بد من الرجوع اليهم ، قبل اتخاذ اى اجراء ، اما من ناحية وجود منزل خال ، فهذا خارج عن ارادته ، فلا يوجد في البلد كلها ، منزل واحد خال ، وان الخيام قد تكون اصلح من البيوت اما من ناحية التعاون ، ومد اليد ، وحسن النية ..
- احنا اهل يا باشمهندس .

قال كلاما بعد ذلك ، لم يميزه عصمت ، وكانت طيور الصباح تملأ الفضاء الازرق ، تشق السماء طائفة في فرح . ان البلد ، يقول العمدة ، في الحقيقة ، عبارة عن بلدين . السوالم بحرى ، والسوالم قبلى . وانه من المفروض ان يكون للسوالم بحرى عمدة آخر ، غير انه يوكل نائبا له هناك . وانه مسئول عن كل شيء هنا وهناك .

قال العمدة ، ان هذه الايام تختلف عن ايام زمان . في هذه الايام ، يوجد الاتحاد الاشتراكي العربى « اشار الى انه الامين العام ، وان الناس هي التي انتخبته واصرت على ذلك » ، يوجد ايضا ، مجلس القرية ، والنقطة الثابتة ، والعمدة . اما ايام زمان ، تنهد العمدة ، رفع يده اليمنى ملوحا بها . لم يكمل .
- عموما ، احنا هنا ، تحت امرك .

يقف المهندس ، تستريح نظراته على البيوت الشرايبة التي بدن له ، من خلال النافذة ، يمد يده للعمدة ، يضافحه ، يؤكد له انه سيعتمد عليه بشكل رئيسي . يقول له العمدة ، انه سيكون ذراعه اليمنى ، وانه لا يطلب منه ، سوى ان يسلمها لله سبحانه وتعالى ، وان يضع في بطنه بطيخه صيفى .

- حد يوصل الباشمهندس يا اولاد ..

في الطريق ، كان عصمت ، وكان التعب والاجهاد ، والاحساس المحذر بالخوف على اول طريق الوصول . همس عصمت لنفسه ، ان المسألة ، ليست الخوف او الشجاعة ، كان في نفسه احساس ما ، ربما لا يقدر على التعبير عنه في كلمات ، لم يكن يشعر بالاطمئنان ، ادرك انه لم يصل الى ما ينتويه العمدة . ان كلمات العمدة ، وتماير الوجه ، ولمحات العيون ، والبسمات المرسومة بعناية على الشفاه ، والضحكة الخافتة ، ان كل هذا ، لا يعكس ما في نفس العمدة . عصمت يتذكر الآن ، بعين خياله ، ملامح العمدة الحادة ، عينيه الصغيرتين ، شعره الابيض ، صدره العريض ، ملابسه ، جلسته ، نظراته من خلال النافذة على البيوت والحقول والناس ، حديثه .

في الدوار ، جلس العمدة بمفرده ، طلب دور شاي ، وطلب الا يدخل عليه احد . وقف ، سار في دواره ، وقف بجوار النافذة ، أمسك بحديدتها ، وراح يستنشيق بملء رئتيه هواء الخريف الجاف ، الذي يحمل له رائحة الارض الشراقي . العمدة يحاول ان يفكر في موضوع المهندس ، الذي فرض نفسه على حياة البلد ، وهو من البداية يدرك ان الامور بدأت تفلت من يده . هذا الطارق الجديد ، المهندس الشاب ، المتسم دائما في صفاء ومودة ، الارض الحكومة ، البلد ، الاهالي . العمدة ليست منصبا ، بل هي كل حياته ، كانت حياة آبائه هنا ، ولا بد ان يكون في نفس المكان ميراث ابنائه . والطريق من حجرة نومه ، حتى كنيته في الدوار ، سكة في القلب ، يقطعها مرتين او ثلاثا كل يوم ، لم يفهم العمدة الامور جيدا ، غير انه استشعر الخطر من مجرد وجود المهندس في السوالم ، احس انه مندوب اثنى قبل الاوان ، لا يام لم تعيشها السوالم بعد . ومن يدري ؟

اشارة : من عمدة السوالم ، الى نقطة بوليس تكلا العنب الثابتة ، ومجلس قرية شئت الانعام ، ومركز ايتاي البارود . حضر البنا اليوم ، مهندس من مصر ، واقام خيامه بالناحية ، وقال انه ، حاضر طرفنا للبحث عن البترول ، وقال ان معه التصاريح اللازمة لذلك . رجاء افادتنا ، على وجه السرعة ، عما

يتمتع نحوه ، واقبلوا التحية . مبلغ الاشارة ، امضاء . التاريخ ، رقم اصدار .

العمدة ، رغم انه يفك الخط ، ويقرأ الجريدة ، ان اتى بها احد من الضهرية ، فان كل المسائل في السوالم مرتبة امامه ، في الزمان والمكان ، وجميع مشاكل البلد ، تجد عنده الحل دونما اى مفاجآت ، كل الامور ، تجري بعمليات حسابية دقيقة . واهل السوالم كلهم ، يتصورون انه يطل على البلد من مكان مرتفع . كان عند العمدة وعى بسيط يضبط به مجرى الامور ، غير انه لم يكن يعرف ما في الطبيعة البشرية من التردد ولاقدام ، الخوف والشجاعة ، القدرة على كسر كافة القواعد المتعارف عليها ، العنف ، الخروج عن المألوف . وعندما كانت تسد كافة الطرق في وجوه الناس ، فان نشاطهم البشرى ، كان يتحول الى مسارات اخرى . العمدة يريد ان يصرف كل الامور في مملكته بنفسه ، غير ان الحياة في عقولها ، في حضورها الدائم ، في تواجدها بعينها وقضها وقضيضها ، كانت تكسر اى نظام ، تجعله تخطيطا مجردا من كل محتوى . وعند ذلك كان العمدة ، بقر ، بينه وبين نفسه دونما كلمات ، بهزيمته ، امام ذلك الشيء الذي لا يعرف له اسما ولا جنس شكلا محددا .

حاشية : الاهالى طرفنا مستاءون جدا من حضور المهندس ، ويقولون لبعضهم البعض ، ان حكاية المهندس لن تنتهى على خير . الوقت هو وقت الضحى ، والحاج على الدفراوى ، عمدة السوالم ، يجلس في دواره ، وهو يدرك ، انه امام حادث جديد . ويدرك ايضا ، ان ما سيقوم به ، لن يجدى شيئا ، وان السوالم الناس والحوارى والبيوت والاشجار والبهائم . بل والارض من تحتها والسماء من فوقها ، ستفاجئه بشيء لم يقم له اى حساب من قبل .

ملحوظة : المعلومات الواردة في الحاشية ، لم يقلها لنا احد صراحة ، ولكننا عرفناها بطريقتنا الخاصة .

عصمت في طريق عودته من دوار العمدة ، يسير خلفه خفير نظامي ، حاول عصمت ان يسير ببطء كي يحاذيه الخفير ، غير ان الخفير ابطا من سيره هو الآخر ، وعندما تاكد عصمت من عدم

جدوى المحاولة ، توقف تماما ، واستدار الى الخفير ، عند استدارته ، رفع الخفير يده بالتحية في خوف . ابتسم عصمت ، به لا يريد سوى ان يكلم الخفير ، تنحج ، ابتسم ، حاول ان يبدد وحشة الصمت ، غير ان ملامح الخفير كانت تنطق بالسلاطة . ساله ان كانت الجرائد تصل الى السوالم ، قال له : انها لا تصل الا صدقة ، حاول ان يعرف منه عدد السكان ، واسم رئيس مجلس قرية ششت الانعام ، الرجل لم يكن يعرف الكثير ، عند الخيام ، تركه الخفير ، بعد ان حياه ، وساله ان كان يطلب اى خدمات ، وعاد الى دوار العمدة .

عصمت يقف امام الخيام ، وبمسح الفضاء بنظرائه ، ارض مصاء يظفر على سطحها النشع . فيها اشجار نخل وجميزة كبيرة يبدو انها عاقر ، المنطقة التي اقيمت فيها الخيام ، مساحة من ارض ، مغطاة بطبقة جيرية بيضاء ، وعلى حدودها ، تنام بيوت رابية مبشرة غير منتظمة ، انه يقف متجها ناحية الشرق ، عبر يمينه ، السوالم قبلى ، وعلى يساره ، السوالم بحرى ، وامامه وخلفه بيوت صغيرة ، تداخلت في بعضها البعض ، وعلى مرمى البصر امامه ، زاد النشع ، فتحول الى بركة صغيرة ، تنعكس على صفحة مياهها الداكنة ، سماء خريفية شاحبة ، كنست الرياح السحب منها ، فبدت مفسولة صافية ، وعكست مياه التربة اروع الاشجار المارية . احيانا ، كانت تنزل بطة صغيرة في مزرعة ، فيشير نزولها تموجات في المياه ، فتتكسر صور الاشياء . تطول الاشجار ، تتموج السماء في ليونة ، تقصر البيوت ، تنكسر اشكالها الخارجية على صفحة المياه .

عصمت يتقدم الى الخيام ، زملاؤه جالسون ، يتمتعون بشمس الخريف ، الموشاة بذكريات الصيف الماضى . ظله واضح على الارض خلفه ، وهو يتقدم ببطء الى الخيام . وعلى البعد ، تحديق العيون اسفيرة فيهم . عصمت يخلع نظارته ، يسمح زجاجها ، بمسكها بيده ، يسمح عينيه بمنديل ابيض ، يفركهما ، يحديق في قرص الشمس بدون نظارة .

في الخيمة ، جلس صامتا ، شرب الشاي ، استراح قليلا ، جلس على مكتبه المتنقل الصغير ، اخرج ورقة بيضاء ، امسك بقلمه بين اصابعه ، ادرك ان الحال ليست على ما يرام ، وانه خائف ،

وان الشجاعة مسألة نظرية ، جلس كى يكتب تقريره اليومى عما
تم انجازه من خطوات المشروع .

السوالم ، بحيرة ، فى . تقرير للعرض على السيد . مقدم من
المهندس . المشرف على مشروع .. وفى صباح القد ، سيضعه
فى مظروف معلق . سرى وعاجل جدا . يرسل الى المقر الرئيسى
للشركة فى مصر

معلومات مبدئية : فى الزمان القديم ، كانت البلد ، عبارة عن
عدد غير معلوم من الكفور ، قيل عشرين كفرا ، وقيل أقل ، وقيل
أكثر ، الله أعلم ورسوله . كان اسمها ، كفور السوالم ، وبمرور
الزمان ، ومروره يفعل دائما بالحياة والناس كل شئ ، تحولت
الكفور الى تجمعين ، سمى أحدهما ، وهو الذى الى ناحية
الجنوب ، السوالم قبلى ، وسمى الآخر ، وهو الذى الى ناحية
الشمال ، السوالم بحرى ، وأصبح من المتعارف عليه ، ان لكل
منهما حدودا فاصلة ، ولكل من البلدين أرضه وعمدته ، وجمعيته
التعاونية . غير ان المدرسة الابتدائية كانت واحدة . لا يوجد فى
السوالم سوى عمدة واحد ، الا ان لكل بلد منهما شيخ خفر
وخفراء مستقلين عن البلد الآخر ، ولكل بلد منهما حجرة
تليفون ، شرقى السوالم مباشرة ، ترعة ساحل مرقص ، وهى
ترعة كبيرة ، شرقى الترعة ، طريق زراعى واسع ، شرقى الطريق
الزراعى ، بلدة اشليمه ، يربط السوالم بالطريق الزراعى واشليمه
جسر عريض . غربى السوالم ، طريق صغير ، يتسع لمرور سيارة
بالكاد ، يوصلها بششت الانعام ، والطريق الزراعى ، يوصل
السوالم ، جنوبا بدميسنا وكفر عوانه وتكلا العنب . وشمسالا
بالضهرية والتوفيقية ، حيث الطريق السريع .

يقول أهالى البلد ، ان هناك «شيخ قديم» ، سيدنا الغريب، قد
كتب كتابا كبيرا ، سماه «مدونة تاريخ السوالم» عاش حياته
كلها للعبادة والصلاة ، ولمحاولة معرفة كل شئ عن البلد ، ملا
عينيه بالبيوت والاشجار والناس ، وشنف اذنيه بكل ما يقال ،
فرا الكتب ، حادث الناس ، سمع وقرا الكثير . يقول
المسنون من أهالى البلد ، ان سيدنا الغريب ، كان يبدو للناس
فى آخر أيامه ، مهلهل القلب والجسد واللب ، ساهما مفكرا ،
مدونا كل ما يراه . يختم الاهالى حكاياتهم ، بالاسف لضياح
الكتاب ، وطلب الرحمة لسيدنا الغريب حيث يرقد الآن ،
ويحاول كل منهم ان يتكهن بما فى ذلك الكتاب العظيم .

سيدنا الغريب . بذكر المسنون هذا . كان ينفى في خلعه . يرتفع صوته الحلو ، يجرح صدر الليل . تبعثره نسائم الهواء . تنافله الاسماع . انصت يا قلبي . وانع الأرض التي نشأت فيها . لقد أصبحت البلاد حربنة . فلا من يهتم بها . ولا من يتكلم عنها ، ولا من يذرف اندمع عليها . فاية حال منك التي عليها البلاد . انصت يا قلبي ، وانع الأرض التي نشأت فيها .

يقول الناس : يرحمه الله .

الصورة العامة : ترعة كبيرة ، تنعكس على صفحة مياهها الزرقاء الصافية ، بيوت ترابية متناثرة ، بدون نظام ، وبين البيوت ، حارات صغيرة ، تصعد مرتفعة بالتدريج الى قلب البلد ، وسط البيوت ، تنتثر اشجار جميز وتوت ونخيل مرتفع ، من يقترب من الترعة وتكون المياه مستوية السطح ، يستطيع ان يشاهد بعض البيوت ، التي تخرج على المألوف ، بيوت مطلية بالوان زاهية ، ظلت في مناسبات يذكرها الناس ، حج ، زواج ، شراء أرض ، وعلى هذه الالوان ، رسومات صغيرة ، سفن ، جمال ، ست الحسن والجمال ، الشاطر حسن ، أبو زيد الهلالي ، الزناتي خليفة ، يرسمها لهم رجل مبيضاتي ، يأتون به من ابتاع البرود ، من اجل ذلك خصيصا . بعض البيوت ، مبنية من دورين ، ويقول الناس عنها ، انها مبنية بالسلاح . في هذه البيوت ، أبراج حمام صغيرة . وخلف الصورة ، أعمدة واسلاك تليفونات . وفي ركن من الصورة ، مبنى يبدو فوق جميع البيوت ، كأنه يطل عليها ، انه صهرج المياه ، الذي يمد حنفيات البلد ، الموجودة في الحارات والشوارع ، بالمياه النقية ، للشرب فقط . في منتصف الصورة ، قضاء صغير ، يفصل البلدين ، انها أرض الوقف ، التي لا يملكها احد ، بجوار أرض الوقف ، تبدو في الصورة مئذنة عالية ، مبنى اصفر قائم ، مغطى اللون . تلك هي الصورة العامة . وعندما تنزل في مياه الترعة ، ساقين رائعتين لامرأة تملأ جرتها ، أو رجل يعم غابرا الترعة ، فان تموجات المياه ، وانكساراتها ، تعجن البيوت والصهرج والمئذنة والاشجار . البلد ، تكون شكلا جديدا ، بعدا آخر أمام العيون ، المراتب تعود الى شكلها الاول ، بعد ان تهدأ مياه الترعة . تنساح المياه متجهة ناحية الجنوب في ببطء مهاجرة في الزمان أبدا . وتبدو الصورة ، البيوت والحواري والناس ، مفسولة بالحنين . نظيفة ، ملفوفة

بالشهد ، احلى من قطر الندى .

خلفية الصورة : اراض زراعية . مساحات لا نهائية من الخضرة ، وسطها طرق ومسارب ومدقات ترابية اللون ، اشجار عالية ، مدارات «سواني» في الشمال طريق صغير ، يرتفع حتى يصل شئت الانعام ، وسط الحقول الواسعة ، رجال نائمون ومواش يأكل في مزاد صغيرة . اخصاص من الحطب الجاف ، نعتت وسط الحقول ، للمبيت فيها وقت جنى المحصول ، بيوت قليلة بناها فلاحون تروا البلد ، لسبب أو لآخر ، وفضلوا الحياة في الحقول الواسعة . جنوبى الصورة كوم مرتفع ، تظهر منه عيذان الحلفاء النامية ، لونها اخضر ، خضرة رصاصية ، ينتثر التراب عليها . وسط الحلفاء شواهد قبور ، وفي الركن الايمن دوار مرتفع ، مدفن عائلة الدفراوى ، باقى القبور تنتثر على الكوم كله ، في غير نظام ، ثمة طريق مهمل ، غير مطروق ، يصل المدافن بالبلد .

عن الالوان : اللون الرمادى ، لون تراب الأرض ، ومعظم البيوت يمتزج بلون اخضر رصاصى غامق . يلتقيان معا عند خط الأفق الغربى ، بلون ازرق ، صافى الزرقة ، لون السماء . في الوسط الوان اخرى ، اصفر باهت ، احمر وابيض ، غير انها لا تشكل خروجاً على المألوف من الالوان العامة للصورة .

بدون تحت الصورة ما يلي : الناس هنا طيبون يملكون شيئا ما ، قدرة خاصة ، انهم عندما يضمنون اقدامهم المشقة على الأرض الشراقة ، ويشقون بطنها بسن المحراث ، فان الأرض تبوح لهم بسرها ، ومن رحم الأرض ، يشتزعون السر ، كل رجل يملك في داخله بذرة ما ، احساس معين ، يدهش الأرض ، يجعلها صرخ دافعة ما في رحمتها الى الناس . تكتب لكم من احد منازل اسوالم ، المنزل يقف على رأس الشارع الرئيسى كالحارس اليلى البقظ ، الشارع يمتد قاسما السوالم الى نصفين كالنهر الكبير ، وعلى شاطئيه ، تنبت الحارات الضيقة المرتفعة على الجانبين ، مثل العروق على ورقة شجرة التوت ، وفي ارتفاع الحارات ، تنكور البيوت الطينية ، ومن جوفها ، تطل القنمة والبرودة والاكماش والانطواء . وفوق الاسطح ، الحطب وصوامع التخزين والنساء والاطفال والشيوخ . وفي ساعة المعاري ، تدور العيون في المحاجر ، تسمع الحارات والحقول والسماء الخريفية الصافية

من أجل هؤلاء وعينهم . ثبت في أوراق زماننا هذه الكلمات في السؤال سمعت ليلى ملء بالمرارة والانكسار . رجال مكسورو القلوب ، يلعبون السجعة وقت الغروب . وبشربون الشاي المر ويدخنون المعسل في عشة سلسيله على الله . هنا رجال يتكلمون في السياسة . ولا ياكلون اللحم الا في المواسم والاعياد . وينامون على الارض . يربون المواشي والدجاج والطيور كي يبيعونها يوم السوق من كل اسبوع . وسعور ابيض والنبي والسمر . ارجس هنا . يحملون في جيوب الصدري ، محافظ خالية من النقود . فيها ابصالات مكتوبة ، موقعة منهم ، بطلب سلفة من الجمعية التعاونية ، لم يحصلوا عليها بعد . ومعلق فيها اختامهم الصفراء الصلدة .

في السوالم . ابناء ليل . شبان بلا عمل ، يسرقون ويقتلون ، ويحملون بفتح بوت لهم ، وبالتوبة ، لا يظهرون بالنهار ، ويملاون الليالي بالخوف والقهر والرعب ، يجرون في الحقول ، تدوس اقدامهم في قلوب الرجال ، واهالي السوالم يشفقون عليهم ، رغم كل ما يحدث منهم في الليالي الطوال ، ويحاولون ان يجدوا لهم العذر .

في السوالم : سوق واحدة ، تقام يوم الخميس في الشارع الرئيسي وفوق الجسر ، يتخفف الناس فيها مما عندهم بالبيع . في يوم السوق ، يذهب الكثيرون ، يلفون السوق ، يملأون قلوبهم بالرغبة في كل ما يباع ، اليد قصيرة والسين بصيرة ، يعودون كما هبوا ، جيوبهم خالية ، وصدرهم قد فاض بها الصبر ، يعزون انفسهم بأن يقولوا انهم اما حضروا للبحث عن طلب لم يجدوه في كل انحاء السوق ، واما انهم حضروا للفرجة فقط

والصمت كثر من الكلمات في افواه الرجال . قاموس حياتهم شحيح . فقير . نادر المفردات . الحوار يبدأ بالصمت : صمت جيتش زاخر بالاسى . الصبر صبر ايوبي : انه ليس صبرا : بل نوع من الخضوع للعالم الخارجى والناس والاشياء . في صناديق اشياء القديمة . ابصالات بمبالغ اقترضها الرجال بالربا من اغنياء البلد . في انتظار جنى المحصول . في الصناديق عقود زواج قديمة . شهادات ميلاد الابناء الصغار : صور باعثة للعالم لافراد من الاسره : تركوا البلد . وسافروا الى البنادر القريبة . هنا ارض خصبة . سماء سافرة : وهمسات راجفة في القاعات

الواطئة ، ويقظات حارقة في الليالي الشتوية الناعسة . في قيعان احارات ، وهنا في السوالم ، آمال ملساء ، ناعمة ، تنسجها الشفاء ، وترسمها العيون . بأن التهارات الرائعة ، لابد وان تاتي الى السوالم ، مع مجيء الربيع القادم .

الرجال ينامون ، يتمددون على ظهورهم ، يطالعهم في نومتهم السقف والخشب والبوص والسناج الاسود الذي يغطي السكل . الرجال يفكرون وهم نيام ، في الذهاب في صباح الفد ، الى من يكتب لهم شكاوى موجهة الى جهات متعددة ، وفي قيعان محافظتهم أحلدة الحائلة اللون ، أوراق دمغة اشتروها في ساعات رخاء . وحفظوها من أجل هذه الشكاوى ، انهم يفكرون فيمن يكتب لهم الشكاوى ، وستكتب ضد من : العمدة ، شيخ بلد . شيخ الخفر ، معاون الجمعية التعاونية : امين شونة بنك اسلبف الزراعى في كفر عوانه : مقالو الترجيلة : ناظر المدرسة ، معاون البوستان ، يحركون الستهم في افواههم ، يدركون انهم قد سبوا باخرس . فيقررون الذهاب صباحا الى فتحى سالم . وهناك ، يصفون له ، بكلمات منكرة . ما آلت اليه الحال ، يجلسون على الارض . بجوار مكتبه : يطلبون منه ان يحشى الشكوى بكلمتين من عنده ، يفلون الحديد : ينصت فتحى سالم الى كلامهم كله : وهو صامت ، ثم يشمر اكمامه . ويحرك شففيه بنظر ناحية السقف ويكتب .

في المسجد . يعلى الشيخ محمود بالناس . ويخطب يوم الجمعة ، ويجلس في مقام سيدى الفريب ، يفتح الكتاب : يقرأ فريب : يكتب الوصفات البلدية للمرضى ، وصفات بسيطة ورخيصة ، وعندما ينزل بالناس الكرب والضيق ، فانهم يذهبون اليه .

- والنبي ياسيدنا .

يندرون الندور ، ينفذون ما يطلبه منهم املا في الشفاء . عباد الله : يا راحة الدنيا ، يا اهل هذا الزمان ، لقد رايت ، ليلة لاس في المنام : رؤيا عجيبة يا تراب الارض ، وملح السماء ، تعالوا نمزق بالكلمات الالام هذه الايام ، استمعوا الى يا ابنائى ، في ساعة المصاري ، يذهب اليه الرجال ، يحكون له احلامهم ، راوه في المنام بالليالى ، كي يفسرها لهم .

- شوف ياسيدى ، اللحمه في المنام خير .

في أسوالم . سكر . امرأة مجروحة القلب والجسد . تملأ الليالي بالدموع . تخطو ساعة الغروب في الحواري . فوق الجسد الملبس مبلولة بالحنين . تجففها نفثات الرجال . ألف ألف نظرة تنزلق فوق أسباب الظهر . وتستقر في الردفين . أنها راضية بما قسم لها . اللهمة والحزن والحنين والجنون والعزاء ، انه هنا . في حواري السوالم وبيوتها وحقولها وناسها . بحر كبير . بحر الخلاص . بحر يفصل الأم الليل والزمان وذكرى عطفة باب الوداع وعصمت والشاب المنتحر .

تمر بالسوالم أحيانا غجرية . امرأة سمراء . طويلة انيقة . متينة البنيان . مصبوغة الشعر واليدين والقدمين بالحناء . مزدانة الوجه بالوشم الأخضر . السب محروسة . تقرا الودع للرجال . تجلس . تلفون حولها في نصف دائرة . وفي المنتصف . تفرش "رمل" . وفوقه الزلط . يدفع لها الرجال قروشاً ممسوحة لماله . - وشوش الذكر .

يذكر الرجل اسم أبيه . يدوس على الحروف ببطء . يكمل ارجل بخجل ريفي اسم امه . شكله الفجرية . تستخرج لهم من رحمة الغيب أحلاماً كثيرة . - قدامك نثايه وينشاغلك . وعانزك . - ههه فين بس ؟

تحدث الفجرية . عن أيام عصيبة قديمة . وعن مخلص . نهر جديد . سيظهر في البر . يجمع "الشم" . وينشر العدل . نحدث الست محروسة عن الوقاية من عين الحسود والستر . وسكة السلامة وسكة الندامة والسفر الى بلاد بعيدة . والعودة من هناك بكل ما يشتهي الانسان . وزيارة قرية يقوم بها للبلد أناس طبيون . يغيرون حياة السوالم .

في السوالم . رجال طبيون . يصلون ويصومون . ويذكرون عن النفس والاولاد والارض والمال . يطعمون الله ورسوله وأولي الامر . ويحلمون بيوم يأتي في مستقبل عمرهم . يستطيعون فيه الذهاب الى بلاد الحجاز . وهناك يمكنهم بحديد الشباك . ويهتفون من أعماق القلوب : اجرنا يا رسول الله .

في السوالم . أغنياء قليلون . وفقراء كثيرون : ظالمون ومظلومون . رجال يملكون مساحات من الارض . ورعوس من الماشية . وبيوت

نظيفة ورجال لا يملكون سوى اجسادهم وقلوبهم الفارغة . وهنا ايضا ، قصص حب ، حكايا يقولها . الرجال في الحقول ، أحلام منحوتة من جذب أيامهم ، وسفرات نادرة الى البلاد القريبة وسهرات قليلة ، لحظات نادرة . مختلصة من عمر الزمان .

نعشدر نحن الموقعين على هذا التقرير ، عما سنقوله الآن . لا يوجد في السوالم ، قبلى أو بحرى أو اشليمه أو ديمينا ، دكتور واحد ، أو مستشفى ، أو حتى ممرضة ، لا توجد مدرسة إعدادية ، ولا سلك كهرباء ، لا يوجد تليفون ، سوى تليفون العمدة ، وهو تليفون اميرى ، لا يوجد وابور حرث ولا سيارة ، لا تصل الى هنا جريدة صباحية ، تحمل أخبار العالم وما يحدث فيه . مرة اخرى . نعتذر .

ارقام واحصائيات هامة : في السوالم ، قبلى وبحرى . خمسة عشر ألف نسمة ، ويتبع زمامها حوالى خمسة آلاف فدان . في سوالم . مسجد واحد . هو مسجد سيدى القريب . وولى آخر من أولياء الله الصالحين . لم يبن له مسجد بعد . في السوالم . «سواقى» كثيرة . بناها الناس بالمشاركة . هنا ، طنابير ، حلايا نحل ، أبراج حمام ، اشجار جازورين وصفصاف ونخيل ، للسوالم أربعة طرق توصلها بالعالم الخارجى . بها شارع رئيسى واحد ، دكاكين للتزينة البلدى . يقالون . أهمها دكان المعلم محقوب . تجار حبوب . جزماتية . حلاقون . سمكرية . جزارون . اما باقى ما يحتاجه البلد ، فيجده الناس في يوم السوق من كل سبع .

بقايا كتابات اثرية ، وجدت على الواح قديمة . بجوار ساقية مهجورة :

« ان البحر قد غشى بصره . والمستمع قد سمع ، وذلك الذى يجب ان يكون مرشدا ، أصبح مظللا » .

« كنت اناكلم في قاعة العدل : بقم فصيح غير هياب » . « وقد طفح كيل عذابي ، وفاض بحر الامى . وهو ذا يتدفق من فمى : انينا وشكوى » .

اما الفلاح فحسابه مستمر « اى ان صاحب الارض يطالبه دائما بشأدية ما عليه من ديون » الى الابد ، وصوته أعلى من صوت

أبو « دائما يشكو » . وهو كذلك ، أكثر تعباً مما يمكن التحدث به ، وحالته كحالة الذي يعيش بين الأسود ، وهو في غالب الأوقات مريض . وعندما يعود إلى بيته في الغروب ، فإن المشى يكون قد مزقه أرباً « أي أن طول الطريق بجهد أجهادا كبيرا ، فوق ما يلاقى من التعب خلال اليوم » .

السفر في الليل

مياه : عرفت انها انضهرية . اكبر قرى الناحية . المباني تقترب
بطء ، وبعد مرورنا بالضهرية ، السيوت المتناثرة . وانعزب
السفيرة ، تبدو متباعدة ، ضللة . وسط الحمول اواسعه .
سوالم واسليمه . تمرس . لطريق يعبل علينا . حيب نهادي
سيارد عيبه . عند الجسر . نصبه جراره . ومصلى صغير . وشجره
صفصاف تحتها دكة وبجوارها مبنى . حيث ينتظر المسافرون
لسيارات .

الغروب : نسمات الخريف ، تهب علينا مشبعة برائحة المساء
والحفاف ولجذب . السيارة تجرى . وعيشاي ترحل على الطريق .
شريق يسوى امامنا . نه يستقم . يعبل على السياره في سرعه
عاجمه . تعبره ، يرمى الى الخلف . دائخا . مسترخيا .
نهدا . الشروع ، هو اول عمل اقوم به بعد التخرج . افكر في
كل شيء دفعة واحدة ، لا استطيع ان اثبت في ذهني شيء
حددا . الامور متداخلة ومختاطة وقد فقدت اشكالها الحقيقية .
لحظات قليلة من عمر الانسان . يشعر فيها ان حياته لا تخضع
لاى منطق . بل قد يشعر بان ما يعيشه ، شيء غريب ونادر ،
سدو العمر كله حلما قدما ، عشود الضباب . انفساين الضمير
ساحات اللحم الابيض ، السيقان والافخاذ ، البسمات التي تقطر
بقاء ومودة ، الاحلام والرؤى المستقطرة من غملاق الحرمان
زمن . استعمل احياه في قرية صغيرة . ربه . بعيد . مسه
اسوار . البلاد الحارة نهرا . الرطوبة الثلجية طول الليل .
ليالي الدافئة في عمق الشتاء : الحياه مع العقارب والنعابين في
حجرة واحدة ، الدماء الحارة الناقرة في العروق . الخلد الاسمر
عروق من الشمس . اجند يوفى العظم . والعظام اشواك .
اشواك طريق تقطعه كل يوم ، ذهابا وعودة الى بلادنا الحارة .
سفر شمالا . الهجرة مع مدد النيل . السرحوج مع ارسنا
سره حور اشمال . بلاوة صلاه الاسسند . خلال السقرة الاولى
في بلاد الشمال ، البرد والهواء الشتوى وموجات البحر العالبة .
شوارع الاسكندرية المليئة المسنولة بالحنين . النجر احرج
من الافواه مع اسكند . كانت الوجه طوب سنة منار فوار
ليلة امسى . الحياه مع اسرة غريبة . السكنى مفردى في احجرات
" سفيرة المؤجرة . التكلم منفردا معظم الوقت . اليقظه الحارقه في
سالى الاسكندرية الباردة . وضعت قلبى : الرؤى المرتجفة ،

السوالم بحيرة ..

الانين ٥ اكتوبر سنة ١٩٦٤ م

كانت اسيارة تسير بنا على الطريق الزراعى . معبر اسكندرية
الاشجار واعمد السيقوت والتمرب والمرووعات تجرى في سرعه
الى الخلف ، اسلاك الليفونات تبدو مشدودة . تسترحى وسط
الاعمد . تنف عيبها الطيور الى لم بهجر بعد . ناحية الجنوب .
يدور خط الافق ابعيد ، بخضرت الباهتة . في نصف دائرة .
مركزها السياره . تجرى النباتات المرتعشة الى الخلف . بجوار
الطريق . ربح صغير . به مهاد راكدة . يجمع بها دذورات
الحياة اليومية : حطب ، جثث ، حيوانات طافية ميتة . نباتات
مهوشه ، نساء يفسلن ملابس اولادهن ، بهائم مربوطة بجوارات الرياح
عند التوقيفة ، توقفت اسيارة ، انعطفت في طريق جانبي
منرب . متجها ناحية الجنوب ، يرتفع الطريق مبتعدا حتى الافق
البعيد ، يتحول في نهاية الامر : الى نقطة ترابية ، تنوء وسط
الاشجار . على الطريق الزراعى : التراب والمطبات والفلاحين في
حقولهم . قلل السائق من سرعته : غربى الطريق ، ترعة ساحل
مرفص . وعلى الشاطئ الآخر من الترعة ، كان تنعكس على مياه
الترعة ، نساء يملأن الجرار . ويفسلن الاطباق والاولان . النساء
في لحظة مرور السياره عليهن . حفين غفائنهن البيضاء بملابسهن
يدرن الوجوه الى الناحية الاخرى ، يتهايمن بكلمات لينة . رفعت
عينى ، في الحقول البعيدة ، الرصاصية اللون ، الخالية من
الخضرة الزاهية . كان هناك فلاح ، مقوس الظهر ، يبدو للعين
صغيرا ، يغمس يديه في الطين ، بحثا عن شيء ما في الارض تحت
قدميه .

خلال سيرنا ، مروننا بكنيسة الضهرية ، ثم ظهر لنا مثلذنة
مجد ، ومبنى حكومى ، وبرج حمام ، واسلاك تليفون ، وصهرنج

الاحساسات الراضية ، وفي خطاب أزرق معطر ، ارسلته الى هناك ،
الى قريتي . قلت فيه كلاما عن الحزن الليلي ، المستقبل ،
للمذاكرة ، الرغبات المعنوية في الاعماق ، الصمت والكلام ،
الخوف والشجاعة ، عاتقت فيه النوق والهوس واللفة والحزن
والجنون . قلت ان في الاعماق رؤى مريضة : احلاما مهوشة ،
فكره لم تتحدد بعد عن القهر والموت . اخبرت ابي : ان السعادة
والايام الخضراء التي لم نعيشها بعد ، هناك ، حيث كنوز الملك
سليمان ، موضوعة في صندوق ذهبي . والصندوق في اعماق
سابع بحر تحت الارض . قلت انني بعد التخرج سأصنع سفينة
من ورق الاحلام . املا شراعها بالوهم : ابهر بها بعدا . وهناك
سأبحث عن كنوز الملك سليمان . الاسرة الصلدة . الضحك -
الضحك بلا سبب واضح في الطرقات الخالية ليلا . الحيطان
الكالحة : الاجساد المتكورة الصفراء ، حسابات الربح والخسارة
البيع واشراء . الخوالة البريدية اول الشهر : التردد على مكتب
البريد اكثر من مرة للسؤال عنها . ادفعوا للسيد/مبلغ وقدره
عليه . جنينه فقط . اقدم لك الباشمهندس عصمت فهمي
النجاوي ، اهلا يا افندم . شرفنا : انا سعيد بمعرفتك الليلة ،
خشنا نشوئك بعد كده .

بالعائلة ، انه لم يتمكن احد من العائلة ، من ان يخوض معركة ما ،
واهم يعيشون في دائرة الانحناء ، وان رؤوسهم تقترب من الارض ،
وما بعد يوم ، وان اقدامهم قد التصقت بالارض ، اكثر من اى
مضى . قال اخى : ما من معركة ربحها احد ، بل ما من احد
قدر له يا عصمت ان يخوض معركة ما . التنزه في التذكارات
للمنسية ، محاولة الغزل من جذب الايام اشياء بسيطة وساذجة .
الخرج ، الفرح بالنجاح ، الحصول على بكالوريوس الهندسة .
مبروك . يصل ويسلم ليد السيد الوالد . البحث عن وظيفة ،
ايعام برحلة يومية ، بلا نقطة ابتداء وبلا هدف في الوصول الى
نقطة انتهاء ، السؤال والجواب ، قراءة جريدة الصباح في ثلاث
ساعات ، التعليم بالقلم الاحمر في اكثر من مكان في الجريدة ، كتابة
خطابات رقيقة مهذبة ، ايماء الى الاعلان المنشور في جريدة .
العدد . الصادرة بتاريخ . في الصفحة رقم . العمود ، قم .
يسان طلب وظيفة . بسرني ان اقدم لكم هذه البيانات ،
اترحيل الى القاهرة ، جمع الحقائق والذكريات ، الاخفاقات
التي : الاحلام التي لن تتحقق ابدا ، الانتظار ، محاولة تمزيق
لحظات الانتظار بالاحلام والكلمات والتسكع ، قراءة صفحة
اوفيات ، متابعة ما يجري في البلد باهتمام بارد ، العثور على
عمل مناسب في احدى الشركات ، ارتداء ملابس نظيفة ومكواه ،
السير في الشارع في الساعة والرابع صباحا ، المقابلات ، الجلوس
على مكتب ايدبال في الدور العاشر في احدى عمارات القاهرة
« » . ولا يتقصنا الآن سوى مشاهدة رؤياكم الكريمة « ذات
ج . اعطاني رئيس قسم المتابعة . خطوات احد مشروعات
الشركة في محافظة البحيرة ، كان المشروع لم ينته بشكل نهائى .
كان مؤشرا عليه « للدراسة والمتابعة واتخاذ المناسب من
الاجراءات ، وعرض » . من خلال دراساتي للخرائط البيروية ،
وتقرير لجنة المشروع السابق ، توصلت الى نتيجة مبدئية ، انه
من المحتمل وجود بترول على بعد معين من مكان المشروع السابق .
المشروع السابق كان في منطقة حوش عيسى ، محافظة البحيرة .
كانت اللجنة المشرفة على المشروع ، قد تركت خرائط لمصيدة
بيروية احتمالية ، ومجموعة اخرى من الاستنتاجات . رحت
ادرس المشروع بعناية ، كان الفراغ والملل قد اكلا ذهني ، رحت
ذا الوصف الخارجى للمنطقة . لم يكن هناك نضج زيتى ، او

مظهر غازي . وهما اولى علامات وجود البترول ، وقلت لنفسي ، ان الظروف التركيبية لطبيعة الارض ، دليل اكثر على وجود شئ اقتصاديه . بحثت في المير . عن مثير بارز حتى تكون طبعت المنطقة ، فتذكرت ان انسب اماكن لتكوين البترول ، هي الخلجان البحرية الصحلة حيث يكثر ترسب المواد العضوية تحت ظروف غير هوائية . فلا تناكسد في مثل هذه الخلجان ، المحمية الفقيرة في الاوكسجين . ونتوقع بذلك : ان تكون صخور المصيدة البترولية النموذجية ، ويتكون البترول على شكل مصائد ، انتهت من دراساتي الى نتيجة هامة ، لو ثبت وجود منطقة مائية واسعة في هذه الناحية في قديم العصور ، فاحتمال وجود البترول قائم خلال كافة دراساتي ، التي تمت بعد ذلك ، تاكدت من امر واحد بشكل مبدئي ، احتمال وجود بترول في بلدة اسمها السوالم ، في مكانين بالسوالم . اخذت خرائطي ، عرضت كافة الخطوات ، والنتائج على الشركة .

صراحة ، فرحت بعد هذه الاكتشافات المبدئية . وتحملت للمشروع ، قررت ان ابدا بعد زيارتي الاولى للسوالم ، وانا في الطريق الى القاهرة ، تصورت شيئا ما ، احساسا بسيطا وساذجا ولكنه جعلني اهتم بالمشروع . تصورت ان الناس في السوالم ودميسنا واشليمه والظهرية وششت الانعام ، موتى ، غير انهم يتحركون ، يروحون ويجيئون ، يضحكون ويبكون ، انهم راغبون مستسلمون للسماء العالية ، والارض السمراء والترعة والطريق الزراعي ، وما بقوله الراديو وما يفعله الخفر وشبه الخفر ، وصوت السيارة التي تعبر بلدهم بسرعة ، والطائرة التي تنشق الفضاء متجهة ناحية الجنوب وقت اذان الفجر ، لما يشعبه الناس القادمون من البنادر البعيدة من اشاعات عما آلت اليه الحال . قلت لنفسي : هؤلاء الناس في انتظار حدوث معجزه ما . تهبط من السماء ، او تخرج من جوف الارض ، او تأتي من البنادر البعيدة النائية ، الناس تعيش ، تمر بها الايام والمساءل والشهور والسنوات الطوال ، في انتظار حدوث هذه المعجزه .

تمثلت في خاطري ما يقولونه عن سيدي الغريب ، وكتابه الذي ضاع ، كما بضيع عمر الرجال هنا ، في انتظاره لظهور شئ مخلص جدد ، يظهر في البلاد . في الصباح ، في السادسة والنصف صباحا ، صحت من بومي :

خرجت من اعماق سريري ، ذهبت الى دورة المياه ، وقفت في احمام ، المياه تنزلق على جسدي في كسل . خرجت . ارتديت ملابس ، وقفت امام المراة . لم اناول افطاري . كان في اعماقي نوع من الفناء الذي لم اجره من قبل ، اعددت حقيبتي ، وضعت فيها غيارات داخلية ، كتب ، مراجع علمية ، دواوين شعر بين اسطرها فضضت بكارة الاحلام الاولى ، ورقا ابيض ، خرائط برولية ، ادوات هندسية ، رسومات ، مذكرات قديمة ، تاكدت انني اغلقت النوافذ والابواب ، وصنوبر المياه ، ونزلت .

في الشارع العريض . بين ضجيج السيارات . رحت اتفنى بمقطع من اغنية حب قديمة ، وقلت لنفسي : انني في مكان ما . ربما لا وجود له على خريطة مصر . سابدا تجربتي الاولى ، مع اناس لا اعرفهم . في مكتب المدير سلمت عليه ، شربت الشاي الدافئ ، تمتعت نفسي بمربيات بالغة الفخامة ، وعزيت نفسي عما سرالى في السوالم . قال لي : انه يقدر في ، انني اتجهت الى ريف ، وانه يمني لي التوفيق في مستقبلي . اكده انه سيساعدني في ذلك . او طرح سمي . في الرجل . وهو يعني طرد على اسطح البواب المتشجرة . واحراء الشوارع التي سدد منها . انه وعد الى شبابه ، مع استحالة حدوث هذا ، وبدا من جديد ، لما فعل غير ما فعلت ، همس ان الشيخوخة هي اسوأ ما في حياصة الانسان ، بل اسوأ من الموت نفسه ، وانه لا يخفى على حده لي . قال الرجل بتائر بالغ : ان ما ساقوم به . تجربة عظيمة في حد ذاتها ، وانني بعد عودتي بالغسل او بالنجاح ، سواء قدر لي ان اصنع شيئا بهذه البلدة ، او ان اكسر امام الواقع ، فان التجربة رائعة وجميلة ، بل وهامة .

— شوف يا عصمت : اللي يعيش ياما يشوف ..

— واللي يلف يشوف اكثر ..

قالوا لي قديما : من يسافر يعيش الف حياة مرة واحدة ، وكانت ايماها هجرتي الاولى . ونحن في الطريق ، تحت اقدام القاهرة ، وكان الوقت ظهرا : استدوت : نظرت الى المنازل العالية ، المصانع ، المآذن ، قباب الكنائس : القاهرة تدور حول نفسها في حركة بطيئة : استقرت الاشياء في نفسي . بدا لي انني اودع عهدا كاملا من حياتي : لا ادري لم تذكرت اهلي ، قريشت الصغيرة في أقصى الجنوب ، تذكرت ابي : رحت استحضر صورته

بعين خيالي ، أمي . أخوتي . أخي الأكبر الذي لم يكمل تعليمه
 ويتعسف كثيرا ، قطع الأرض التي بيعت في السنة الهائلة ،
 انتزع من قوت وسمعة العائلة . تحوالت الأرض ، التراب الاسمر
 الداكن ، إلى حوالات بريدية . اسوان . سادر في ، مسجل تحت
 رقم .. حوالة بريدية رقم .. إذا لم يصل في ظرف ثلاثة ايام
 رد إلى الثاني .. على العنوان الأمي .. أدركت أنني لم أر
 والدي ، منذ ثلاث سنوات . عشت مرة أخرى ، لذة السفر
 بالفطار ليل ، النوم على المقاعد الخشبية ، فرحة لقاء الأهل
 والاحباب ، الحزن الملق في اماكن العيون عند الفراق . السيارة
 نمر بي على الضهيرة الآن « هنا الضهيرة وحصلتها » . اقتربت
 من السؤال . ومن هناك ، سأرسل تقريرا إلى الشركة ، بكل ما
 قمت به ، وبعد ذلك ، سأكتب خطابا إلى الأهل .

ليلى الأولى ، غيرت ملابسى . تخفتت من جلدى الخارجى ،
 أحسست بحريتي في ملابس النوم ، تمددت على الفراش الخشن ،
 انطمت نظراتى سقف الخيمة ، رحت رحت حتى استوب رجولة
 به ، حاولت أن أرى نجوم الليل من خلالها . لفت نظرى الصمت
 أن الصمت لا يتحدد هنا بانعدام الاصوات ، والسكون الشامل ،
 أنه إحساس قريب من الصلابة ، النجوى الخافتة ، حديث
 النفس . تحت سمرة هراء . تحت الحمة . كل الهواء مشبع
 برطوبة الليل . وكل الليل في الخارج . جسمه بلا صبر . يدور
 أن الليل ، في الزمان القديم . كان وقت اتخاذ القرارات التي
 لا تنفذ بعد ذلك أبدا . قررت أن أبدا بتدوين مذكراتى . كما كنت
 أفعل من قبل . وإن أبدا خطوط مشروعى من مساح الغد .

يقف الرجال على الجسر . من تحتهم يصعد بخار أبيض اللون
 من التربة . بداية الليل . من السوان واشليمه تنبعث انوار خافتة
 اذن المغرب ، وترك الجسر من يواظب على الصلاة في مياعدها .
 الفرض بفرضه . بقى بعض الرجال يتحدثون ، الجسر من الاماكن
 المحببة إلى الرجال ، الشبان منهم على وجه الخصوص . وعلى
 الجسر ، قد يتقابل شبان السوان . مع شبان من اشليمه وقت
 انصرافى . أما الرجال الكبار . فانهم يفضلون الجلوس امام
 دكان المعلم يعقوب . يشربون الشاي . ويتكلمون عن الحيا .
 والموت ، المرض والشفاء الذى يتحول في حديثهم إلى أمل مستحيل
 التحقيق . شخص واحد . كان يجلس هذا المساء على الجسر ،
 غير أنه لم يتكلم . أنه وردانى . كان يجلس على سور الجسر
 وخلفه . كانت مياه التربة تلمع في الظلام . أن وردانى بعد أن
 اكتشف اكتشفه الخاص به . لن يتراجع عنه . خانه أهل
 السوان . تخلوا عنه ، تركوه يتكسر بمفرده . ويسلم أرضه .
 ويعيش من القد كما النساء . فتحن سالم يقف وسط الرجال .
 يسأل عن المهندس ويقول للرجال بعبارة مقلوبة . أنه سيكتب
 ما حدث في انبلد ، في تقريره الأسبوعى الذى يرفعه كل اسبوع
 للجنة المركز ، السكوت على ما يحدث جريمة ، السوان بلدهم
 جميعا . وكل منهم مسئول بشكل أو بآخر عما يحدث . قال أنه
 سيثير هذا الموضوع في اجتماع الاتحاد القادم مع الامين العام .
 ثم أنه عاد السوان من المهندس . يسأل بمرارة : كيف فعل
 عمده . أن المهندس هو الخدمة داهيا . نحن نعلم حرو .

 في هذا الموضوع سرا ما ، غير أنه لابد وأن يعرف هذا السر .

بضائل فتحن سالم امام الرجال . وكل ما يعرفه . وتضحي
 الجريدة ورقة لا قيمة لها . تذوب المسافة التي تفصل فتحن
 سالم عن الناس . يقرره بينه وبين نفسه ، أنه في الصباح الباكر .

سيذهب الى المهندس ، يتعرف عليه ، يبحث معه الموضوع ، ومن يدرينى ، فقد يكون فى الموضوع مصلحة ما للبلد . منذ أكثر من سنه ، قلت لرجال ، على هذا الجسر ، وفى مثل هذا الوقت ، ساضع حياتى فى خدمتكم يا اهل البلد ، وكنت صادقا فيما قلته ولكن اين أنا ، المستقبل العريض ، الرد على الشامتين ، عضوية مجلس الآمه . المرتب ، المنزل ، الارض ، الزوجة . الوظيفة التى أصبحت الآن حلما صديا . فتحنى سالم ، يهوى بعيدا عن الرجال ، يسافر على اجنحة الخيال والامال الكاذبة .

السلام عليكم .

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

كان الظلام قد حل ، انه المساء ، الرجال يحاولون ان يعرفوا العادم ، كان الصوت غريبا عليهم ، ادركوا هذا منذ البداية . الجسر ، ليس بناء من الاسمنت والحديد والطوب ، انه جزء منهم ، من حبات القلوب وماء العيون ، ومن يدوس على هذه السكة الحبيبة الى الرجال ، فهو معروف لهم ، أنهم يشمون رائحة الغربة فى الصوت القادم .

انفصل .

بقف الرجال ، ينفضون ملابسهم ، يركبون مداخلهم ، يعتدل الذين كانوا يستندون الى السور ، يقتربون ، زجاج نظارة يلعب فى الظلام ، أفندى طويل ، معه رجل يلبس نفس ملابسهم ، المهندس ، دمه حب الدين سرحان . يمد لهم يده ، تستريح الاكف فى بعضها ، يتولون كلمات موشاة بحب الاستطلاع .

فتحنى أفندى سالم .

المهندس عصمت فهمى النجعاوى .

يمد فتحنى سالم يده بتردد ظاهر ، يشعر ان يده مجذوة الاصابع . تلتقى ايدان ، وبين الكفين والاصابع ، كانت تكمن آثار القهر .

سرفنا يا أفندم .

يجلس عصمت على السور ، يجمع شمل الرجال حوله ، باتى اليهم رجال آخرون ، كانوا متناثرين فى أماكن أخرى على الجسر ، يكونون حلقة سيطرة حول المهندس . هناك فتحنى سالم يمد يده بعصبية . أخيرا باتى الامتحان قبل مواعده . فى صمت اللقاء الاول بين الرجال والمهندس ، انتزع وردانى نفسه ، وقف ، نفخ

جلبابه بعناية من تراب الجسر ، شمل الجالسين بنظرة ميتة ، ان يود ان يقرأ نظرات الذين خانوه . غير ان اعينهم كانت معلقة بالمهندس .

ازيكو يا رجالة .

اهلا يا باشمهندس .

والله وحشتوني ، يعود الايام .

قال حب الدين :

دا كان عيش وملح يا باشمهندس .

يبتعد وردانى عنهم ، يقول لهم ، وهو يسير مبتعدا عنهم :

طيب .. السلامو عليكم انا بقى .

يرد عليه اكثر من رجل : فيضيق صدره : يكثر عدد الرجال حول المهندس ، يجلسون ، يجلس حب الدين بجوار المهندس ، يحمله بنظرانه ، أنه يلبد له تحت باطه ، كما يقول اهالى البلد . لكنه الصمت ثقيل على الجميع ، والليل الريفى حولهم . مكعبات انظلام الثقيلة ، وللظلام ، الف الف عين ترى : الف الف أذن تسمع . والبترول ، مرأ الامان ، قطرة المساء فى صحراء العلم .

الابادى سجن لف رفيعة ، تشتعل وتنطفئ ، يرميها الرجال على الجسر . وفى القاع تحتهم ، كان يتساوى كل شيء : الصمت والظلام ، الحب والكراهية ، الفرح والاسى ، المهندس

وفتحنى سالم .

اسمعوا يا جماعة ..

تخرج الكلمات من فم المهندس ، موشاة بالفامض والمجهول ، سرع الكلمات ، تنزلق على اللسان ساخنة ، فيكثر البخار الخارج من فمه ، يستعمل يده ، يتوقف أحيانا ، تكون هناك صعوبة فى التعبير عما يريد قوله ، يخبط على سور الجسر بكلوة يده ، يجهد نفسه فى البحث عن التعابير ، لا بد وان تكون كلماته واضحة لهم . انه يريد ان يوصل اليهم الاحساس الراعش بداخله ، ان يهزهم ، ان يدرك الرجال على الجسر باختصار ، معنى ما يحدث الآن فى بلدهم ، يعرفونه بشكل واضح دونما اشاعات .

شوفوا يا رجالة .

يعترب منه الرجال ، يضع بعضهم يده بجوار اذنه اليمنى ، تصل اليهم الكلمات ، تسقط العبارات فوق حبات القلوب .

- باختصار - كما يحصل تحول كبير في حياتكم .
الرجال يتذكرون الآن ان حياتهم عجفاء . يذوقون من جديد
معنى الفقر . يتذكر الرجال ان هناك أحلاما كثيرة ، في حياتهم .
تخلوا عنها . بعد ان أدركوا استحالة تحقيقها . وقال كل منهم
لنفسه : انه لم يعيش حياته كما كان يريد ، وانه مظلوم ، وانه
لم مات الليلة أو الغد ، لمات مظلوما . والظلم من المذاق . ان
الزجاج والجراح القديمة . انتى ما زالت طرية . نبش الآن
بحديث المهندس : واستيقظت الآلام في نفوسهم . وفي قيعان
عقولهم ، استقرت معاني كلمات المهندس ، مجردة ، غريبة عنهم .
معزولة عن باقى مكونات حياتهم . انها تصل اليهم ككلمات
الراديو ، والفاظ الأفندية ، وتطفو على السطح ، تعوم ، تصطدم
بالأحزان الدافئة ، وتترقق في نفوسهم رؤى مستقطرة من الليل ،
والترعة والحقول الفسيحة .
- كل اللى باطله منكم ..
يقول المهندس :

- انكم تحطوا ايديكم في ايديه ، واحنا حانقير كل حاجة في
البلد .

طرقعات شباشب النساء على بلاط الجسر ، غبار فضي يلف
البلد والحقول ، خريبر المياه يترقق تحت الجسر هادئا ، يستقر
الظلام الليلي في قيعان الحارات والبيوت والحقول والترعة وقلوب
الرجال . وفي الصدور ، الهمسات المرتجفة ، الكلمات المعلقة على
الشفاه ، السمات المترددة الخجول . الرجال ، يمرغون عقولهم
البسيطة على أرض الجسر ، يرتعشون ، يهيمون مع كلمات المهندس ،
في العالم الكثير الذى لم يعرفونه بعد ، وسيقوم الرجال برحلتهم
الآخرة ، دون ان يعلموا الكثير ، ويدور شيء ما في عقولهم ،
يتكور ، تتحدد ملامحه ، ويرتفع من داخل النفوس صدا ، غبار
شفيف ، دخان أزرق ، رائحة احتسراق . وتجوس في قلوب
الرجال ، يد المهندس ولسانه ، تدهمها ، تفتتها ، وتسح في
الاعماق من الرجال ، تقاط دم حمراء قانية .

- انا اثق فيكم الى ابعد الحدود ، أرجوكم ان تبادلوني نفس
الشعور .

الرجال يعيشون ، عواطف الناس وهى تتحول الى الشكل
الآخر ، حيث يذوب الاسي مع مرور الايام ، وتبهت حلاوة الافراح

وشكلها . وينبخر اعصاب في الصدور . الرجال ينعمون ان هذا
المهندس الشاب ، شيء جديد بالنسبة لبلدهم . الرجال يستمعون
الى كلام المهندس ، والظلام قد حل ، وهم يواجهون أنفسهم
للمرة الاولى عارية من انفة الحياة اليومية . الأرض ، العمدة ،
بنك التسليف الزراعى ، الخفير ، المدرسة ، الشيخ محمود
والجامع ، التحول البعيدة : المراسي ، أجهزة الراديو ، العالم
الكبير . انهم يحاولون ان يفهموا ما يقوله المهندس ، والمهندس
يقول لهم كلمات تسقط على جدار الاذن الخارجى ، حلوة شهية ،
المجتمع الصناعى ، المرتب اول كل شهر ، المسكن الخفيف : التأمين
الصحي ، الشوارع الواسعة ، المساكن الشعبية ، دور السينما ،
الملاهى . كلمات المهندس اجنحة يطيرون بها في الليل الهادى فوق
البلد . يتذكر الرجال ، دونما سبب واضح ، اقرباءهم ، أبناء
السؤال الذين ضاقت بهم الحياة فهاجروا ، حملوا متاعهم
وسافروا . ويوم السفر ، ارتفعت الايادى تقول وداعا ، وعادوا
بعد سنين ، يحشرون أجسادهم التى امتلات فجأة ، في حال
نظيفة ، ويلفون حول سواعدهم الخشنة ساعات تضيء في الليل ،
أقد حلق بعضهم شاربه ، ووضع البعض الآخر نظارة فوق عينيه ،
مثل نظارة المهندس . وقال البعض ، بعد ان حلف بترية من مات
ومقام سيدنا الغريب ، ان ثمن النظارة خمسة عشر جنبها بالتعام
الكمال .

حلم الرجال بحياة البنادر ، وانتشر في صدورهم تصور لها .
الشوارع المضاءة ، المقاهى المزدهجة بالرجال ، السيارات ،
النساء الرائعة ، المحال المزدهجة ، العمارات العالية ، الأشجار
انظلية بألوان زاهية ، النقود الكثيرة في الأيادى . يقول لهم
المهندس كلاما عن العدل والانصاف ، والحاكم والمحكوم ، يقول
هم ، ان ما يطلبونه ممكن التحقيق ، وانه مطمئن الى مشروعه ،
وان الايام القريبة القادمة ، التى تقع خلف الابق ، تحمل لهم
الخير ، وان عليهم جميعا ان يستعدوا من الآن للحياة المقلنة ، وان
يودعوا الحياة التى يعيشونها الآن .

بعد فترة صمت ، راح المهندس ، يصف شكل حياتهم ، بعد
سنتين من هذه اللحظة ، ويعدد أسماء الوظائف ، ويقترح اسما
جديدا لبلدهم ، ويحاول ان يحدد مكان المصنع والمساكن ومكان
دار السينما والمسرح وتقابة العمال والمسدان العام والحديقة

الرائعة . المهندس ساجد . وهو مسجل بجراره داحسه . انه
يرفع . ويرفع . يحاور ان يفل من جلسه . رعه الظلام . على
الايام القادمة .

- اللي حا يحصل هنا يا رجالة ، حا يكون معجزة . فاهمين .
انا باكرر كلامي للمرة العاشرة ، معجزة ، واصر . على ان انى
حا يحصل معجزة نادرة .

ينظر الرجال ناحية فتحى سالم . وبعضهم قد استراح في
جلسته . ووسع يده على خده . ان نسمة هواء ليلية تهب على
الرجال . فتفسل الهواء من كل الاكاذيب ، وتستريح الكلمات
في النفوس ، تستقر في الاعماق ، آخذة اشكالا مبهمه داخل الرجال .
- شوف يا باشمهندس . كلامك دا احنا عارفينه كله ..

تخرج الكلمات من فم فتحى سالم . كلمات تعتمد هو ان تكون
غريبة ونادرة الاستعمال . قال كلاما كثيرا ، لم يدر السبب في
قوله . كرر يشعر ان فيه يتحركان ، يتقابلان ، يتعدان في بطل
ويحركه اليه . يطحن الكلمات طحنا قيل ان يحرج من فمه .
يقول فتحى سالم ، انه لا يتحدث عن نفسه . ولكنه يتحدث
بلسان الرجال البسطاء اهل بلده ، وان تلك هى مسؤولته
الخاصة ، وانه لن يتنازل عن هذه المسؤولية . ويعود عن نفسه
كلاما في شكل الليل .

- دى بلدنا احنا ، ولازم نقول راينا في كل حاجة هنا .

فتحى سالم يكمل حديثه ، والمهندس يوافقه على ما يقوله ، ان
ما يفعله لما هو لمصلحة البلد ، وهو مستعد في نهاية الامر
للحساب . وانه بطب من الناس النصيحة والمشاركة ، فهو في
عمر ابنائهم .

يقف المهندس ، فيقف الرجال من حوله ، يضافهم ، يطلب
منهم الدعاء له بالتوفيق ، بعد كل صلاة .
- عن اذتكو يا جماعة ..

يدوب المهندس ومعه حب الدين في الظلام . الرجال يفيقون من
سكنر الكلمات ، لقد أصبحوا جزءا من الليل ، يبدوون ثملين مثله .
وملامح وجوههم تسيل ليونة .

بعد ذهاب المهندس ، تكلم فتحى سالم كثيرا ، استمع اليه
الرجال ، غير ان قلوبهم كانت مع المهندس . واسترخت الكلمات ،

واستطالت مساحات الصمت في كلام الرجال ، وكان لهواء الليلى
يحمل للرجال موالا حزينا . في الموال ، حديث عن البسالة وعتاب
على الايام والليالى . يقوم الرجال ، فيكتشفون ان ملابسهم مبتله
بطل الليل .

- تصبحوا على خير ..

تواعد الرجال على لقاء جديد على الجسر او في عشة سدسيه
- وانتم من اهل الخير ..

يسير الرجال في الحوارى ، يدركون ، خلال السير ، ان الجنون
معناه الوحيد ، ان يديروا ظهورهم لهذه المعجزة . لم يكن هناك
ما يستحق الابقاء عليه في بلدهم . لقد تحولت شفقتهم على
وردانى وارضه ، انى نوع من الحسد له ، لقد تمنى كل منهم ،
ان يكون هذا النصف فدان من نصيبه هو . فتحى سالم يسير
بمفرده متجها الى داره ، شابكا يديه خلف ظهره ، واضعا الجريدة
بين اصابع يديه ، مفكرا في كل ما يحدث . انه يقرر ، ان هناك
امرا ما لا بد من ادراكه ، لا بد من فهمه والامساك به ، يرفض ان
عترف بهزيمته ، انه يعيش من جديد ، ايامه في مدرسة انصارى
سمك الاعدادية بالضرية ، ويقول لنفسه ، انه يكره هذا المهندس .
وتتأثر الاحلام ، تتعري ، وتبدو له الحياة بشكل كالح انوجه .
اخترق الحوارى ، صعد معها ، ثم بدأ في النزول مرة اخرى .
اسلمته الحارة الى الشارع الرئيسى للبلد . وفي الشارع الرئيسى .
بدأ سيره متجها الى الناحية القبلية . في حجرته الصغيرة ، خلع
جليابه ، علقه على مسمار في حائط حجرة نومه ، ارتدى جليبا
قديم ، نام على جنبه الايمن ، فرد قدميه على آخرهما . تذكر
كل ما تحمله له جريدة الصباح ، وكل ما سيحدث في البلد ،
فادرك انه ضئيل . اغمض عينيه ، شبك يديه ، وضعهما فوق
صدره . صفت الامور في ذهنه ، تنامى اليه ، صوت حركة متأنيه
يرانى من الشجرة العجوز ، الواقفة امام باب منزلهم ، حركة تدل
على الارتياح ، وتناسب مع عمر الشجرة العجوز . فتحى سالم
يشعر ان هناك نسمة هواء خفيفة ، تهب من ناحية الجنوب .
ووسط هذا الصفاء الليلى ، كان فتحى سالم يدرك ، ان ايامه
ملبئة بالجراح .

وجوههم أفواها واسعة ، تاكل الزلط ، لا يمكن ان ينسى هذه
الافواه ، مهما قل الخير . العمدة يطلب من ورداني ، ومن اهالي
البلد ، ومن امام المسجد ، ان يدعوا الله في كل وقت من الاوقات
ان تنتهي هذه المصيبة على خير .

- خلاص يا ورداني ، بكره الصبح تسلم .

- حاضر يا حضرة العمدة ، امرك ..

- لنا رب اسمه الكريم ..

يذكر ورداني ، انه عندما قال له حب الدين ، منذ يومين ، ان
ارضه قد توجر منه للشركة ، انه سعل ، شق صدره سعال
جاف ، وأسرع ، أحضر ورقة بيضاء وبصق عليها ، كان البصاق
ابيض اللون فاطمأنت نفسه . انه الآن ، وهو يقف امام العمدة ،
يشعر برغبة في السعال ، صدره يهبط ، والقفص الخارجى له
يكاد ينكسر ، وضلوعه يشقها ألم حاد ، الرغبة في السعال تعاوده ،
كتمها في نفسه ، رفع يده ، وضعها على فمه ، وراح يستمع الى
حديث العمدة عن التسليم والاذعان والاعتماد على الله .

ورداني يخرج من دوار العمدة ، يقف امام الدوار . الوقت هو
المساء ، وامام عيني ، يتسلم الخفر البنادق الميزر الصدئة . هدوء
ساعة الفسق المبتل بالنعاس يلف البلد بداخله . سار في حواري
البلد ، كان يفكر ، ان كان في باطن ارضه بئر يترول فعلا ، فهي
ارض خائنة . انها ارضه ، يزرعها منذ سنوات لا يعرف عددها ،
ويدرك انه لا يوجد شيء ما في باطنها . في باطن الارض طين أسمر
وخصوبة ، وجذور نباتات عالية ، وسر لاسرار الذي لن تبوح به
لاحد في يوم من الايام .

ورداني يسير ، يحمل عناد الريف وقلقه وصبره في اعبائه ،
وهو يضع كرامته فوق جبهته مثل طاقيته التي يلبسها . ورداني
يشعر ، لأول مرة في حياته ، انه بمفرده . وان السوالم كلها قد
تخلت عنه ، ورغم التصميم والعناد ، فهو يشعر بشعور عامض
يضطرب في نفسه ، انه ذلك الشعور الذي يضطرب في نفوس
المؤمنين بالقضاء ، والقدر المكتوب ، القدر الذي لا حيلة لاحد
في رده ، والذي لا نستطيع منه فكاكا .

عليه بمفرده ، ان يفكر ، ان يحال الامور الهشة في ذهنه ، ما
يحدث له ، لم يسبق ان حدث من قبل ، عقله يدور ، في اشياء
قد تكون بعيدة عن الموضوع الرئيسي ، يتمهل في سيره ، يلف

جميع المحاوف لتحقيق في نهاية الامر .
ورداني يشعر ان الحكمة قد سارت عنى غير ما يجب ،
المهندس هو الحكومة . هكذا فهم ورداني ، ولا بد من تسليم
الارض . انصف عدل بكامله في الصباح . فخير له ان يستلمه
بنفسه ، بدلا من ان يؤخذ غصبا عنه .

- انا كان قلبي حاسس من الاول .

يتذكر ورداني . انه بعد حضور المهندس للسوالم ، اول مرة ،
رفت عيناه ، وانه من يومها ، وهو غير مستريح للموضوع كله .
ورداني . رغم ما حدث ، لم يقر بهزيمة ، لا تتصور انه سيترك
ارضه للغرباء تواجه الرجال ، يفعلون بها ما يشاءون .

في دوار العمدة جلس على المصطبة ينتظر حضوره . وعندما
دخل عليه العمدة . وقف . سلم عليه ، سأل عن الحال ، فبلى له
عن امره واحسنه والعافية . فبلى له : ابى والله الجمع . والدنيا
الما . وليس لنا احد غيرك . ومن لما يذهب ابيه . اذا حدث لاي
شيء . وقف العمدة ، طرب منه بحروف منككة . بل بخفى
اربعه وبسببها للمهندس . وان له العمدة ، ان ليس في مذكوره
ر . يفعل له أي شيء . وان الامور اكبر مما يتصور اهالي البلد .

- حتى انت يا ابا الحاج ..

قال ورداني : مستحيل . الارض ليست مؤجرة وهو يضع يده
على . ربح الملكة مصير . العمدة لم يتحرك بكلمة حدثه ، أفهمه
ان الحكومة يريد هذا . لا يوجد في السوالم . في المركز . من
يستطيع ان يوقف في وجه المهندس . خير ورداني ان يسلمها
برصه . وامسح به قد حلت بالبلد كلها . وليست بورداني بمفرده .
- يس يا حضرة العمدة ..

- ولا يس ولا حاجة ..

لم يكمل ، قال له العمدة : ارادة ربنا ، قضاء اخف من قضاء
وانه بقدر ضرورته ، وسيحاول ان يستاجر له ارضا بدلا منها .
قال له : الله الذي خلقه ، وخلق اولاده ، وفتح لهم في منتصف

يديه خلف ظهره ، يمسك بهما ذيل جلبابه ، يحنى راسه ، يتعرس في الارض من تحته . لا يلتقي السلام على الرجال ، يتفادى في سيره روث البهائم . ونهر المياه وكميات الخراب التي سلا الحارات . يصن منزله ، يقف على الباب . تظالعه حدوة حمار قديمة ، بصلة جافة ، قطعة من شجرة صبار يابسة ، لا يذكر متى علقها . يدخل منزله .

— فيه ايه يا ورداني ؟ ..
لا يرد ، يدخل على اولاده ، يجلس بينهم ، تضع زوجته الطبلية امامه . يجلس حوله اولاده الأربعة ، تحضر زوجته الطعام ، ضام كل ليلة . وفي بعض الميالي ، وما اقلها ، يكون هنا في البيت طبخ ، شيء ما ارسله هو من الحقل . ملوخية أو بامية ، وفي أيام نادرة ، قد يكون هنا دجاج ، أو لحم اشتراه من الجزار ، وقد يحدث أحيانا ، أن يعود من الحقل ، فيجد زوجته قد ذبحت دجاجة أو أرانب ، وفي هذه المناسبات ، فإن ورداني يدرك سبب اوليمة ، ن شريطة مرض ، فنك بالدجاج فقامت زوجته بسرعة وارسلت في طلب الشيخ محمود ، أو المعلم سيد انजार ، كي يذبح لها ما امكن انقاذه من الموت .

ورداني يجلس على الطبلية ، يمضغ خبز ايامه الجافة . وفي كل مساء ، توضع الارغفة امامه على الطبلية ، ارغفة سمراء صفيرة ، محروقة من المنتصف ، وخلال الاكل ، تختفى الارغفة بسرعة ، لدرجة ان ورداني اعتقد ، ان هناك ايادي غير ايادي اولاده ، تاكل معه ، وعندما سأل الشيخ محمود عن السر ، حوّل وبسمل ، وقرأ آيات من كتاب الله الكريم .
— أبوه ياسيدي ، هيه المسألة دي فيها قولان ؟ ..

قال له : انه جائز ان تكون هناك ارواح هائمة على وجهها ، مسافرة في الزمان أبدا ، باذن منه سبحانه وتعالى ، انهم انشاء انرياح . رادها هو نعام الناس انما وجدوه : انها ترانا ، ولكننا لحكمة من الله لا نراها ، بل لقد أوصاه الشيخ محمود ، هامسا ، انه لو وقعت منه ، خلال الاكل ، على الارض ، لقمه وغموس ، فلا بد أن يتركه كما هو لآخواننا في الله ، سكان الارض .

ورداني لا يكلم اولاده ، ويقسم لزوجته ، بالطلاق ثلاثة ، شافعي ومالكي وأبي حنيفة ، انه يجرى عليها وعلى نفسه وعلى اولاده الأربعة ، واناس آخرين لا يعرفهم أحدا ، وربنا يقدره على هذا

الحمل الثقيل . من بعدها ، حرص ورداني كل ليلة ، خاصة في الليالي الكريمة ، أن يترك على الطبلية مكانا خاليا لهم ، أبناء واولاد الارس ، كي يجنسوا فيه . يتكئون معه . ويباينون الحقل والمر والميالي ومستقبل الاولاد اصغر . ورداني يحوى روجه واولاده بنفزة حاية . مسرخه ، ويواص ببطء . ودوما رعبه مصع صمعه .

— وحكن يكونوا رعبوا من حاجه ..
— دجا ورداني لنفسه . قال على الفور .
— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

كان الشيخ محمود قد أفهمه ، أن يرد السلام كاملا ، كلما يذكرهم ، انهم اخواننا في محبة الله ، ومعنى أن يردوا على الخاطر ، انهم يعمرون علينا في نفس اللحظة ، وانهم القوا تحية الاسلام ، ولا بد من الرد عليهم . عند هذا الحد ، استراح ورداني ، قرر أن يسأل الشيخ محمود ما يراه ، بعد صلاة العشاء في مسجد سيدي الغريب .
قال ، ورداني .

— مطلوب مني اسلم الارض ، ما اقدرش على الحكومة من ناحية ، وما اقدرش اعيش من غير الارض من ناحية ثانية ، البلد خائنتني ، الحكاية بقت مرة خالص يامولانا . في الدار خمسة سايزين ياكلوا ويلبسوا . ويكره الصبح لازم ..
طرح المسألة على الشيخ محمود ، طلب منه ان يدلّه بما يراه صالحا . صمت الشيخ محمود ، وراح ورداني ينظر الى شفتيه المزمومتين ، ووجهه الذي لا ينطق بأى شيء ، بعيون مشربة بالاسى والخوف المبهم من المجهول .
— ويخلق ما لا نعلمون .

ردد الشيخ محمود ، آيات من القرآن ، نطقها ببطء ، وبده تدور مع حبات المسححة ، غير انه لم يقل أى شيء عن المهندس والارض . فجأة ، قام الشيخ محمود ، ترك ورداني في صحن الجامع ، دخل مقام سيدي الغريب ، وغاب فيه . وقف ورداني مختارا في صحن الجامع ، ثم ركب مداسه وخرج . في الطريق ، فتح له الظلام صدره الرحيب ، فغاب فيه .

ورداني ممدد على ظهره ، ينظر الى سقف الحجرة الواطىء ، يفكر في حقله ، الحديد المغروس في الارض ، يحده من الجهات

الاربع . انا عشر قيراطا من الارض ، في الحوض البحري ، اقناة
الصفيرة التي ترويه ، تقسم الحقل نصفين ، بحريها ستة قيراط
وقبليها ستة قيراط . الساقية التي بناها هناك ، مشتركا مع
اصحاب الارض الآخرين ، والرى منها بالدور ، حسب نظام متفق
عليه فيما بينهم ، شجرة التوت . ظلها المتكاثرة الاطراف ساعة
الغيلولة ، ظلال العمر الراقدة تحت اقدام الشجر طول الليل ،
رائحة الارض بعد اختمارها بالمياه ، انشقاق الواسعة فيها عندما
تكون شراقي . فكر ورداني في صورة حقله ساعة الفسق ، عندما
يدوب ملامحه وسط غمضة المساء الرمادية ، فتبهت معاله ،
وتتلاشى حدوده ، وتحول خضرته الزاهية ، الى خضرة رصاصية
داكنة اللون .

في مستشفى المركز ، كتب له الطبيب روثنة العلاج ، قال له
ان هذا ادواء ثمنه خمسة جنيهات ، وعليه ان يكرره ، لمدة
سنة على الاقل ، مع الراحة التامة في السرير . ونظام معين في
الاكل ، صدر دجاجة في الغداء ، شوربة خضار في العشاء ، لبن
حليب وبيض في الفطار ، وسياتيه الشفاء باذن الله ، اما الحجز
في المستشفى فلن يأتي بنتيجة . اخذ ورداني الروشنة من الطبيب
سكره . قال : انه سحضر العلاج . وسينقل تعليماته ، وخرج
من المستشفى . درج كلمات الطب في ذهنه . فضحك . يذكر
انه كان يسمع في ايام الشباب الاولى ، (مغنى قديم) ، يتحدث عن رجل
مرىض . يشكو طول الليل . انه عليل . دواؤه موجود في كل مكان
بحر رموش عيني الحبيب . في بلاد قريبه ، غير ان الطبيب له
يامر بصرفه له ، فتحصر على ايام زمان السخية في كل شيء .

ورداني في نومه يحاول ان يتصور ما سيحدث لارضيه في
اصباح . المهندس نزع الارض منه ، الحفرة ، قلب اطن الارض عليها
تجود بالسر ، تسليم الارض ، الارض والعرض ، زوجته واولاده .
استدار . على جنبه الايمن ، شبك يديه ووضعهما تحت راسه ،
وتنهده . لقد شعر بضيق في صدره .

— صدري حابئقل بابت ، وحائبقى لبنة سودا .
ورداني يخاف ان تأتية الازمة ، فيوقف زوجته واولاده ، ويطلب
منها حبة دواء ، فتقوم وفي عيبيها بقايا نوم ، وتحضر جلايتها السوداء .
من فوق المسار ، ومن جيبيها الداخلى تفك منديلها . تخرج من
داخله قروشاً قليلة ، باعت بها بيضا في سوق الخميس ، ثم

تخرج ، وهي تفرك عينيها ، وفوق راسها لبة جاز : وفي يدها
قروش تحرص عليها اكثر من حرصها على الحياة ، كي توظف المعلم
مقوب من نومه ، تشتري منه حبة دواء لا اسم لها ، حبة واحدة
لا تعرف لها شكلا ، المهم انها تريح ورداني وتفتح صدره .

ورداني يفرد قدميه على آخرهما ، تصطدمان بعدة الشاي في
آخر الحجرة ، ثنى اصابع قدميه ، قال لنفسه :

— بكره يحلها من لا يففل ولا ينام ..
وكانت عيناه تلمعان في ظلام الحجرة ..

يجد الرجال في الحقول والنباتات والبلد ، وفي أنفسهم ، صراحة الأشياء الأولى ، ورغم أن الحياة بالنسبة لهم يوما واحدا ، يجترونها ويعيشونها بلا نهاية ، فإن عيونهم المتعبة ، تمنح الاتساع الحقولي وزرقة السماء ، وخضرة النباتات بنظراتها ، وترصد التغيرات التي تطرأ على جلد الطبيعة ، ويبدو للعيون أحيانا ، أن التغيرات التي تحدث ، إنما هي وعد غير مكتوب بسعادة جديدة ، فداء عن اصبر الطويل ، وتبقى العيون والأذان والقلوب ، تسجل ما يحدث . تنهر أكتوبر من كل عام .

١ - انخفاض مستوى المياه في ترعة ساحل سرقس ، ثم جفافها ويبدو القاع عاريا ، مليئا برمم الحيوانات الميتة ، والنباتات الصغيرة وقد تراكت عليها القاذورات والسكك الميتة . وعندما ينسحب أهل السواحل منظر الترعة بعد الجفاف ، يموت في نفوسهم كل عام شكل الترعة المثلثة بالمياه ، وجمالها في الليل .

٢ - قصر النهار ، يتحول إلى ومضة قصيرة ، فرقة كعب ، نمر الشمس السماء الواسعة في لمح البصر ، وتطول مساحة الليل ، فيضحي وعدا بسهرات طويلة ، تحكى فيها الحكايات . وتهمس النساء في الصباح ، وهن يملأن الجرار من الحمام ، بما حدث في الليلة السابقة ، وتتفنن أمراء منهن بجمال ليل الشتاء وطوله .

٣ - تساقط الأوراق من فوق الأشجار ، تاركة الفروع عارية مذكرة الإنسان بدور الحياة ، احصب وأنخضرة والنماء ثم الذبول وعلى الأرض ، تحت الأشجار ، تتناثر الأوراق الجافة ، فتغطي مساحات الظل .

٤ - هجرة الطيور . أن الطيور في مثل هذه الأيام ، من كل عام ، تهاجر إلى مواطنها الشتوية . الإنسان يبقى مرتبطا بالأرض والبيوت ، مسجلا تحول الحياة والأرض ، مع قدوم الشتاء ، وباحثا عن بوادر الربيع قبل الألوان .

أنه الخريف ، خريف هذا العام يحمل معه شيئا لم يروه من قبل .

الخيام المنصوبة في أرض الوقف . ما أن يمر أحد من أهالي البلد على أرض الوقف ، حتى يتوقف أمام الخيام ، يحاول أن يقترب منها ، لا يصادو السير في طريقه ، إلا بعد أن يرى أي شيء من داخل الخيام . أهالي البلد ، يشاهدون في الخيام دلائل وجود حياة ، غسيل منشور على حبال ، مياه مدلوقة على الأرض ، فوقها فقاعات صابون ، أعقاب سجائر وبقايا عيدان كبريت محترق ، أوراق ممزقة ، وفي لحظة الفسق ، تنوأل ينمو رائحة "سمر المحروق" ، وكانوا يسمعون صوت طيشش انتقالية ، ومن خلال منافذ الخيام ، كان يخرج دخان أزرق ، دائرة اهتمام الناس مركزة في الخيام بمن فيها من الناس . وما يحدث بداخلها ، يقسم الكل على أن أحدا من أهالي السواحل ، لم يدخل الخيام ، ويقول الناس ، أن حب الدين يوصل المهندس حتى باب الخيمة ، هو الآخر لم يدخلها . المهندس هو موضوع اهتمام الناس ، مرتبطا به البترول والحياة الجديدة والإماني والوعود . وقد يهمل الناس موضوع المهندس ، عند مرور بعضهم على الخيام ، يتذكر الموضوع كله ، وما سمعه عنه . وتطفو على سطح نفسه ، أحلامه الخاصة وأمانيه . ذهب الرجال ذات مساء إلى الشيخ محمود ، كان في صحن الجامع ، جالسا كما تعودوا أن يروه منذ أن ولدوا ، ويعتقد الكل أنهم سيموتون ويتركونه كما هو ، في نفس المكان ، ونفس الجلسة ، والمسبحة في يده . أن أحدا هامة تحدث للسواحل تزلزل أركانها ، تؤثر على من فيها ، تهز أعتى الرجال ، أنها تصل الشيخ محمود . ذهبوا إليه ، حملوا حيرتهم وتساؤلاتهم ، جلسوا حوله ، نصف دائرة ، حكوا له ما حدث ، تكلم أبو السعود ، أوجز أحيانا ، توقف أمام بعض الأمور طويلا ، وكان الرجال يوافقونه على كل ما يحكيه .

— أدى الحكاية بإسدينا ، من طقطق ، لسلامو عليكم .

أكمل بعضهم ، بكلمات بسيطة ، ما لم يقله أبو السعود ، اعتدروا بأنه لا أحد فيهم يستطيع الكلام مثل أبو السعود ، ولكنهم أكملوا ما قاله . تكامل الموضوع أمام الشيخ محمود ، صمت ، دارت حبات المسبحة في صمود وهبوط بين أصابع الشيخ ، راح الكل ينظر إلى شفثيه .

— واطيعوا الله ، واطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم .

افهمه أحدهم أن ما يطلبونه هو مشورته .

— صدق الله العظيم .

انهم لا يطلبون منه ، أن يقرأ الغيب ، أو يحاول معرفة ماسيحدث البلد ، قال أبو السعود أن حياة البلد كلها ، تتوقف على هذا الموضوع ، أن هذا الرجل ، وأشار إلى ورداني ، صاحب الأرض والبئر ، أنه صاحب أكبر أسهم في الشركة . أما أنا ، وأشار إلى نفسه ، أنا أبو السعود ، منادى البلد ، وقارئ الكف ، وحامل أخبار الرجال والنساء ، ساكون رئيس العنابر الداخلية في الشركة . للموم هو المدير العام ، مدير شئون العاملين بالشركة . حب الدين ، نائب رئيس مجلس الإدارة . الإدارة العمومية ، التي لا يعرف أحد أين سيكون مكانها ، مصر أو أثنى البارود ، أو السوالم . فتحت سالم عضو مجلس الإدارة المنتخب ، سافدم تقريرا كل يوم ، عن سير الأمور في العنابر الداخلية ، قال أبو السعود ، أنه ضمن مشروعاتهم ، أن يبنوا مسجدا كبيرا ، من دورين ، دور للرجال وهو الأرضي ، والدور الثاني للنساء ، العمل في هذا المسجد سيكون بمرتب كبير ، وسيبطل العمل بالمسألة ، وسيضاء المسجد بالنور بدلا من القنوس القديم ، ستكون صلاة الفجر بلا متاعب الظلام . صمت الرجال ، في العمود وهج رائع ، احساس طازج ، أعادوا السؤال على الشيخ محمود . وبعد فترة صمت ، قال لهم الشيخ محمود :

— لا يعلم الغيب الا الله .

شعر الرجال أنهم عاجزون عن الفهم ، وبأنه تفصلهم عما يقولونه مسافات طويلة : سنوات لا نهاية لها . يعلمون بها الأميال الطوال ، بحثا عن أرض جديدة . قام الرجال . في مقام سيدي الغريب ، مروا بأيديهم على سترة المقام الخضراء ، قبلوا أياديهم ، مسحوا بأنفهم على وجوههم ، كان على السترة الخضراء كلام مكتوب باللون الأبيض ، الرجال لا يعرفون القراءة أو الكتابة ، غير أنهم يعرفون أن المدون على هذه السترة ، هو : الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وامام المقام ، في حضرة سيدنا الغريب ، تذكر كل منهم آمانياته ، عاشها من جديد ، أطل من خلالها على أيامه القادمة . وفي صحن الجامع ، كانت تصرخ في وجوههم ، كتابات قديمة ، على الجدران ، حروف متراكمة ، تتحدث عن الذي لن يحضر أبدا والذي يأتي ولا يأتي ، وعن البر والتقوى ، والخوف والشجاعة ، وماقاله الخضر لموسى ، من أنه لن يطبق معه صبورا ،

وفي كثير من موضع . كان هناك كلام عن العبر .

في الشارع الرئيسي . شعروا بالاستخفاف ، بأنهم يطيرون في الأفق البعيد . ومن خلال الصمت . بداوا يضحكون ، ضحكات موشاء بالسرور المفاجيء . انهم ينادون أنفسهم بوظائفهم الجديدة ، وأهالي البلد ينظرون اليهم ، ويقول البعض . انهم اصابهم ممس وان المهندس ضحك عليهم . — لا حول ولا قوة الا بالله .

قالوا : آخر زمن : السوالم ستري ما هو أكثر ، طالما ان المهندس يعيش فيها . الرجال يسيرون في الشوارع ، يقولون انكثت : يفرقع بعضهم بأصابعه في الهواء تعبيرا عن السرور . تخرج من أفواههم ضحكات صافية ، مكتملة الخلقة . لقد اكتشفوا ان الأمور أصبحت لا تطاق . ودوام الحال من المحال : استمراهم معنى ان يموت اسكل ، المهندس انى في الوقت المناسب ، واكتشفوا أنهم كانوا سذجاء ، لقد رضوا بما قسم لهم في الأيام الماضية ، وتساءل كل منهم : كيف كانت تسير الأمور من قبل ، واستعدوا لتقبل التغيير الجديد في حياتهم .

على الجسر ، في المساء جلسوا ، لعبوا السبحة ، تكلموا ، أسكرتهم الكلمات . فتمايلت الرؤوس . ونحرت الاسن في الأفواه بصموبة ، وارتفعت الأيادي يتشاقل . قال حب الدين ، أنه سيذهب الى دمنهور في الاسبوع القادم ، ومن السوق العامة ، سيشتري قماش بدلة ، أنه يفضل اللون الرمادي أو الأزرق ، على ان يكون القماش سادة ، فهو لن يرتدى الجلباب بعد اليوم ، الجلباب لا يصلح الا للنوم أو الجلوس في المنزل في الامسيات . حب الدين يقول لهم : أنه لا يتصور كيف كان يرضى من قبل بلبس الجلباب . قال ورداني : لن ابيع الأرض للشركة مهما حدث ، سأظل مالكها الوحيد ، وسأأخذ نسبة من ثمن البترول ، وبالنقد ، سيفعل كل ما يتمناه ، يبنى بيتا ، يفتح مشروعا كبيرا ، يشتري سيارة ، فلا أحد يضمن ما تأتي به الأيام .

— الموضوع دا من اختصاص القضاء ، تؤجر أو تبيع ، فيه جهات مختصة .

التحدث هو حب الدين ، ورداني ثار ، هاج وماج ، وسخر من مسألة التخصصات (وأن لم يكن قد فهمها) . المسألة واضحة ، الأرض أرضه وهو حر فيها ، توقف ورداني ، نبه الجميع الى

حقيقة ، يجب الا ينساها احد ، لقد سلم الارض بمزاجه للمهندس ، وكان يملك الا يسلمها ، وبذلك يتوقف المشروع ، ولكنه تنازل عن أرضه في سبيل مصلحة البلد . انه يذيع سرا في هذه اللحظة ، لم يكن يجب ان يقوله ، الرجال ليسوا غرباء ، قال له العمدة يوما ، انه حر ، الارض أرضه ، وله ان يفعل ما يراه . قاطعه اليوم . طلب من حب الدين ان يبحث له عن شاب متعلم . كي يعمل معه في مكتبه الجديد ، ظروف العمل تغيرت ، سيفتح مكتبا في منزله بصفة مؤقتة ، فالشركة ستبنى له مكتبا فخما ، يقول اليوم : انه شاهد مكان مكتبه بالامس على الخارطة مع المهندس .

انهم يحسبون . قالوا لانفسهم . ان شمل الحياة يجمع من جديد في السوالم ، سيعود الرجال الذين رحلوا لضيق ذات اليد ، او لعدم وجود عمل ، قال ابو السعود : انه لن يمر على البلد ، في حوارها الصغيرة المتتوية ، وينادي بصوته الحياني : « يا عباد الله ، الحاضر بمن الغائب » لن يجمع حوله الصبية والاطفال . ويتكاثر الصغار حوله كلما مر بحارة جديدة ، سيكتب ما يريد ابلاغه للناس ، على ورق ابيض ، يتطلق به صبية ، او يعلق على لوحة في مكان عام ، كي يقرأه الناس .

— ما هي كل الناس ، حتى النسوان ، لازم يعرفوا القراءة والكتابة . امال حانفضل كدا على طول . مش ممكن ، المهندس قال كدا .

— امال ياعم ، والله وشغنا ايام حلوة .

ورداني يتصور ان أرضه قد باحت بسرها لرجل سواه ، انه المهندس عصمت . يتسم ورداني ، لا يصدق . سيذهب الى أرضه ، سينام هناك ، وفي الليل ، مستودع الاسرار والرؤى والاحلام ، سيعرف السر .

— والنبي دى الاشيا بقت معدن ..

همس لنفسه : انه يتذكر الايام الماضية ، كان يجلس في عشة سلسبيلة ، الرجال من حوله يطلبون ادوار الشاي الثقيلة ، يدخلون المصل ، غير ان ورداني كان يدور في عقله شيء آخر : حساباته ، ما عليه ، ما معه ، النقود التي ينتظر الحصول عليها ، بعد شهر او شهرين . في اللحظة التي ياخذ فيها كوب الشاي . ار يدس غابة الجوزة بين شفتيه ، يدرك معنى ذلك بالنسبة

لمصروفه ، قوت عياله ، ويدرك ان ذلك كثير ، ولكن ما باليد ..

الرجال يجلسون على الجسر ، وتليل قد حل ، انهم يرون مناظر ان يروها ويسمعون امورا لن يسمعوها ، ويملكون مكانا واسما في سماء الله العالية ، يفعلون فيه ما يشاءون ، دونما خوف . كان الليل مقبلا بالاشواق ، الليل يطوى بداخله الحوارى والبيوت والناس ، زارعا في النفوس الاحلام والاماني .

قال لهم فتحى سالم : ان هذه الحكاية ، قد حدثت من قبل . في السوالم ، في قديم الزمان ، منذ مائة سنة ، قراها في الكتب ، ابدي الرجال دهشتهم ، انصتوا اليه ، الحكاية لم تكن حكاية بشر بترول ، كانت حكاية اخرى عن السوالم . قاطعه احدهم ، البشر والمهندس والبترول ليست حكاية ، انها حقيقة ، المهندس ليس حدوده بحكها العجابر في ليالى الشتاء المسطلة الوجه المعطوطة اللحظات ، هو حياتهم ، وجودهم . قال فتحى سالم ، انه يطلب الفرصة فقط كي يتكلم ، ولا يجب ان يقاطعه احد . سكنت الجميع في السوالم . غنوه حريئة . نفيها الصبيا وقت الحصاد . في اتساع الحقول ، تحدى احداهن ، فتاة صغيرة وجميلة ، تسمى نفسها سلسبيلة ، وترد عليها الباقيات ، يطلبون فيها من الشاطر حسن . ان يركب حصانه ، ويجهز الزاد ، فهو على سفر قد يطول ، وزاد المسافر ، خياله وعقله وقلبه المفعم جسارة ، ست الحسن والجمال ، محبوسة في قصر ، فوق صخرة ، الصخرة العالية ، بين مساحتين من الصحراء ، بحار لا نهائية من الرمال ، خرج الشاطر حسن ، سافر ، غير انه لم يعد ، انتظره الرجال والصغار والنسوة ، تعلقت خيوط نظراتهم بخط الافق ، ولم يطالعهم وجهه انجمل ابدا ، دفنوا حكايته في حبات القلوب ، قال فتحى سالم ، ست الحسن والجمال هي السوالم نفسها ، شاطر حسن . كان احلى ابنائها ، وانه كان مطلوب منه ان ينفذ بلده ، من خطر ما ، لا تذكره الاغنية القديمة ، وان الشاطر حسن لم يعد من الصحراء الواسعة ، وقد يكون هناك حتى الآن ؛ اسوالم ما زالت حزنة عليه ، وهي تعيش على امل ان يعود اليها ، قال فتحى سالم ، انه لا يعرف لم ذكر هذه الحكاية ، وقال انه يفضل ان تنتظر ست الحسن والجمال عودة الشاطر حسن ، انها ورجلها ، الفرح خيانة له حيث هو الآن ، الخيانة يا اهل

السؤال مرة المذاق على اطراف اللسان . قال فتحي : ان كلمات الاغنية مكتوبة على الجدار الداخلى لبئر المياه المهجور . خلف جامع سيدى الغريب . وهى مكتوبة بدم الشاطر حسن ، وبخط كوفي جميل ، وانه قراها في صباه ، قال : ائنا يجب ان نتنظر ، وان ندون كل ما يحدث لنا ، على نفس الجدار الداخلى ، فنحن لا نعلم ما قد يحدث بعد ذلك . كس على الرجال صمت غريب . هل يعود الشاطر حسن ذات مساء . رجل كبير . عملاق . تساءل احدهم . هل ورد ذكر لهذه الحكاية في الكتاب الذى افه سيدى الغريب . لم يجب عنه احد . قال فتحي سلم : ان الشاطر حسن لدى ينتظره اسوانه كلها . شاب كبير . معنور العضلات ، طول خطوته الف انف فدان ، تدوس قدمه على الارض بهرها . يرفع قامته فتطمع السماء . رد حب الدين . قال : ان الشاطر حسن ، هو النبى الذى تحدث عنه مولانا ، في آخر صفحات كتابه ، وانه لابد وان يحضر ، وانه لن يحزنه ان يعود فيجد بلده على احسن حال ، الصمت يحوم في الظلام ، وحب الدين يواصل كلامه ، الكلمات لا تقال بنفس الاندفاع الاول . الرجال فقدوا حماسهم ، وانشغلت الازدهان بما قاله فتحي سالم ، قال حب الدين لنفسه : ان عشته ستتحول الى كازينو ، مراهنات الرجال في اللعب ، ستكون على اشياء كبيرة ، وقد يلعب الرجال الورق على الجسر ، وامامهم اكوام من النقود ذات الرائحة المحببة ، لن يطلب ارجل منهم كرت شدى واحد على الحساب شكك . قال حب الدين للرجال : انه يجب على كل اعزب ان يتزوج بعد عمل البئر ، وعلى كل رجل متزوج ، ان يتزوج مرة اخرى امرأة جديدة ، قال عن نفسه : انه سيتزوج بعد اسبوعين على الاكثر ، وانه لن يناسب الا احد العمدة ، وقد يتزوج مرة ثانية او ثالثة على سنة الله ورسوله والمؤمنين .

- بس لما الباشا مهندس يتجوز الاول ..

- بصحيح ..

قالوا : ان ليلة فرجه ، ستكون ليلة ولا كل اللبالي . الرجال اسمها . لن يعرفوا . كيف ينفون اسعد . قال حب الدين : انه سيزفه في بيته الجديد ، سيخطب له احلى بنات الناحية كلها ، وانه سيشمل السجارة الاولى في السهرة ، من ورقة بعشرة جنيهات كاملة . هبت عليهم نسمة هواء باردة ، وارتفع بخار

خريفى ابيض من التربة تحتهم ، ذكرهم بان الليل قد حل منذ وقت مضى ، قام الرجال ، وقبل ان يتركوا الجسر ، اشار لهم حب الدين ، ان يقتربوا منه ، كونوا دائرة صغيرة ، وهم وقوف لم يكن يبدو سوى بياض العيون يدور في سرعة ، احسوا بدفء انفسهم ، ينزلق على الوجوه ، همس حب الدين لهم ، بصوت منخفض :

- كلام فى سرهم ..

قال لهم : انه بعد افتتاح المشروع ، سيعاد انتخاب اعضاء لاتحاد الاشتراكي . وفي هذه الحالة ، سيتغير اكثر اعضائه . انهم لن يخافوا احدا بعد ذلك . كل الامور ستتغير ، ان عمل العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفر سيظل . سيكون هنا ، مركز رئيس فيه صايد كبير ورؤساء لقطاع المدسة . سيكون هنا مؤسسة للكهرباء ومرفق لتعبئة ومكتب للبريد وفروع لكل البنوك ومحطة خطوط اتوبيسات تصل السوالم بكل البلاد . ومكتب تلفراف وتليفونات . وستمتد خطوط الفطارات حتى البلد . ونواد ومقاه نظيفة . قال لهم حب الدين : على كل منهم ، ان يشتري عفرينه زرقاء جديدة ، بدل له للشغل في المصنع . وان يستخرج بطاقة شخصية او عائلية ، مع استخراج شهادة ميلاد وتجهيز شهادة تادية الخدمة العسكرية او الاعفاء النهائي منها ، وبطاقة عضوية الاتحاد الاشتراكي وان تكون الاشتراكات مسددة حتى آخر شهر . والفيش والتشبيه . احس الرجال ان وجودهم الذى لم يكن محددا من قبل . سيتم حصره في اوراق بضاء . مكتوب فيها معلومات غريبة ، من جهات بعيدة . تحدد كل بيانات حياتهم . انهم يدركون ان كل شيء هنا . كان محسوبا دون ان يدري احد . قال لهم حب الدين : ان البلد بلدهم .

وانهم اولى الناس بالعمل في هذا المشروع . قال لهم : ان عصمت اتحدى . سساعدهم بنفسه . وفي كل الحساب . في سساعدهم الحصول على الاوراق المطلوبة . هذا الكلام ، قال حب الدين : لا يصح ان يعرفه احد غيرهم ، حتى ولا زوجاتهم في المنازل . احس الرجال بدوار في رؤوسهم ، طعم الحياة يتغير في مذاق كل منهم ، والتغيير الذى يوشك ان يحدث لهم . نادر الحدوث . واعدوا على اللقاء ، بعد صلاة العشاء في عشة سكر ، لم تفرقوا . حب الدين يسير في حوارى البلد ، طريقه الى خيام الغرباء ،

يفكر في سيره البطيء في سلسبيله ، يدرك انها آخر ما تبقى له .
شعر بشوق جارف لها ، احس بالحنين الى بسمتها الصافية ،
فكر في ان يغير طريقه ويعود اليها ، قال لنفسه : ان الله قد
جزاهم خيرا على صبرهم الطويل ، وقال ان وجهه سلسبيله ، كان
خيرا على السوالم كلها . الهواء يداعب وجه حب الدين وهو يسير
في حوارى السوالم ، انه يشعر برغبة في الغناء ، ويجيش في
وجدانه موال قديم ، يترنم به ، لكن لنفسه .

— محبكم داب ، وانتم لم دريتوا بيه ..

والنار بترعى فؤاده ، وانتم لم دريتوا بيه ..

ان قدمه تدوس على الارض ، وترتفع عنها ، بحركة آلية ، وهو
يسير ببطء في حوارى السوالم . ان عينيه ، تكتسبان رؤية
جديدة ، لمشاهد بالغة القدم ، انه يملأ عينيه من كل شيء ، ومما
ادهشه ، انه عندما قابل المهندس ، سلم عليه بحرارة ، ورحب به
وقال له المهندس : وهو يضع يده على كتفه في ود وحنان :
— اهلا بنائب المدير العام ..

مفتتح : امرأة لينة العود ، مفرودة القوام ، مثل عود الدرو
الذي زرع ونبت في ايام الرخاء ، في حلاوة الشهد ، تنام رموشه
انطوية على العيون الواسعة ، تزداد العيون اتساعا في الليل
وتحضر الشفة السفلى ، اختها العليا في ومن هامس ، مكوئين
معا دائرة صغيرة ، في حجم وحمرة حبات التيق . اليد والذرا .
في بياض القشدة ، تتحرك ايدان خلف النضبة ، بخفة ومهارة
بتمدد الرموش السوداء ، عن العيون المفتجلة . فتتظر ناحيت
الرجال ، فتبدر فيهم جميعا ، وعودا مبهمة ، رؤى ضباب
غامضة ، حنين وسهادا ورغبة .

سلسبيله امرأة بلا رجل ، وكل امرأة بلا رجل في السوالم
فهي امرأة متاحة . يقول الشبان . ان من له زند رجل . وذرة .
ذكر مقطى بالشعر ، وفي جيب الصدري لداخلي . الذي ينسج
على صدره العريض مال ، فهو قادر على ان يتحسس بيده حلاوة
الشهد ، ويفرس اصابعه في ليونة الجسد الابيض ودفته . وعندنا
قد يرى عن قرب اتساع العيون . وقد يكحل عينيه بسسوا .
الرموش التي تغطي فدان ارض . وقد يرى بياض الجسد بضئ
ويشع في حجرة ضيقة ، مطعونة بمساحات الظلام الليلي .
يجلس الرجال في عشة سلسبيله : يتربع في وسطهم حب الدين
امامه الطبلية المستديرة الواطئة ، التي يلعب عليها الرجال انور
احيانا . سكر من معالم المكان . تنصدر العشة : تصطدم عين
الداخل ، بحلاوتها خلال دخوله . فتحي سالم يجلس وسطهم
وحضوره امر نادر الحدوث ، ولعل السبب الوحيد في حضرته
حديث الامس وما قاله المهندس ، فتحي سالم قلق في جلسته
ويبدو انه غير مقتنع بحضوره الى العشة ، ورغم هذا ، فهو مكر
على الجلوس ، ومن بدري فقد تمتد الجلسة الى ما هو اكثر من
هذا ، انه ينزلق ، والهاوية ممتدة امامه الى ما لانهاية ، وانتوقف
اصعب من الاستمرار في الانحدار . فتحي سالم صامت . لا يتكلم
يتحسس جبهته واذنيه وفتحتى منخاريه ، يحدق في الرجال

ويتعمد الا ينظر ناحية سكر . ويقول لنفسه . ان لكل امر من امور الحياة جانبه الجميل ، ويكتشف الان . ان سلسيله رائعه ، ويحسد حب الدين . ويستريح في جلسته . ويمنح الرجال اذنيه . الرجال يتكلمون في كل الامور دفعة واحدة . ومع الحديث ، يستيقظ في نفوس الرجال ، الالام والخطا والجراح . الحديث ينفض عن اقلوب الصدا والغباب . انهم يغزلون من قحط انامهم وجذب الحياة من حولهم ، حكايا تبلغ حد الروعة ، ووسط الحديث كانت اعينهم مربوطة بمكان ما . في الافق المغم وسط الظلام . ان احدا منهم لا يستطيع احتواء سعوره الداخلي . او يتدورق مذاقه . وسيظل هذا اشعور سره الخاص به ، دون اكتشاف بالنسبة لاي منهم .

الرجال ، الجالسون في عشة سلسيله . تبدو قدرتهم الوحيدة في ان يحلموا ، ان يرسموا بعبون الخيال . اشياء . يحاها في نفوسهم المهندس . تدور الجوزة بينهم . يخرج الدخان الازرق من افواههم وانوفهم ، يختلط ببخار اكواب الشاي الدافئة . يكونان معا ، سحببات من الغبار الشفيف في جو العشة . وفي الخارج يذوب وسط الليل الناعس .

- وحدوه ..

- لا اله الا الله ..

الرجال ينظرون الى بعضهم ، كأنهم يرون انفسهم للمرة الاولى . تنفيس كلماتهم في جو العشة ، فترسم امام عيونهم اشكالا ، صور ، بلادا ، تحيل احلامهم الى واقع محدد . لقد تباعدت المسافة بينهم وبين السوالم ، وشعر الرجال ان جبال الالفه والمودة بينهم وبين البلد قد تقطعت . لن تعود الحياة الى ما كانت عليه من قبل . كانت الامور قد ساءت ، واضحى كل رجل . في الصباح ، يشعر بان كل شيء قد غدا ثقيل ، الحياة ، الحوارى ، البلد ، نقمة العيش ، نظرات الآخرين ، سماء الله العالية .

- اما يا اولاد لو طلع الكلام ده صح ..

تشتعل الكلمات ، تندفع في سباق بينهم ، ولا تستطيع الاذن لن تميز شيئا وسط سيل الكلمات المتدفق . الرجال يحلمون بسوالم اخرى ، لا يوجد فيها عمد ، وبرجال لا يقضون حاجاتهم في انسباح ، على شاطئ الترعة ، وبليل لا يبدأ في السادسة مساء ، ويستمر حتى السادسة من صباح اليوم التالي ، ولا يرتبط الليل

في ذهانهم بالظلام واصمت . انهم يحلمون بسماء مفسسولة بالشهد والحين . تعبرها طائرات كثيرة . وقد يكون هناك مطار كبير . الطائرات لن تذكرهم بعد ذلك بالحرمان ، ولكن لتربطهم بالندى الواسعة . وقد تختفى اختسامهم ، تلك القطع النحاسيه الصفراء المربوطة بالدويارة في محافظهم الفارغة . وقد تبس النقود ، تلك القطع الفضيسية اللامعة ، والاوراق الخضراء ذات الرائحة المحببة ، في الايدى فترة اطول ، حتى تدفئها ، وقد تعرق الايدى على النقود من الفرح ، وقد لا يخافون شيخ الخفر ، وشيخ البلد ومقاوول الانفار ومعاون الزراعة .

سلسيله تهيم خلف النصبة ، وتقوم بعمل كل ليلة ، انها تفنى بصوت لا يسمعه سواها ، كلمات سمعتها في الزمان القديم ، في احدى القاعات الضيقة الحمراء ، الفاقعة الحمراء ، في شارع محمد نلى ، في مصر ام الدنيا ، الكلمات التى تترنم بها ، مربوطة حول انقلب ، كحجاب لا يفارقه . ترددها دون ان تفهم معناها .

- آه منك يا زمن السفر والترحال ..

حب الدين : قلت لنفسى . يا مركب العمر . ان جاكى العدل حلى ، واقعد على دفنك ، واخذ بايدي خلى . وعدنى المهندس بالعمل . قال اننى خامة جيدة ، واننى ساجد نفسى في العمل معه عندما سمعته . لم ادرك معنى ما يقول . غير اننى في الليل . والليل يخفى حقائق الاشياء ، بدأت ادرك معنى كلمات المهندس . اننى احبه ، وفي كل ليلة ، بعد ان تخلو العشة تماما ، اصبح بمفردى في مواجهة سلسيله ، نجلس معا في مواجهة بعضنا ، نحاسب ، نضع نقودنا في منتصف الطاولة ، اعيد الحسابات . افول لنفسى : يارب سترك ، والنبي يارب . اننى لا اخاف سوى شماتة الناس ، لم اكن اطلب الكثير . قال لى المهندس : ساعمل معه ، ملاحظا لتشغيل الانفار ، على ان اراقبهم في العمل ، صرف الاجور سيكون كل خمسة عشر يوما ، او كل اسبوع . زى ما انتو عايزين . قال انه سيعطينى اعلى اجر فى الناحية . قال ان المعجزة ستحدث هنا ، سنرى بانفسنا الكثير . ما لى المهندس همس بكلام حلو عن مستقبل السوالم ، اذكر انه قال : كلمات رائعة ، كانت في عينيه غنوه مقبدة ، عبارات حبسية تريد ان تطلق ، ان تعربد في الهواء ، فركت يدي في بعضهما ، احمر وجهى « احنا تحت امرك يا باشمهندس » وكنت صادقا فيما قلت

أشعر اننى وجدت شيئاً ما ، وقد أفضى بقية العمر مستريحاً ، كنت أفكر فى ترك السوالم من قبل ، كانت الحال قد ضاقت بى ، كان الفراغ وضيق ذات اليد وبيع الارض قد دفعنى الى حافة اليأس ، سرت مع المهندس حتى الخيام ، تركته هناك ، وما كنت أود ، أن أفارقه لحظة واحدة ، كنت حريصاً عليه كما الحياة . « تصبح على خير يا باشمهندس » عدت ، فى طريق عودتى ، كان فى نفسى شعور خبيث ، نوع من التشفى فى العمدة وشيخ أخضر والخضر والمعلم يعقوب ، كنت أتشفى فى كل من يقبض مابهية أول الشهر ، كل الذين لا يطلبون من الله سوى أن يدوم الحال ، رحت أمنى نفسى بالأيام القادمة ، أبى يرحمه الله ، تنبأ بما حدث من قبل ، الفجيرة التى مرت بالسولم فى الربيع الماضى ، جلست فى وسطنا ، كنت أجالس على الجسر . أخذت اترى . وشوشة الذكر ، رميت بياضى ، قالت لى : يأتيك رزق كثير بعد عمر طويل ، اطلبه من الله ، سأتها عن العمر الطويل ، قالت سنه واحده او اكثر . رفعت يدي نحو السماء الربيعية الزرقاء ، قلت يارب . أوزع الشاى على الناس ، أتحرك بين الرجال ، وقد بدأ جو العشة مثقلاً بالانفاس والدخان ، انخيل نفسى ، العفيرة الزرقاء . الحذاء اللامع ، المد الناعمة ، حب الدين سرحان رئيس قسم . بشركة ، الزواج . العشيقة ثم الزوجة ، يصل ويسلم ليد السيد . العمل فى النهار ، استعادة الارض التى بيعت للمعلم يعقوب ، القمراط الخامس والعشرين ، لابد وأن أقول ، اننى لا أتصور كيف كانت الأيام ستمر بدون المهندس ، النوم حتى العاشرة الاستيقاظ ، الإفطار ، التدخين ، النوم مرة أخرى ، الصحو ثم النوم ، ولا شيء غير هذا ..

فتحى سام : اخوانى ، أهالى السوالم الكرام ، رشحت نفسى نيابة عنكم ، أملئ فيكم ، انتخبوا الفلاح المثقف ، فتحى سالم ، رمزه المفتاح ، كانت ليلة جريئة ، لم أتم حتى الفجر ، بدأ لى الصباح متعباً ، قمت من نومى ، تناولت افطارى بقم غير قمى ، ذهبت الى دوار العمدة ، لا أدري لم ذهبت الى العمدة بالذات ، تحدثنا فى كل الموضوعات ، سألنى عن أخبار البلد ، وأخبار أعضاء الاتحاد ، وأخبار الجمعية التعاونية ، والمدرسة ، طلب منى أن أصر . بعد أيام ، سيكون الامر فى لجنة الاتحاد ، دوراً حول كل الموضوعات ، الا الموضوع الرئيسى ، المهندس والبتروول ، لم

اسمه . ولم يشأ التحديث عنه . كلاً ما بدرك . اسأله سقى فى هذا صباح المسب . لا من أجل ذلك الموضوع . راحب الدلائل بمد بين الكلمات . لم نجد ما نقوله . حضر الى العمدة ضيوف من بلاد بعيدة ، قمنا ، سلمنا ، وحبنا بهم . سألونا عن الصحة والحال . أحسست أن وجودى أصبح بلا جدوى ، قمت . سلمت استأذنت من العمدة ..

- ما أنت قاعد ياسى فتحى ..

- أصل ورائنا شغل ..

- طيب ياخويا ، خطوة عزيزة .

فى الطسريق . وكنت بمفردى . رحت أفتش فى نفسى عن احساس واحد . أعرف به موقف العمدة مما يحدث ، كان وجهه فى هذا الصباح . أخرس ، مسطحاً لا ينطق ، قال لى : أن الظروف سعبة . لقد فعل ما قدر عليه ، نحن عاجزون . مات والدى ، عدته تركت المدرسة . ورحبت بالفراغ ولتسكع ، ونزهات الليل . فى حوارى السوالم . وقالت لنفسى ، ذات مساء ، فليكن ما يكون ، دأحاول الحصول على شيء ما من معجزة المهندس ، لقد استطاع حب الدين أن يتسلل اليه . أن حب الدين أكبر منى . كنت أقول له من قبل : يا عمى حب الدين ، الحال تغيرت . دائماً يسبقنى حب الدين . مكتوب على أن أكون تابعه ، أو بعده أو مقلداً له فى كل ما يقوم به . مجرد وجود حب الدين فى السوالم نار دائمة أوقيد . تكوى القلب والجنب والعين ، كان من المفروض على أن أكتب رابى فيما يحدث فى التقرير الاسبوعى الذى أرفعه الى مكتب المركز . كل تأخيرة وفيها خيرة . دائماً كنت أحافظ على المواعيد . وأخدم التعليمات ، عن خوف لا عن اقتناع ، غير اننى فى نهاية الامر لم أحصل على شيء . عندما وصلت الى منزلى ، أدركت أن الحال فى السوالم أمر من أى وقت مضى ، واننى لم أدرك هذا الا بعد حضور المهندس . فى المساء ذهبت الى عشة سلسيلة ، وضعت على الشفتين ابتسامة باهتة .

- مساء الخير يا رجالة ..

- مين ؟ سى فتحى ، يا نيلة بيضة ، أهلا وسهلا ..

كان المساء قد حل ، وطار طائر الشوق ، شق فضاء انسياء لكاذب ، حافلاً الحنين للأهل والاحباب . جلست بين الرجال ، فى يدى جريدة قديمة ، دائماً قديمة ، حاولت أن اتصنع الاستماع

الى الراديو ، احسست بالارتباك ، كنت مزهوا بهزيمتى ، اقول
لحب الدين كلاما ، تنزلق عباراته من طرف اللسان ، دون ان
ترك اثرا في النفس ، حب الدين يدرك معنى كلمتى ، كرهنا بعضنا
لحد الموت ، وقلنا لبعضنا البعض ذات مساء ، دونما عذاب
الكلمات ، ان بضاعتنا واحدة ، واهل السوالم الطيبون ، اما
ان يشتروا منى او منك انت . وقلنا يوما ، هذا الكلام صحيح
لم تكن لنا حيلة . قلت لنفسى : كل ما حولى يشير الى اسفل ،
الى قيعان الاشياء ، لا امل ، اجلس ، انفرس في الوجوه ، تستقر
نظراتى على وجنتى سلسبيلة ، تستريح عينى لجمالها ، في
الصدر و"قلب هديان ، شعور من فاتته كل شيء ، من استيقظ
ذات صباح فوجد ان الارباح قد تم توزيعها ، بالعدل او بالظلم ،
المهم ان الذين وزعوها ، نسوه ، ولا امل في تصحيح الامور .
اكره المهندس لحد الموت ، ولكنى ادرك ، انه ابنى ليوقظ الاحلام
المؤجلة منذ سنوات . قالت لى امى بعد الظهر : ان البيت في حاجة
انى كيلتين حب ، فكرت طويلا ، قلت لها : حاضر ، كل الامور
حالا تتصلح ان شاء الله . لست عدة السمسفل ، الساعة .
الجلباب المكوى ، الحذاء الالامع ، الشراب السكاوتشوك ، امسكت
بالجريدة القديمة ، وخرجت . قال الرجال ، احسن تشتغل
شغلانة ، قلت : هي ايام التسكع ، ان زمن النزوج والترحال لم
يحن بعد ، وقلت لسلسبيلة : يوم ان حضرت الى بلدنا ، وهي
تخطو في الشارع الرئيسى ، فتوقظ الرؤى والاحلام ورعشة
الليل ، وتنفض الغبار عن العيون والصدأ من القلوب ، قلت لها :
يا ارض اترسو . ما عليكى ، فتوقفت ، استدارت ، نظرت الى ،
انفرست نظراتى . لحمى ، ومضت في طريقها ، فكرهت الخديعة
والفشل والامال المؤجلة . وعندما حضر المهندس الى بلدتنا ، قلت
لنفسى ، وكانت ديوك النجر قد بدأت تؤذن : خيرا ، ليكن امتحانى
الاخير ، وبمدها مرحى يا زمن النزوج .

ابو السعود : لم يرسز المهندس في طلبى ، يبدو انه لايعرف
انه يوجد في السوالم شخص اسمه ابو السعود ، واسم ابيه
ابو السعود ، واسم جده ابو السعود ، آباؤه واجدادهم سموا
العائلة باسم واحد ، قد يحتاجنى المهندس ذات يوم ، يطلب منى
ان ابلي الناس ما يريد ابلاغه بهم ، وعندئذ سادور في الحوارى
ساعة الغروب : يا عباد الله ، يا اهل البلد ، لن تكون المناداة عن

ماعز تاهت في طريق العودة من الحقل ، او طفل صغير ، ضل
الطريق الى بيته ، او عن موعد الترحيلة الى جنالكبير . سيكون
المناداة ، بكلام حلو ، كلام المهندس ، لا افهم لم يكره العمدة
المهندس ، لم يقف ضده ، لو صح كلام المهندس ، لاصبحت الحال
غير الحال ، ولودعنا ايام الجوع والعرى . الشيخ محمود يعطل
على رزقى ، ولم يعد امامى سوى ان ادور في الحوارى وانادى .
ومن قبل ، في الزمان القديم ، قيل ان والدى ، كان يغسل الموتى
ويكفنهم ، ويقرا القرآن في المآتم وايام الخميس وذكرى الاربعين
ومن صغرى وانا امنى نفسى بالكثير . بعد وفاة والدى . لم
اجد لنفسى ، سوى ان امر فى الحوارى . قلت : يوم ان يطلبنى
المهندس ، ساطلب منه اقل ثمن ، ان النقود في يده ، مثل حبات
الارز ، قيل لى : ان اسهل ما عنده ، ان يعطى نقودا ، لن اتنازل
عن ملين ، ان فاصلنى ، واعتقد انه لا يعرف الفصال ، ساقول
له : بين البائع والمشتري ، يفتح الله ، ساتركه وامشى ولن اعود
انيه ، ولن اسكت عليه . في صباح اليوم ، ذهبت الى الخيام ،
سلمت ورجبت وعرضت خدماتى ، وقلت : انا ابو السعود ،
الذى يعرف كل ما خفى ، ضحكت امام الغرباء ، انا ابو السعود
ابو السعود ، ابو السعود ، ابو السعود ، انا ابو السعود . امثلك مائة
الف عين ومائة الف اذن ، لا شيء يحدث في السوالم الا وعرفته .
احداكم ياخيوف بلدنا ، ان كان هناك ما لاعرفه ، وودت ان اشته
في الشيخ محمود ، اجلت ذلك الى ما بعد . ثناء وقوفى . لمحنى
وردانى اتحدث مع الغرباء ، اسرع في سيره نحو دوار العمدة ،
هذا لا يهم ، عند الغرباء ساجد الحماية ولقمة العيش والراحة
والستر ، على استعداد لافعل ما يطلبه الغرباء ، فرح الغرباء
بحديثى ، قالوا : دى خفيف وروحى لطيفه ، وندموا على الايام
التي مضت دون ان يعرفونى ، قلت لهم : خدامكم يا بهوات ، دا
احنا اهل . توقفت ، رحت انظر الى الجالسين امامى ، جلست
على الارض ، تربعت ، رفعت يدى ، فانحسر كم جلبابى عرذراعى
المغطاة بالشعر ، برشت عينى في الشمس ، رفعت كف يدى
انيمنى ، صنعت منه شمسية ، تغطى عينى ، حتى استطع ان
انظر الى الافندية الغرباء . تفحصتهم واحدا واحدا .

- امال فين الباشمهندس عصمت ؟
- دا مش موجود ، وجاى بالليل ..

العصاري . انتزعه في الحديق . وقد سعى ذات مساء بعصمت .
عصمت دون سواء . الرجال أصابهم هوس ، كل هذا ثم يحدث
الا بعد حضور المهندس ، يتحدثون ، تعلو أصواتهم ، تخفت ،
يصمتون ، يعودون الى المهندس ، دائما المهندس ، لم أرد حتى
الآن . لاهمني . عدم حضور المهندس الى العشة ، أهانة لي ،
غضبت ، شتمته اكثر من مرة ، قلت : انه لا يد وان به عاهة .
قد اكتشف ذلك . لم أهتم به . حاولت ان اتخيل صورته . وان
كنت لا اعرف اسمه ، كل الناس لا تقول سوى المهندس . يقول
لي حب الدين ، في لحظات الصفاء : انت يابث وشك خير على
السوالم كلها . لا أصدقه ، سوف يكون اسمي المعلمة ، معلمة
المعلمات ، سلسبيلة ، سكر ، سوسو ، عطيات ، سلسبيلة على الله
مصر ، شارع محمد علي ، السوالم بحيرة ، الترام القديم ، كركرة
سيره في الشوارع ، الاهتزاز الذي يصيب البيوت من مروره
البطيء ، الشارع الصاعد الى القلعة . هب خمسينه طامه .
أحاراب الضمعة . اليلاط المصلع القديم . اعس بحب الصرس .
والشبي احنا ما كنا عايشين ، يتحدث الرجل ، اجلس خلف
النسبة . في آخر الليل ، سلسبيلة ، أنا .. أنا .. بحبك . حب
الدين يريد ان يضحك علي ، ما يهمني هو المهندس . أحبته ، است
أدري لم . القلب قاض بما فيه ، منذ سنوات . أريد ان أرى
المهندس ، ان أمحه بنظرة احتقار وتشف ، سسيمي تحت
القدمين ، ساعديه ، بعدك يا عصمت ان أعرف رجالا آخرين ،
زمن السفر قادم ، وما أنتظره وما أبحث عنه ، لن أجده هنا .
بل على أرض أخرى ، بلاد بعيدة . مدينة لم توجد بعد . ويقول
لي حب الدين ، في آخر الليل ..

ورداني : بكره الصبح ، تسلم أرضك يا ورداني ، بس يا حضرة
العمدة ، معلش يا ابني ، المهندس ، النصف فدان ، الحكومة ،
التسليم ، الهزيمة ، الجاموسة تتلوي في البيت . في الصباح ،
احل المواشي ، أمشي بها في وسط حقول الناس فلا حمل لي .
قال لي جاري : ان بقاء المواشي في الزريبة يصيب اقدامها بأمراض
شيرة ، أمشي على الجسر الطويل ، اتركها ترعى في الحلفاء الشائكة
اعود الى البيت ، يقول الناس بعد مروري عليهم ساعة العصاري
الحكاية ما احتش على دماغ حد إلا هوه ، في الليل ، ريني الارمة
تركوني بمفردي امام المهندس ، انتهى الامر ، ما فائدة كل ما يقال

في المركز . دخلت المستشفى . رأيي وكشف على اكثر من طبيب
خلعت ملابسني . ارتديت ملابس المستشفى . نمت على سرير
طري . وقال لي الاطباء . بالحرف الواحد : عندك ربو ، حاله
قديم . اعود ، في الصدر شك الابر ، انفادى الزمل والعراك .
وم خروجي من المستشفى . قال الدكتور في مرور الصباح :
خروج . دون نفس السكلمة بالاحمر . على ذيل اوراق العلاج
أنتلقة في سريرتي ، لم اكش شفي بعد . قاتوا لي ان من يساب
بهذا المرض . لا يشفي منه ابدا . بعد قليل ، كنت اقف خارج
مور المستشفى ، سور حديدي مرتفع . في يدي بقعة فيها ملابس
منسخة وبقايا اكل ، كان على ان أسلك اقرب الطرق الى السوالم ،
سيرا على قدمي ، لم يكن معي ما أركب به حتى السوالم . بكره
الصبح تسلم الأرض يا ورداني . حاضر . في يوم التسليم . قلت
أنتي مريض ، لم أقم من نومي . روجي أنتي يابث . قالت زوجتي
ان ابني الصغير انفطر قلبه من العياط ، لم أرد . قالت : ربنا
يندهم ، هو ما فيش حد قدهم ، لن اسلم . الحكومة ، المهندس ،
العمدة .

عندما قلبوا باطن الأرض . اخرجوا مصارينها ، شعرت ان
هناك شيئا ما انتكح موتها ، انكشف عليها الغريب . قلت لزوجتي :
ان تعد كيلة حب كي تبصمها في السوق يوم الخميس ، كانت الأرض
جرحا ينزف في القلب . الغزاء أنتي ساتسلم في الاسبوع القادم ،
أيجار النصف فدان لمدة سنة . طلبت من زوجتي ان تلم لسانها ،
والأ تذكر ذلك امام أي احد من أهل الحارة . أبو السعود ، أنتي
لي بالامس ، وقت الغروب ، ومال على :

- اعمل حسابك في اثنين جنيه سلف من الفلوس ..

فاولاده وزوجته يمشون بدون ملابس

- فلوس ايه ؟

- اللي حا تقبضهم من المهندس

- يسمع مني ومنك ربنا

- أيجار الأرض ، من المهندس ، ربنا يوسع عليك ..

صحت فيه : لن أقبل مليما ، ساشكو للعمدة والمركز ، وسأرسل
تلفرافا للرئيس ، وقلت لنفسي : ان الخير قد يكون مع المشروع ،
وقررت ان أبيع النصف فدان بالف جنيهه ، لتتكلم الناس ،
سأخاصم كل الناس ، لن أرمي السلام على احد ، سأدير وجهي

ان قابلت اى رجل ، ساخا صم الجسر والعشنة والجامع ودكان
المعلم يعقوب ودوار العمدة . السوالم كلها . لا يظلم فيها العيش
وللح وهدوي عليهم العترة . احلف . سرية ابى . والمنصف
اشريف . ان ارضى لن تبوح بسرها لاحد ، ولولا خوفا من الاثمة ،
الذهبت اليها في الليل . وهناك ، ساعرف الامر كله ..

السوالم - بحيره ..

الخميس ٨ من اكتوبر سنة ١٩٦٤ م

في الصباح ، قمت من نومي ، غسلت وجهي ، خلقت ذقتي .
تناولت طعام الافطار ، واثناء شرب الشاي ، رحت افكر فيما
ساقوم به خلال اليوم ، وادركت ان ما على القيام به كثير . ارتديت
ملابسي ، امام الخيمة ، عرض على مساعدي ، بعض الخطوات التي
لست ، شرح لي احتمالات المستقبل . نظرت الى الرسومات
والخرائط والجداول والكتابات . كان ذهني شاردا ، لم اعلق
على ما قاله . طلبت منه ارجاء الامور حتى اعود من رحلتى .
ما يهمنى ليس ابشر ولبتروول ، بقدر ما يهمنى الناس ، وجودهم
حياتهم ، ما يحلمون به ، ما يرجونه من الايام القادمة ، كان على
ان اذهب الى ششت الانعام وتكلا العشب وايتاي البارود . ساقابل
كثرا من الناس . ساحدد معهم ما سنعمله . كن من المفروس .
ان يوم المساعدين . بهذه الخطوات . فاصلت اليوم بها سعي .
في البداية ، كنت اريد ان اكون مشرعا على المشروع ، وامتدنتي
الشركة بعدد من الموظفين ، ووزعت بيننا الاعمال . بعد حضوري .
وجدت في السوالم ما لم اسمع عنه من قبل . قررت القيام بكل
خطوات المشروع ، لفت نظري ، ان الرجال ، بحكم تعودهم على
المسافات الواسعة ، فان المسافات لا تعنى عندهم شيئا . ان
ابساط الارض والحياة عندهم ، وانفساح السماء في وجوههم .
افقدهم الاحساس بالمسافات . وكون الايام متشابهة الشكل
والحوادث . جعل احساسهم بالزمن لا وجود له ، ما يحدث
اليوم ، هو ما حدث بالامس ، وهو الذي كان يحدث منذ سنوات .
وفي مستقبل الايام لن يحدث سواه . وعندما يسافر احدهم الى
ابنادر القريبة ، ويعمل هناك ، وتحري انتقود بين يديه ، فانه
يشري ساعة يلفها حول معصمه . انه لا يشري سوى الساعة ،
رهي رمز بالغ الاهمية ، انه دخل مرحلة يحسب فيها الوقت
بالدقائق والساعات . ان النادر مليئة بكل الاشياء ، غير انهم

جميعا لا يشتركون سوى الساعات . وذلك اتفاق غريب بين كل الناس .

تسال عن الضهرية : الرجل الذي تساله يقف مكانه . يصع يديه في جيوبه ، يضيق عينيه ، يحسب : ويقول لك : دى قريبة خالص ، فركة كعب يعنى . الضهرية : على بعد ستة كيلومترات بالتمام والكمال . أجمع ملاحظاتي عن السوالم : لا ادري له أجمعها : أمام شكل الحياة أضعف ، أشعر أنني أمام شيء عظيم وعظيم . قال لى أبى : يوم أن بركت قرينتنا الثانية في أقصى الجنوب : سافر ففي الأسفار سبع فوائد . لم أفهم معنى الكلمة . الآن ، وبعد سنوات ، أدركت ما تعنيه . أن حياة الناس في السوالم خصبة وغنية وملهمة بانعود الرثعة . فقد قررت أن يكون وقت فراغى كله لعمل دراسات عن المنطقة .

سيكون هذا اليوم ، دراسات مبدئية ، عن المنطقة المحيطة بالسوالم ، لن أرجع الى كتب ، ولن أسمع من الناس ما يقولونه . سأذهب بنفسى . سأقابل من يعينهم الامر ، سأعرف بهم . بالامس ، تأكد لى . بما ينسب اليقين . أن علاقتى بهذه البلدة . أن تقتصر على البئر والبتروول ، أدركت أن هناك علاقة ما ، صلة تربطنى بهذه الأرض ، وأنه تم بيننا اتصال بشكل أو بآخر من قبل . سأبدأ عملى في الحفر يوم السبت القادم . ما معنى اليوم ، أن أدرس جملة أمور ، طريقة الوصول الى المنطقة ، وسائل المواصلات وتكاليفها ، الطرق الصالحة ، إمكانية انشاء طرق جديدة ، أو ترميم الموجود منها ، التموين من أعاشة ومواد خام ، حالة العمالة ، عدد العمال ، مستوى الأجور ، مدى استعداد العمال للعمل في المشروع ، مكان أقرب إنتاج زيتى أو غازى . كل الدراسات والرسومات ، التى تمت ، كانت دراسات جيولوجية معملية ، توصلت فيها الى نوع الحفريات ، سمك الطبقات الرسوبية ، مدى وجود صخور خزائية وعمرها . كان التقرير يحتوى على البيانات الجيولوجية والاقتصادية التى أمكن الحصول عليها . كان فيه تقييم للإمكانات البترولية في المنطقة ، توصيات عن مناطق أخرى تستحق دراسات تفصيلية . كان على أن اكمل مع زملائى الدراسات النظرة ، على أن تقوم بعمل اللازم احفر البئر الاختبارية .

تكررت قبل أن انام ، ليلة الامس ، رقلت لنفسى : حياة الناس

سحول . قال مساعدى : انه من المناسب ان أولف كتابا عن الناس . بقى امامنا سوى جمع مادة اسكتاب خلال عملنا اليومى . عندما رأيت انسياب الإحلام في العيون ليلى أن كنا على الجسر ، بركت أنني قطعت منتصف الطريق . في الليل . بعد أن عدت من على الجسر . همست للحوارى : من حق الناس أن يحلموا ، ذلك هو الأمل الأخير لهم . وقبل ذلك : أخذت حب الدين معى ، سرت في الحواري . رزنا جامع سيدى الفريب ، شاهدت المدرسة الابتدائية ، الجمعية التعاونية . مكتب البريد ، منزل شيخ البلد ، حجر الواسع . السر . وصلت الى أول الطريق الزراعى الآخر لموصل الى ششت الانعام ، قال لى حب الدين : انه يخاف أن اسمع كلام الناس عنه .

- الناس هنا اصلها ، ما بتخليش حد في حالة

حب الدين رجل اعزب ، وكل رجل اعزب في هذه البيئات سقة . مكروه . ولا يطمئن اليه أحد ، انه يشكل امام عيونهم بونا في وجه الطبيعة ، وعدوانا مستمرا على حرمة بيوتهم ولو حفرات . فن حب الدين : يوجد في السوالم عائلات : في سوالم قبلى عامه الدقراوى ، ومنها عمدة السوالمين الآن ، وأمين اتحاد الاشتراكي ، وعائلة الخولى ، وهى من السوالم بحرى . بان منها العمدة في الزمان القديم ، وبعد أن مات ، لم تقم لهم أئمة بعده ، واكتفى المركز بأن عين عمدة واحدا له نائب في السوالم بحرى . قال حب الدين : من أشهر العائلات في الناحية ، عائلة أبو بكر في اعصر . والنسي في دمسنا ، هناك عائلات اخرى . ركب من حدنه . فبمه للعائلة الكبيرة ، لاند وان تكون كثيرة مدد . لا يقل امرادها عن مائة شخص ، ملك الاراضى شرط ناسى . احيانا يكون من العائلة فرع صغير ، رجل مل به الحال ، من طرف هذا الفرع الصغير ، تناسب العائلة الكبيرة ، عائلات عيرة متطلعة وطمح . لذلك ، قال لى حب الدين : ان السوالم ، من وبحرى . عائلة واحدة ، وذلك عن طريق النسب ، قصة حياة . هى قصة الخلطات بين العائلتين الكبيرتين ، والبلد مكون مناسن بلا زيادة ولا نقصان . لا توجد عائلة صغيرة ، أو فرد مرتبطه علاقة مع عائلة الدقراوى أو الخولى ، ولا يوجد موقف من . قلت : أن حفر البئر يجب أن يتحول الى تجربة حياة كل الناس ، تعنى وجودهم . لا يجب أن يتصور أحد ، أن

ابتترول هبط من السماء . او اتى من عند الجن والعفاريت ،
يجب ان يدركوا . انه نبع من حبات قلوبهم . من تحت جفون
لعين . سلمت على الرجال . دخلت بيوتهم . شرب النساء
الاسود على المصاطب الصغيرة معهم ، استمعت اليهم . يقولون
حكايات ، كلمات تنسجها الشفاء تبلغ حد الروعة . في أثناء سري
في الحواري ، مع حب الدين ، وكان ظلام المساء . يمتص نور
النهار ، الرجال يجلسون امام ابواب بيوتهم . يتكلمون . سلمت
على شيخ لغفر ، ذهبت الى ارض ورداني بعد استلامها ، عاينتها
آثار ورداني في كل مكان ، اشجار صغيرة زرعتها ، تكسية عنب ،
ساقية ، حديد يحددها من الجهات الاربع . مربط المواشي ، كوم
انسباخ على رأس الحقل . كان على ان اطلب المنادى . ان اكفه ان
يمر في حواري البلد . ويطلب من الناس الحضور يوم السبت .
التاسعة صباحا . حيث سيتم افتتاح المشروع بشكل رسمي ، في
حفل سيحضره كل الناس . قالوا لي ان المنادى اسمه ابوالسعود ،
وانه رجل فكه ، في اخصين من عمره ، كان يعمل لحادا من قبل
ثم احترف المناداة . لا بد من لقاء آخر بيني وبين الناس ، ما اريده
هو ان اقرب منهم اكثر ، اشعر بهم ويشعروني . يوم لقاء
الجسر ، جلسوا حولي ، صمتوا ، استمعوا الي ، هزوا رءوسهم ،
لم يتكلم احد منهم ، كان الصمت جرحا شوه طعم اللقاء في الافواه
اغلب الرجال في هذه الايام من كل عام لا يعملون في الضحى ،
وتكون الشمس قد وضحت للعيون ، يجلسون على الجسر .
بعضهم ينام على الافريز الصغير ، بجانب سوره ، يغمض عينيه
ويحلم ، وباقي الرجال ينظرون ناحية السماء الصافية ، يحركون
اياديهم ، يطردون بها الازباب من فوق الوجوه ، وتبدو عيونهم
المبتلة بالنفاس ، كأنهم لم يصحون بعد من وزن الليلة السابقة ،
او انهم يستعدون لنوم الليلة القادمة . انهم يتشاءمون ، يفتحون
افواههم على آخرها ، فتبدو اسنانهم الصدئة المتآكلة . يرفعون
اياديهم في الهواء ، يمدون اقدامهم حتى آخرها ، انهم يستنشقون
رائحة ملل الايام الفارغة . اجلس الآن في خيمة صغيرة ، يجلس
امامي مساعدي في الخيمة الاخرى ، السائقون والفنيون وباقي
العمال ، انهم جميعا متذمرون من الحياة هنا ، يقولون سوء الحظ
رمى بهم هنا ، ويحسرون على كل ما في البلاد الاخرى ، القاهرة
الاسكندرية ، حيث النساء الجميلات ، السيارات ، الانوار ،

علامات الطريق ، الشوارع المغسولة بظلام الليل ، الاحمر والاخضر ،
ممنوع انتظار السيارات ، مدرسة ، ممنوع استعمال آلات التنبيه
الاعلانات ، العشاق في الشوارع المظلمة ، لم احاول ان اناقشهم .
في لحظة الفسق من كل يوم ، يكتبون رسائل صغيرة ، يرسلونها
الى الاهل ولاحياب ، مقربين يوم اللقاء ، ضاربين له موعدا ،
الموعد سيتحول الى شيء مؤجل ، وسيظل مؤجلا الى غير ما حده
مشروعى يسير حتى الآن بشكل حسن . في ليلة الاسباء حلت
بالدخان الازرق في السماء ، المصاييح العالية ، الناس السعداء ،
قرات خيرا في جريدة معلقة في افضاء عن تسريح جيوش العالم
وتحويل الحدود بين الدول الى خطوط وهمية لا وجود لها الا على
الخرائط وكان اللذب يداعب الحمل والاسد يجلس وسط الرجال
كانت الشوارع نظيفة لم يكن في الانويس محصل . صندوق
صغير يضع فيه الراكب الاجرة ، الجرائد والمجلات على الارصفة
الناس جميعا امناء ، يقف الرجل . ياخذ ما يريد . يخرج منه
ويضعه على الارض ، ثم ار اقسام بوليس ، ولا محاكم ، ولا قضاء
ولا حاكم ولا محكوم ولا مسجون ، لم يكن هناك متسول او
محروم او ناك ، كل ما يطلبه الانسان في تناول يده . نظرات الرحمن
حاملة وادعة . لم تبق أية مشاكل ، لا احد في السواله ينتظر مجيء
النسي الجديد . وعلى الحيطان عارات عن مصر المستقل .
سعادة . الاخوة . المساواة . لا احد يملك . افنى . الزهد .

في الصباح ، لم احك ماشاهدته لاحد ، اعتبرت ان ما رايت
سرى الخاص ، في هداة الليل ، اكتب على ضوء مصباح . السواله
كلها تمام ، مكان واحد ينبعث منه نوره : عشة سلسيلة ، انها آخر
ومضة نور تنطفئ في ليل السواله ، بعد انطفاء نور العشة ،
ادرك ان كل شيء تام اخيرا . الرجال يعودون الى بيوتهم بعد سهر
تل ليلة . اشعر ، وارجوكم الا تضحكوا مني ، اننى قد تزوجت
السواله ، قبلى وبحرى ، واننى قلت لها ذات مساء احبك ،
كنت صادقا ، كان القلب طامنا والطريق مجدبا ومكن اللقاء
مساهة . الشرف بعيد . بعيد . وقالت لي السواله . وشعرها يغط
الجسد الذى يبدو بياضه من خلف القدام . اما ايضا احبك .
قول الآن النعيم ليس شيئا في العالم لآخر ، حيث جنات عدن
والانهار والملائكة ، النعيم يجب ان يكون على الارض . وان لم يكن
موجودا فمهمتنا ان نوجده ، نخلقه ، في السواله ، في الارض

والبيوت : في فيمان نفوس الناس اليسطاء ، يكمن الجواب على
الحيرة والتساؤلات والانتهاكات اليومية ومن يتعمد عن هذا البلد :
ولقد قام برحلة خرافية ، بلا نقطة ابتداء وبلا أمل في الوصول الى
مكان ما .

قابلت رئيس مجلس القرية في شنت الانعام ، سلم علي ،
رحب بي ، جلست معه طويلا ، حدثني عن متاعب منصبه ،
شربت القهوة ، ان السوالم تتبع مجلس قرية شنت الانعام ،
عرضت عليه افكارى ومشروعى ، حاول ان يعترض ، لم يرجع الى
رؤسائه في مجلس المدينة ، قلت له اننى قمت بعمل اللازم قبل
حضورى وعدنى بأنه سيكون معى . قال لى ان عدم الفهم هو أس
البلايا في هذه البلاد ، الرجال لا يفهمون حقيقة ما يحدث للبلد .
التعامل مع الناس شديد الصعوبة . قال الرجل وهو شغف :
اى محاولة للاصلاح لا قيمة لها ما لم يتعلم هؤلاء الناس القراءة
والكتابة اولا . كرر : القراءة والكتابة قبل كل شيء . اكمل :
الايام انقادمة سنحمل للبلاد الخير . قال انه يتمنى لابنه الذى
يتعلم في مصر . ان يكون مثلى . قمت معه ، شاهدت الوحدة
المجمعة ، زرت المدرسة والمجموعة الصحية والمركز الاجتماعى .
ذهبت الى مركز ابتاي البارود ، في المركز قابلت اكثر من مسئول ،
قال لى الشاويش وانا خارج من باب المركز : ان الحال امان .
ابناء الليل اختفوا ، الرجال في هذا الزمان نادرون ، طلب الى ان
نطمش لكل الناس . لقمة العيش قهرتهم . الناس لا تريد الا ان
نميش في سلام . قابلت مفتش صحة المركز ، طلبت منه ان
يتعاون معى ، ابدى استعداداه . في طريق عودتى بالسيارة . على
الطريق الزراعى : كانت سحب الضباب ترتفع وشور حول السيارة
وكنيت افكر في كل الذين قابلتهم ، أدركت حقيقة هامة . قرأتها في
حياة السوالم ، وتأكدت لى بعد هذه المقابلات الحياة معمرة .
القيم والتقاليد رسخت ، وفهم الناس من الصعب أحداث تغيير
فيه . مجرد تجاوب الناس معى معجزة . التقدم اكسب اكثر الاشياء
دمامة وقبحا والفة جعلتها تبدو رائعة في العيون . الناس جميعا .
مفروزون في طين الارض حتى رقابهم ، وعيونهم المثبتة في الارض
ودور في رغبة ، في كل ناحية . الاختيار صعب . في صعوبة الموت
نفسه . الحياة بشكلها الواحد ، والوجود بشيائه ، يثير في نفسى
الفزع . نظرت الى الطريق الحقول والناس ، أدركت ان ما يجول

بذهنى بعد اكتشافا ، قلت ان تدوين كتاب عن الحياة هنا امر
بالغ الاهمية .

مند يومين . قال لى حب الدين . وهو يودعنى . عند باب
الخيمة ، وكنت استعد للنوم : ان الفلاحين يقلبون الارض في هذه
الايام ، تمهيدا لزراعتها بعد ايام الجفاف وأن قلب الارض . مناه
ان يحلم الناس بالليل . قال لى : اننى قد احلم . والدا فانه من
المستحسن ان ابقى في الخيمة ، مصباحا مضاء انشاء النوم . قال حب
الدين : اهل البلد يحلمون الآن احلاما مسعيدة . فشكرته .
استدار حب الدين ، اشار بيده اليمنى الى البلد كلها :

— اهم كلهم يحلموا

قلت له :

— تصيح على خير

وقلت لنفسى : كلنا نحلم في نهاية الامر

آخر أسير . في عشية سلسبيله

ينصرف الرجال . تسمى كل منهم لأحريين بينه سلسبيده
تصبحون على خير . تردون يفاؤون كموت مضطبه . يدور بها
سهرهم . يذهب كل رجل الى منزله . السواء يتسبب معنى
حديثا سلسبيه للرجال . القمر في السماء العاليه . يبدو مشطورا .
تصفه فقط . يرسل صباه على امد والرجال . وفي الحوارى
الواسعة ، يبدو ان الاضواء الشاحبة التى يلقها القمر هى التى
يملا خيال الناس بحكايات عن الممرات والجن . وفي البساتين ،
اشجار عجوزة ، ترقد ظلها تحت اقدامها في سكون . وفي
الليالى ، لا يبقى للسائرين في الظلام . سوى انقشورية ملء
الجسد والقلب والعقل ، صلوات الاستغفار والاستعاذة على طرف
اللسان ، ان السكون انمادى الموحش يصيب الرجال بخوف
لا يبعث الى قلوبهم بالبرودة والانكماش ، خوف من نوع آخر حار
ملتهب ، مرتبط بحكايات سمعوها رهم صفار في ليالى الشتاء
الطويلة ، عن المفاريت وابناء الجان ، وقد يحلو للرجل ان يذهب
الى حقله ، وعندما يمر على آخر بيوت البلد ، تبدو له اشعة
القمر الفضية ، تنساج على السهول الواسعة ، وتمتد المسافات
ويبتعد خط الافق ، وفي البيوت النائمة ، التى اختلطت ببعضها ،
نتاهت معالمها ، وتحولت البلدة كلها الى كتلة من السكون الموحش
ذلك كبير في قفصه . خدعه ضوء القمر ، ونسمة هواء باردة ،
فانطلق يصيح ، معلنا ميلاد يوم جديد ، ناشرا الاضطراب والحركة
والصباح بين باقى دكة البلد الاخرى . آخر الليل في عشية
سلسبيله ، معناه ان ينصرف آخر زبون ، ان يقول الرجال كل
ما عندهم ، ان يلعبوا الورق ، ويدخنوا ويشربوا الشاي ، ثم
يرين عليهم صمت شفيف ، ولا يبقى امامهم سوى ان ينصرف كل
لحاله .

حب الدين وسلسبيله بمفردهما ، ستبقى هذه اللحظة الصامتة
المشحونة سرا خاصا بهما . ينصرف الرجال ، ويجد نفسه بمفرده

معهما يجيش وجدانه بأشياء غريبة ، وهما في العشة . اثناء جمع
اشيائهما ، البراد والاكواب ، الراديو ، الجوزة ، الطبلية .
الورق . يدلق مياه باردة على النار المشتعلة ، يلم الحصر .
بتحاسب حب الدين مع سلسبيله ، يحسبان ما عليهما ، ما لهما .
يدونان الشكك في الدفتر ، تعطيه انقود التى معها ، تطلب منه
ان يذهب في الصباح الى ايتاي البارود لشراء المونة ، تعذد له ما
تحتاجه ، وفي آخر حديثها : تطلب منه بحروف لينه مملوطة .
ان يشتري لها اشياء خاصة بها ، اشياء لا تباع في الاسواق .
ولا تسمع عنها النساء . احمر شفاه ، بودرة ، قمصان نوم
نايلون ، سوتيان ، وتوصيه ، وتحلفه برحمة من ماتوا ، ان
يشتري لها هذه الطلبات بعناية ، وان يختارها بذوقه ، وعلى
ثقة به .

حب الدين يسير في حوارى البلد ، سلسبيله تحمل على راسها
قفصا صغيرا ، وضعت به العدة ، وفي سيرهما ، في حوارى البلد ،
تسمع الكلاب ، في البساتين وعلى ردوس الحارات . يستلها الحشر .
من هناك؟ يمران عليهم ، يرد : انا حب الدين . الخفر جالسون .
ينادقهم بجوارهم مسنودة على الحائط ، انهم يتحدثون ويدخنون .
في الليلة الاولى ، اضطدم ثدياها السافرين بعظام صدره
فغطت عليه ، احتوى ليونة صدرها ودفعته بين ساعديه ، تحولت
الاشياء اقربية من عينيه الى بياض في لون الحليب . يمد كفه
بعذار الشعر الليلية . يمسك يديها بين يديه ، يسرر في الحرد
- تتجوزنى يا حب ..

شيء ما ، يبدد بخار الرغبة في بافوخه ، يقيق ، يحس بدفئها
قريبا منه ، يتوقف ، تنزلق الكلمات من طرف اللسان . تنام
رموشها على العيون الواسعة .

- بينى وبينك لا ، انما قدام الناس دا لازم يحصل .

تتحسس ملامح وجهه المجردة بأصابع يدها الناعمة . يقف .
تمشى امامه ، وحينما تمشى ، فانه يدرك ، ان قدميها تدب على
رموش العين ، وتدوس في حبات القلب فتدهسهما بها . ولا
يوجد فيها سوى بقايا افراح عجوز صدئة .

- تتجوزنى ياواد يا حب ..

تسكره الكلمات ، تقترب منه ، يزداد ارتفاع السقف ،

تبتعد الجدران ، ويشعر حب الدين باحساس ساخن يحتويه
بداخله .

١ .. ت .. ج .. و .. ز .. ك

قالت له سلسيلة وهما يسيران في حواري البلد :

— دا حرام ، احنا آخر ناس نروح

لم يرد عليهما . جال بخاطره احساس بان الله قد تاب عليهما ،
ثم مريب يعمل نهار مثل كل الناس . وقد يستطيع مواحهه
نفسه . منذ سنوات خرج من السوالم شاب صغير خجول . يهيم
بعيدا عن الناس ، سافر الى دمنهور . كان يطلب العلم . الرجال
والساء الذين شاهدوا الشاب في الصباح البعيد . ما زالوا
يذكرون . ان ارضه الجبر . كانت مبله . وان احوال مجيء
سارات كان سمعا . بسبب اختاء . في الاجازات . كان العنبي
الصغير . يعود الى بلده . ضاحك الرجال . يقبله الصبية . يجلس
على الجسر طويلا . مرا ويفكر ويادرا ما كان يتكلم . بعد عامين
عاد من دمنهور . عاش في السرائم . كانت الحياة بالنسبة له .
نوعا من الانتظار المستمر . المعجزة قد تحدث . في الصباح ينتظر
احظة المتأري . ووقت الفسق ينمشي مفردة على الجسر .
يجلس على افريزه في الليل . يدور في حواري البلد . ويقف امام
دكان المعلم يعقوب ، ثم يعود الى منزله . الليل بالنسبة له رحلة
طويلة . يقظة حارقة . يتقلب . يدور حول نفسه . ينقذه من
رحلته مباح ديك في منزلهم . فيدرك انه عائد من رحلته .
القوافل ظمأى . وينبوع الماء في السماء التاسعة . الاهالي تدرك
انه فشل في تعليمه . قالوا عنه . ذات مساء . انه مثل التي
رقت على السلم ، بخته مابل : من ظله ابيه الناس . انه يهمل
ولا يهمل . الفقراء اكادوا ان والده سترك له ارضا . وفي هذا
الكفافة ..

شاهدها لأول مرة في اثنائ البارود ، اقترب منها ، اصطدمت
نظراته برموش العين السوداء . ونسجت الشفاه كلمات غيرة
مسمومة . سكر ، آه لو استطعنا ان نمسك النجوم بأيدينا
المشوهة الاصابع ، او نصنع بها من حبات العيون والقلوب أكثر
العقود حلاوة ، أو تفصل بدموع القلب كل الاحزان . سلسيلة
لا اضع نظارة على العينين ، ولا ارتدى بدلة انيقة ، كما يفعل

اهل البندر ، غير اني استطيع احيانا . ان ارضي الكلمات .
ملساء ناعمة ، ويكون في الاعماق عندئذ ، شيء هادر . في عنف حركه
الاشجار المعجزة في الحقول وقت هبوب الرياح .

فتحت سلسيلة الباب ، دخلت ، اشعلت الصباح الصغير .
وضعت « القوالح » في المنقد ، دلت عليها الجاز ، اشعلت النار .
راحت ترتب المنزل ، خلعت شبشبها . احضرت البخور . وضعت
في النار . عبق البيت برائحة محببة الى نفس حب الدين ، تذكره
بآخر الليل . امسكت بذيل جلبابها . رفعت . خلعت . اصبحت
امامه بقميص النوم . ترك جسمه يتهاوى في الارض . جلس في
احد اركان الحجرة مستندا الى الحائط . اغمض عييه سف
اغماضة . وفي الخارج ، الف الف عين تحديق في مرله . جفت
بها المضاجع ، تركت نومها ، لدى سماعها صوت بابيه وهو يفتح .
الف الف اذن تسمع اقل حركة . حتى عيون السواقى . واوراق
الاشجار . ونصف القمر المشطور . خيمة الضوء الشفيف تغطي
ابسلد . تعرف حكايته ، تحسده على سلسيلة ، تذهب الى
دوار العمدة ، تشي به ، تقول ما تشاء قوله ، ترسل الى المركز
الشكاوى ، تحلس بجوار الشيخ محمود بعد صلاة العشاء . تطلب
منه ان يقوم الموح . ويرشد الضال .

— واد يا حب ، مالك الليلة ؟

جالب بخاطره رغبة . كان يريد ان يسمع اسمها كاملا .
سلسيلة على الله ، سلسيلة على الله . تذكر الماء والظما .
والقوافل العطشى ، ومراهمة اهل البلد . ونظرات حبا كقول
وآخر امل له في الحياة .

— واد يا حب ، انا سلسيلة ..

اطل عليه عصمت فهمي النجاوي ، اصدق آمال العمر ، الامان
واعمل والخير ، ذات مساء . قال له المعلم يعقوب : ما من أحد
بحسن الدنيا ، يجب ان تتفدى بها قبل ان تتعشى بك . قال له :
في الارض قنود تربطه بالبلد . الدنيا مليئة بلاشياء الحميلة .
اقاؤه بالمعلم يعقوب هو السبب ، لا يذكر متى تم ذلك . يذكر
انه قال له : ان بيع الارض من اسهل الامور ، وقال له المعلم
يعقوب ، وهو يأخذ منه الارض قطعة . قطعة . احب كارهك .
بارك لاعنيك : اذا ضربك أحد على خدك الايمن فادر له الايسر .
وفي حجرته الصغيرة : شرب لأول مرة : وكان ما سمعه منه

يومها . ما دامت اهدافنا شريفة . فان كل ما نقوم به مشروع . ولا احد من حقه ان يتدخل في شئوننا . قال له : ان المصريين لم يأخذوا من الارض سوى الشقاء . أكد له المعلم يعقوب : انه يحبه لحد الجنون . وانه ارسل اهل السوالم . حب الدين سمع كلاما جديدا . فشلت في تعليمي يا معلم ، وطعم الفضل امر من اعلم . انسمه بكوى القلب والمسقبل مبني . رد عليه المعلم يعقوب : العظماء دائما يفضلون في البداية ، وانه لا يجب عليه ان يهتم بمثل هذه الامور .

عندما وقف حب الدين يوم السوق . على الجسر . يبيع اول معلم من ارضه لعبد يعقوب . لم يعل له احد ان في نفس ارض السوالم كمن السر والخلال ومعنى الحياة . اسسهه مع الارض ، وفي كل مرة . كان يوقع عقد بيع ابتدائي . كان يذكر والده ، ويتذكر ان الناس قالت عنه ، انه ظالم ، وان هذه الارض ليست له بلا مناع . وب نفس الطريقة ، فان الارض تضيق . وفي كل مرة . كانت سورة ابيه في ذهنه تزداد تباددا ، ويحيط بعلامها صباب جديد . اخوته الذين هاجروا الى البنادر . يرسلون له الرسائل . خطابات تحمل اختاما سوداء ، الارض التي تباع فيها . ليست ملكا لك وحدك . اوقف كل ما قمت به ، اي اجراء باطل . شفافيك . احترم ذكرى والدك . ليس من حقك ولا من حقنا ان نتصرف في شبر واحد من الارض .

ان سلسيله بنف نصف عارية . امام حب الدين . بيضاء الجسد يبدو شديد الوضوح من تحت القميص الشفاف . وعلى اسكتف . كئل الشعر البلية . وفي العيون وسن لذيذ . سسليه تمد يدها اليه . وفي يدها الاخرى طيلة مغمية .
- واحده ونفس يا حب ..

ترقص ، تحبى جمهورا لابراد سواها ، تستعيد ليالى مضت . لان تعود ، وتحادث اناسا تراهم في جو الفرفة . تنفى كلمات عن النسيب وزمن السفر والترحال . وتقول وقد اسكرها اللل . رايها في اهل البلد .

ذات مساء . استدعى العمدة حب الدين الى دواره ، طلب منه ان طرد الخاطلة التي احضرها من البنادر . الناس عائله واحده اهل . ووجود هذه المراه خطر . الرجل اكل وجهه والاسنه " ترحم . نه يحدثه الآن بالحسن . كذب . اخبره انه تزوجها

على سنة الله ورسوله ، عقد القران في طنطا ، في مسجد السيد احمد البدوي ، وهو راض عنها ، اخرج العمدة من جيبه عريضة كبيرة ، عليها آلاف التوقيعات . لذا فتحن نفوض الامر لك ، في هذه الحسيبة التي ابتلانا الله بها ، فانت وى الامر فينا . ان مجرد وجود هذه الفاسقة في بلدنا ، دلالة غضب الله علينا ، واقبلوا النجبة . قال للعمدة يومها . سلسيله هي آخر ما يملكه ، الرسمال الباقي ، وان من ينظر اليها ، سيفتح بطنه بمطواة حادة . لقد ادرك ان البيت لم يكن يمنحه الامان ، كان يذكره بانه ضال . وعلى اجنحة الليل ، كانت تسبح المخاوف والاحزان ، وعندما يموت الليل ، يرسو الذبول والاحلام المحنطة والاماني المذبوحة . تبقى مطلقة في عينيه وقلبه حياة لن يحياها ابدا .

تستدير عطيات ، تبدو ثنية الفخذ واضحة ، تسير بفتح ودلال . بشم رلحتها ، ويتذكر السهر الحارق في لياليه الاولى معها . سكر ، عطيات ، جسده ينبوع الحزن ومتاهة الشوق واخذود ارغبات المحومة . انت يا سلسيله الامل . تقبل عليه . يعلن الجسد عن شكله وتفجره ، من خلال الملابس الشفافة .

حب الدين ياخذ الطلبة من سلسيله ، وسلسيله تقف امامه ، وقد لفت حول وسطها لاسته البيضاء ، كي ترتص له وحده . انها تخفى في صحارة ملابسها بذلة رقص قديمة ، لفتها بمناية . داخل جريدة ، اقسمت بانها لن تلبسها الا في ليلة الدخلة ، يوم ان تتحقق الاحلام ، ليلة ان يتزوجها حب الدين ، يحبها للدرجة الجنون . انها كل ما في دنياها . وبعد الحصول على الوظيفة الجديدة ، سيتزوج فوراً . والا فمرحى يا ليالى الفرسسان المسحورين ، حيث السفر والترحال . صدقته . قالت انها تحبه ، لم تكن صادقة في كلامها ، كان القلب يلا بذكرى عصمت وحارة باب الوداع والشباب المنتحر حب الدين يضع الطلبة بجواره ، يمد قدميه ، ويتذوق على مهل ، حزن السنين القديمة . سلسيله تمشي الآن في الحجرة ، ذرائعة احتراق البخور ترحم انفسه ، ورموش حب الدين تنام على عينيه . وفي أعماقه تنتشر اخاديد المرارة . في الليلة الثالثة . اقترت منه ، سكر ، ووجدغابة الجوزة بين شفتيه .

- شد ، شد ياواد يا حب ..
شد كما قالت له ، واستمر ، وطققت النار في الحجرة ، فتح

فمه من آخره ، وخرجت كتلة من الدخان الأزرق الفائق ، أحس ببخار دافئ يصعد الى يافوخه : وتثبت بين أصابع قدميه حبات عرق دافئة ووهنت دقات القلب ، لم يعد يشعر بها ، وفقد السيطرة على أطراف جسمه . الغابة تنفس بين الشفتين مرة أخرى ، أطيقت الشفتان على الغابة بسببية ، خرج الدخان من فتحتي منخاريه ، صعد البخار الساخن ، انفكت عقدة اللسان ، زافت النظرات ، وأحس أن جسمه ينصهر ويعود الى أصوله الأولى ، شعر برغبة في الضحك ، فاستلقى على ظهره وضحك ، اهتز الجسم كله من شدة الضحك . قامت سلسيلة ، وقفت ، بدت له في نومه ، مساحة هائلة من اللحم الأبيض ، يدي له صدرها العريض ، يسد الحجرة ، سارت ، تحركت في الحجرة . وقال لنفسه : يوجد هنا كنز الكنوز ، وبين طبقات اللحم يكمن السر ، الدنيا لم تخلق الا للراحة والنوم والاسترخاء . العمل جنون وعبودية ، وقرر بينه وبين نفسه الا يقوم من هنا أبدا ، وأن يظل هكذا ، حتى آخر أيام العمر ، حتى آخر أيام العمر .
- تعالى جنبى ياسكر ..

لن ترد عليه ، لن تقترب منه . السكر والرقص والتوهان وتداخل الأشياء ، شواطئ أمان لن يصلا إليها الآن . انها تريد أن ترقص ، أن تطير ، أن تدور في الحجرة ، تدوس على الأرض ، وتحمل السماء فوق الرأس ، وبعد أن تحبى الناس ، وتسمع كلمات لا عجب ، تأتي اليه ، تمنحه كل ما يطلبه . شعرت سلسيلة بالاهانة ونظرت اليه بدهشة ، كانت تريد أن تسمع غناؤه ، كلماته الموشاة بالوجد ، المبللة بالوصال . وتنام في آخر الليل على وسادة الصوت الخنون . حب الدين يشير اليها ، يطلب منها أن تجلس بجواره ، أن تنام ، أن يفوض رأسه الملهب في لحم فخذها الأبيض ، أن تنام بدها البضة على جبهته الساخنة ، ويسمع منها حكايات آخر الليل .
- يا سلسيلة ..

سلسيلة كما هي ، وهو لا يجد في نهاية الامر سوى نفسه ، انه يريد بها بكل قطرة من دمه ، نكل نفحة هواء ساخنة في أعماقه بشعر بضعف يسرى في نفسه . ويوم ان عرض عليها أن تعيش معه في البلد ، قبلت ، منحته كل ما قضى العمر يبحث عنه ، وقال لها : انت احلى من على الأرض ، الله لم يخلق الجمال الا ليكون

أحدى صفاتك ، ردت عليه : وانت أعظم رجل قابلته في حياتي .
- مالك ياحب

رشف بلسانه طعم الوفاء ، وشم رائحتها . الكلاب تنبح في الخارج نباحا متصلا . احتضنها .

- الكلاب ماسكه الليلة ، لازم فيه حاجة حاصلة

انهمها ان الكلاب ترى ما لانراه نحن وان الله قد اختار لها ذلك لانها لا تستطيع أن تبوح بالسر . قالت له سلسيلة انها معه دائما حدث

- سلسيلة .

- حب .

كان يود أن يسألها ، هل ملت معاشرته ، هل سيمود ذات يوم ليحدها قد ذهبت (وقد يحدث هذا) . كان يدرك ان نصف كلامها كذب ، ولكنه كان يفتن نفسه انها الصدق نفسه . وهو معها ، كان يحس بخوف ، كان يود أن يدخل بداخلها ، حتى يحتضنها . وكانت كفاه تدوران على ظهره ، تمسح عنه الأكاذيب والخوف والقهر ، كفاه لا تغطي ظهره كله ، هناك مساحة عارية ، معرضة للضرب والطعنات وشك الأبر وقرص الأصابع . كان احبها بخرق في عرقه ، وكان يحاول أن يتعمد ، وهي اسفله ، ينظر الى الامر ، فيجد ان تحته فراغا عميقا ، وكان يخاف السقوط . فكل شيء ، حتى حبات العرق على الجسد العاري تشير الى اسفل . وقال ان عدم وجود الرغبة في شيء ما ، هي خير وسيلة لامتلاكه . وان الخوف من الفقر ، هو تسليم اكيد باننا نفقد العمر في معارك صغيرة ، سمع ما يقوله الودع ، وقرا بخنقه ، وقال لنفسه :
- ليرحمنا الله ، فليس لنا الآن سواه .

حب الدين يقف ، يفتح عينيه عن آخرهما ، يخلع بقايا ملابسه : ويتجه مع سلسيلة الى الحجرة الداخلية ، واضمأ يده على ظهرها ، وهي تنظر اليه ، وأصابها البيضاء الصغيرة ، تجوس خلال شعر صدره الغزير .

- الا ابوكي كان اسمه ايه يايت .

لا ترد عليه ، تجلس ، تبسم له ، تبدو البسمة كوعد بدنيا لم يعيشها بعد ، وسكر بعيدة نائية ، وليطلق سهامه وينطلق ، نهى تبعد عنه وهو يجري ويجرى .

في الأيام الاخيرة ، كان يلتصق بها ، وعندما يكتشف جزءا من

جسمه بعيدا عنها ، كان يفزع ، ويقترب من أحضانها أكثر يمسح
 بلسانه يدها وصدرها ، ويمرغ عينيه في جسمها . لم يكن يدرك
 أن الحب العنيف معناه أن العلاقة تعيش نوعا من التحول الى
 شكل آخر . كان يخاف من الكذب والقهر . انه يطلب نوعا جديدا
 من الميانه يقبل به الحياة من حوله ، قالوا له ، هذا النوع من
 الميانه ، غير موجود ، وقد يطلع من باطن الارض ، أو يهبط من
 السماء فجأة دون موعد .

كانت ابامه معفرة الجبين ، مشروحه ..

على الطريق ، نقاط العرق ، علامات القدم الحلو ترشده . وفي
 الخارج ، كل البلد تعرف ما يحدث ، أوراق الشجر ، مياه
 التربة ، مناقير الجنادب ، عيون الحيوانات النائمة في الحظائر ،
 فوهات بنادق الخفراء المسنودة على الخوائط يأكلها الصدا . يتذكر
 وعد الزواج ، ويطلب منها بقم غير فمه ، أن تمرى « كما ولدتك
 أمك بالتمام » تقوم ، تخلع قميصها ، تفك شعرها الاسود . حب
 الدين يقترب من سلسيله . وفي سيره البطيء اليها ، فان ظله
 يستطيل خلفه ، راسما على أرض الحجر خطا متعرجا كطريق
 الثعبان .

ومهما فعل ، فانه لا يضاجع في نهاية الامر ، سوى نفسه .

قال المهندس : أما بخصوص الاخ للوم ، نظرا لخبراته السابقة
 حانستعين به في مشروعنا ، رئيس شئون العاملين ، بصفة مؤقتة ،
 بهما أساسا الكفاءات بصرف النظر عن أى اعتبارات ، عرف
 المهندس من الانفار ، انه لن يتعاون معه أحد الا عن طريق للوم .
 الأيام بلا عمل . لا يوجد في البلد نفر واحد غير مدان للوم ، ولا
 يستطيع العمل الا عن طريقه .

في كل مساء ، يجلس للوم ، على المصطبة ، امام منزله ، يحصى
 في ذهنه الانفار الذين يتعامل معهم . يعرفهم فردا فردا ، يحصى
 من يتعامل معهم من اصحاب الاعمال والاراضي ، للوم نادرا ما
 بدون اسماء في أوراق معه ، عقله دفتر . ما رآه للوم في حياته
 علمه الكثير ، واهم ما تعلمه الا ينسى أبدا .

في البداية . كان عمله صغيرا ، نفرا أو نفريين ، يؤجرهم اصحاب
 الاراضي ، الذين لا يعملون بأيديهم في حقولهم . سماه الناس ،
 الخولى للوم . بالليل ، يمر على الأنفار « الرجل بعشرة قروش ،
 والصبي بستة ، والقبض آخر الاسبوع » . اهالى السوالم يتذكرون
 منظره أيامها : كان شابا خجولا ، لا بدخن ، في يده خيزرانة ،
 صغ يده اليمنى في فتحة جليابه الزفير ، يسير في الحواري ،
 مع امام ابواب البيوت ، يقول : يا سائر ، يخرج طفل صغير ،
 يسنه عن ابيه . يخرج من الداخل صاحب البيت ، يقول : اسم
 صاحب الحقل الذى سيعمل فيه ، وميعاد العمل . يطلب منه ان
 يأخذ معه طعام الغداء بدلا من الرجوع الى البلد وقت القيلولة .
 أحيانا يطلب منه الانفار ، جزءا من الاجرة ، فيعطيهما ما يطلبونه ،
 الحقاء امام مسجد سيدى القريب في الصباح ، البركة في البكور .
 قبل ان تشرق الشمس ، يلتقى للوم مع الانفار ، يتجهون الى مكان
 العمل . في الحقل يستبدلون ملابسهم بملابس الشغل ، يلغون
 الاكل بالملابس ، ويضعونها فوق أفرع الاشجار ، ينتشرون في
 الحقول الواسعة . تقف للوم وراءهم . تلاحظ عملهم . في آخر
 النهار يعودون الى البلد

الناس ما زالت تذكر نجاح للوم السريع ، بلغت نظرهم ، ملابسه النظيفة ، الساعة التي يلقها حول ممصمه ، الجزمه ام أستك ، الشراب الاحمر ، انطاقيه الصوف التي اشتراها من المحلة الكبرى ، الصديري الشاهي المنبر ، تهديده الدائم لكل من يختلف معه ، كلامه بالغم المليسان ، يد للوم ضاعت منها الشقوق ، فالمر والمعنى له علامات يد فيها الناس . النساء تقول ، تعليقاً على غنى للوم السريع : كل شيء قسمه ونصيب ، وانه لا احد يعرف كيف تسير أمور الحياة .

قال ورداني : للوم لم يرث من والده شبر ارض ، كل ماكانت تملكه العائلة ، مساحة منزلهم الصغير ، ومتر في متر مبنى فيها القبر الذي دفن فيه أبوه . مات أبوه ، وهو يتمنى أن يفتح الله عليهم ، بقطعة ارض ، فالذي يعيش في السوالم ، دون أن يملك أرضاً ، يعيش ويموت ، وهو مقطوع الجذور ، محروم من شيء يحصل عليه الآخرون . الزمان لم يجد عليهم بما يطلبونه ، وقالت أمه : لنا الله .

الحال تسير بملوم ، وعندما يسأله احد ، يقول ان الامور ماشيه والحمد لله ، الاتى مثل المنصرف ، وانه يعيش على الكفاف ، ويقول انه راض بعمله ، وبكل ما تأتي به الايام والليالي ، حسده الناس ، ان المزرعين في البلدان الاخرى يسمعون عن للوم ، في مواسم العمل ، نقاوة الدودة ، او زراعة انقطن ، جنى المحصول ، تقليع البطاطس ، يهل على السوالم ، رجال عليهم القيمة ، يركبون الركائب المظهمة ، انهم من بلاد اخرى . على الجسر ، يسألون عن منزل للوم ، يقوم ابو السعد ، لا يتركهم ، يذهب بهم الى منزل للوم ، على المصطبة ، يجلس معهم للوم ، الناس تلاحظ ان جسمه قد امتلا قليلا ، انها ايام الخير . يرحب بالرجال ، يسألهم عن الصحة والحال ، يتمنى لهم محصولاً وافراً ، يقول لهم : ان خيرهم خير له ، يعقد معهم الصفقات ، يبدأ الفصال . تلو الاصوات ، تخفت ، يقرأون الفاتحة . يرفض للوم ان يكتب معهم اى اوراق . يقول لهم : ان الانسان يربط من لسانه ، كلام الرجاله اهم من اى ورق مكتوب . يشربون الشاي ، يرص لهم ابو السعد المعسل ، يدور عليهم بالجوزة ، يحضر لهم المياه الباردة في القلل المبللة من الخارج ، يقومون ، يعزم عليهم بالعشاء والمبيت عنده ، يعتلون بأن وراءهم أعمالاً كثيرة بسبب الحصاد . يقولون له : ان مقابلته

وصدقه في العمل : اهم من اى عزومة . ينتهى اللقاء ، يسمع على السوالم من الرجال العائدين الى بلادهم ، كلاماً عن للوم ، يقولونه وهم راكبون فوق ركائبهم ، ان ما يميز للوم هو دفته ، محافظته على كلامه ، رجل سابق لاوانه ، والرجال في هذا الزمان قليلون . صبت للوم يطير الى البلاد الاخرى ، والكل في السوالم ، راقب ما يحدث بعيون ميتة . ذات صباح ، يشاهد المارون ، مام منزل للوم ، عمال بياض ، سلالم ، جير ابيض على الارض ، نتيات يملأن المياه من التربة ، اكثر من رجل في خلاه بيته ، انه بعيد ترميم الاجزاء المتهدمة في بيته ، ويطلق باقى البيت ، تمبيدا لبناء بيت آخر ، عندما يفرجها الله . قال له : من يحبه ومن يكرهه الف مبروك « سألوه : لم لم يتزوج ؟ قال لهم : « لسه بدرى » لم يزل صغيراً . وتبنى الرجال ، وهم في الطريق الى حقولهم ، في ذلك الصباح البعيد ، ان يجدوا ابناءهم الصفار في مثل نجاح للوم : ابنات الصغيرات ، الجميلات على وجه الخصوص ، منت كتر من بنت نفسها ، بان تكون من نصيب للوم . عندئذ ، تذكرت كثر من فتاة ، ان للوم سبق ان داعبها من قبل ، او ابدى اعجابها بها ، في الحقول الواسعة ، في وقت القيلة ، هذا كله ، كان في الايام الخوالي . تغيرت الحال الآن .

مشاريع للوم تعددت ، وحسب له ابو السعد كل شيء ، وقال عنه ائرجال ان مكسبه في اليوم الواحد لا يقل عن خمسة جنيهات خصرية ، النقود سرعت الولد ، فاصبح كل وجوده من اجل الحصول على مزيد من النقود ، يصل الى السوالم ، مندوب من جناكليس ، مجوعة من الافندية ، يركبون سيارة مكتوب عليها « محافظة البحيرة » . يسأل القادمون عن للوم ، يتركون السيارة في ارض اوقف ، يسرون على اقدامهم ، اول مرة ، تحضر فيها سيارة حكومية ، لا تسال عن العمدة او شيخ البلد ، يذهب من فيها الى للوم .

في منزل للوم ، السلام والتحيات والتعارف ، كما يفعل كبار الموظفين في البنادر ، والطريق من الحجرة الضيقة ، المفروشة الظلام ، حتى المنيرة البيضاء ، المزدانة بالرسومات الرائعة ، حيث يجلس للوم ، خيوط من نظرات الرجال المحيطين بمنزل للوم للوم في سعادته ، ينسى انه عمل في حقول الناس باربعة قروش في اليوم ، ايام بطولها . قضاها محنى الظهر ، الخطوط بلا نهاية ،

يستعد خط الافق كلما قنرب منه . والشمس الحارده . تجلد ظهره بسياط لاذعة . سنوات عمره الاولى . الجراح في الجسد والقلب . الامنيات المستحيلة لتحقيق . رائحة التخبذة في بيوت الفلاحين . تملا خيائيسه في ليالى الحرمان ، شكل النقود الذى لم يكن يدركه جيدا . قلب اجنياب اربع مرات ، قال للوم لاهمه . ليلة الامس : ان اهل السوالم كلهم كلاب : نظر من نافذة حجرته ، وكان الوقت مساء . نادى اشجعهم ان يخرج انبه . وسيقطعه الف قطعة . قال لاهمه : انه كثيرا ما كان يسخر من حب الدين : عندما يتكىء على افريز الجسر . ناظرا الى كل شيء في صمت . قال لاهمه : انها لا بد وان تنعم بحباتها : لا بد وان ينقم من ايام الجوع والعري . كثيرا ما بكت امه . قالت انها لا تصدق عينيهما : ما تراه امامه كثير . كثرة النقود تخيف مثل قتلها . قالت له . ذات ليلة شتوية : النقود هي كل شيء : الانسان يستطيع ان يشتري بها البسمة على الشفاه . والدمعة في المآقي : رجفة الحب في حبات انقلوب ، النقود به النقود : ثم النقود .

— هود يعيب الراجل الا جيبه في الرمان ده . .

قام للوم : احضن امه . قبل يدها : قال لها : آمين . وقال انفسه . ان كل شيء ممكن في هذه الايام .

قال ورداني : دا الواد لقي لقيه .

قالت سلسيله : راجل ولا كل الرجاله

قال حب الدين : ازمن دا زمن الكلاب ، زمن السرقة والفسر والخداع .

قال العمدة : لازم اعرف دا حصل ازاي : الفلوس دى جت منين ؟

قال ابو السعد : اسمعوني ، كلكم مجانين : الحكاية انا الوحيد الذى اعرفها . سحكى لكم الحكاية من اولها : اصلها وفصلها ، الناس اسرار : والفضيحة مكروهة من جميع الناس : ما حدث مع هذا الولد : جعل القلب يفيض ، السكوت حرام . يقول ابو السعد كان من عادة امه : بعد وفاة ابيه ، ان تذهب الى منزل الصراف في نكلا العنب : تكنس وتفسل وتمسح ارض المنزل ، تروى الزرع في الحديقة : تلاعب الاطفال الصغار ، تشتري الخضار والفاكهة من السوق والجرائد اليومية من كفر عوانه ، هاتى ميه يا ام للوم : حاضر . اغلى : حاضر ، اطبخى : حاضر ، اكوى : حاضر :

قشرى البامية ، حاضر ، خرطى الملوخية ، حاضر ، نشى الطير ، حاضر ، افلى الشبايك ، حاضر ، سوى السرير ، حاضر ، هوى اوضة الجلوس ، حاضر ، امسحى الخشب ، حاضر ، اروى الزرع . حاضر . حاضر . حاضر .

الرجال يتحدثون ، الموضوع حكاية للوم . الفنى والفقر من اهم الامور في حياتهم ، وحدوثها امر لا يمكن ان يمر بسهولة على عيون وآذان الناس . وتجرح اصواتهم رداء الليسل ، ويتنفسون مع الكلمات رائحة الايام الفارغة ، وجفاف الاراضى في الحقول . لا بد وان يحضر النبى الذى تحدث عنه سيدنا الفريب في كتابه الذى لم يعثر عليه احد . يبدأ ابو السعد حكايته في الظلام . والرجال لا يملكون سوى الانصات . يقول ابو السعد ، وقد لمعت عيناه ببريق ابيض : كانت تذهب في الصباح ، وفي المساء تجر قدميهما على الطريق الخشنة ، فتتصور انها ربطت بمسامير ، تحاول ان ترفعهما ، فلا تقدر ، انها متعبة ، امرأة هدها العمل : تريد بكل ما فيها من امياء ، ان تنام في اى مكان ، لا بد وان تعود الى السوالم . احببانا كان الصراف يطلب منها ان تبني نندة ، في نكلا العنب ، بدلا من الذهاب والعودة كل يوم — للوم لوحده يابيه ، دا عيل وبنيهم . كانت تعود .

معهما بقايا اكل ، ملابس قديمة ، لقم مكسرة ، ذات مساء قبل ان تعود ، وجدت خزانة الصراف مفتوحة . اوراق النقود الخضراء والحمراء تملا الارفف ، المفاتيح بجوار الخزينة ، رائحة النقود تمبق انفها ، رائحة تعرفها جيدا . وقفت مكانها ، شعرت بنميل في اطراف اصابعها ، سمعت دقات قلبها ، احسنت بدقات القلب ، على جدار صدرها الداخلى . مدت يدها ، لمت اصابعها ، استدارت ، كان الهدوء والصمت والسكون والجدران واسوافد وباب الخزينة المفتوح ، يهيب بها ان تفعل ، تمد يدها ، بدلا من هذا الموقف البليد .

— يارب .

رفعت عينيهما نحو السماء ، عبرت ذهنها الف فكرة ، رفعت يدها ، امسكت رأسها المشتت ، تذكرت كلمات عن الامانة والمعصية والسرقة ، وسما الله العالية ، والحساب ، رات بعينيهما مثمنة سيدى الفريب : تظعن الفراغ مشيرة نحو السماء المغسولة

بالحنين والرحمة ، أوشكت أن تتراجع ، تغلق الباب وتعضى ، انصراف يقول عنها انها امينة .. الامانة من أهم الفضائل في بنى الإنسان جميعا ، تذكرت المنزل الصغير ، ذهاب للوم ، حبة العين ، الى حقول الناس ، العودة في المساء ، الملابس المرقعة ، مساحات اللحم التي تبدو من تحت الخرق ، أنوم بلا عشاء ، الاكل والشرب بحساب ، السطح الاجرد الذي لا يغطيه عود حطب . الفرن الذي لم تفتح فيه النار منذ ستة أشهر ، قبر زوجها الذي لم تذهب اليه منذ أن دفن فيه ، لعدم وجود ما تذهب به . في لحظة خاطفة مدت يدها ، أخذت ما استطاعت أن تأخذه ، لفته في ملابسها ، خرجت ، أصابتها رعشة ، سألها زوجة الصراف عما أصابها ، جسمها مازال يرتعش ، وعيناها تدوران ببطء ، قالت انها متعبة . في المساء ، عادت الى البلد . وفي اليوم التالي ، أتى من فتش دار أم للوم ، بعد التفتيش ، أخذوا أم للوم وللوم معهم الى المركز . احتجزا هناك . وبعد اسبوع ، عادا الى البلد .

أظهر التحقيق ، انه من المحتمل ، أن تكون أم للوم أخذت النقود ، كل الشواهد تشير الى ذلك ، عدم وجود أدلة ، وعدم العثور على شيء عند تفتيش المنزل ، أقوال الشهود لا تعد شاهد اثبات أو نفي ، ما قاله الشهود ، نوع من التخمين . أخذت أم للوم - يقول أبو السعود للرجال - النقود كلها ، الله وحده سبحانه وتعالى ، يعلم كم مقدارها ، من حقنا أن نتصور ، ماذا سيكون في خزانة الصراف ، وقت الحصاد ، وتكلا العنب ليست بلدا صغيرا أم للوم ، يوم أن حضرت من تكلا العنب ، لآخر مرة ، وهى معها النقود ، كانت تسير ببطء ، تقدم قدما وتؤخر أخرى ، تستغفر ، تطلب الرحمة من غفار الذنوب ، تذكره بما آلت اليه الحال . جلست بمفردها في منزلها ، وبعد أن نام الجميع في السوالم ، وانطفت نجم الليل ، وهبت نسيمات الهواء الليلية ، ذهبت أم للوم ، ومعها ابنتها ، الى المعلم يعقوب في منزله ، كانت قد أرسلت للوم سرا اليه ، قال له : أن أمى تطلبك في امر هام . وعندما أبدى استعداده ، قال له : أن أمه ستحضر بعد انتصاف الليل . على باب منزل المعلم يعقوب ، نقرت أم للوم ثلاث نقرات ، فتحت الباب ببطء ودونما صوت ، دخلت بجانبها ، مرقنة بسرعة ، وعلى ضوء شمعة خائية ، في الحجرة الداخلية ، تم الاتفاق ، أفهمها ماذا تقول ، ماذا تفعل ، وطلب منها أن تنفذ كل شيء بدقة .

يقول أبو السعود : الصراف دخل السجن ، كان المبلغ كبيرا ، زوجته قررت الرحيل الى بلدها عند أهلها ، وقبل السفر ، كان بها مطلب واحد ، حضرت الى السوالم ، زهرة وذبلت ، ولكن رانختها ما زالت بها ، أنها لا تطلب سوى يمين الله من أم للوم ، بعد المنازعات والاخذ والعطاء والخوف من اليمين ، وسؤال الشيخ محمود ، قامت أم للوم ، استنحمت ، وضعت ابنها تحت يمينها ، ثم حلفت اليمين في الباحة الواسعة ، أمام دوار العمدة .

الرجال يمصصون بشفاهم ، أبو السعود يقول لهم : انها بعد أن حلفت اليمين ، ذهبت الى منزلها ، دخلته ، ولم تخرج منه بعد ذلك أبدا ، نزلت عليها النقطة ، وانها الآن لا تستطيع الحراك . السال والمنزل الجديد والجاه ، كل ذلك لا قيمة له أمام المرض الذي اقعدها في الحجرة الداخلية ، يشير أبو السعود الى السماء ، التي لا يبدو منها ، في هذا الوقت سوى النجوم « الله موجود » .

الرجال في حيرة ، وسيظل ثراء للوم أمرا محيرا ، الرجال يقولون انه الحظ والشظارة ، البعض الآخر يقول انها تقود الصراف ، والبعض الثالث يؤكد انها لقية ، تقود من الذهب كانت مدفونة تحت منزلهم القديم ، وجدوها بالصدفة . يتفق الرجال على امر واحد ، المعلم يعقوب هو الذى دبر الامر كله ، يده هى التى صنعت كل ما حدث . المعلم يعقوب لا يفعل هذا من أجل سواد عيون أم للوم ، ولا من أجل للوم ، ولكل شيء ثمنه .

يقول فتحي سالم ، تعليقا على ما حدث : أبدا ، الكتاب الذى كتبه سيدنا الفريب عن السوالم ، فى الصفحة الاخيرة منه ، أن الايام القادمة هى زمن المعجائب ، سيحدث فيها للسوالم ، عجائب سبع ، وبعدها تقوم القيامة . المعجبة الاولى ، ثراء للوم المفاجيء ، والمعجبة الثانية ، عشة سلسيله وحب الدين .

- اللفندى الباشمهندس ، المعجبة الثالثة .. يشير الى خيام المهندس النائمة فى أرض الوقف ، والرجال الجالسون حوله يحسبون فى عقولهم عدد المعجائب ، ويصبح احدهم : باقى أربع عجائب أخرى ، كى تقوم القيامة .

للموم يجلس امام داره ، على دكة من الخشب ، واضعا ساقا فوق ساقي ، وقد قرر ان يتعاون مع المهندس . وعده المهندس بالكثير ، مرتب ، منصب ، مكتب ، سيارة ، مستقبل عريض . قال للموم للذين أرسلهم له العمدة ، كى يمنعه من التصاون مع

المهندس ، انه حر فيما يراه ، هددهم باحبار المهندس ، مصلحة
البلد تفرض عليه ان يتعاون مع المهندس ، وانه ان امتنع سيقوم
اي فرد اخر بدئك . وان يتعطل المشروع . في الايام الاخيرة ،
اصر للموم على ان يتاديه الكل ، بسيادة المدير العام ، دون ذلك
دنى اوراقه ، وعلى باب منزله . وارجا كل مشروعات عمال
التراجل التي كان يستعد تنفيذها . وراح يقضى ايامه البطيئة
المزور في انتظار المشروع الجديد . قال : انه لا احد يعرف اين
يكون الخير . ان عيوننا لا ترى ، ولذلك فمن الصعب معرفة النافع
من الضار .

تصور الرجال هنا . ان سلسبيله هي اسعد خلق الله .
سحق واحد ، في السؤال كلها . تعرف ان سلسبيله كثيرا من
سكى في الليل . تقول له : انها ليس وراءها ما يحيف . لم يكن
هناك رجل يجري وراءها . يسأل عنها . يطلب رقبته . يدور
في بلاد انه الواسعة ، بمسك سكيت يربص بها . بين المزروعات
وخلف الابواب وعلى نواصي الحواشي . كي يمسح الخطأ والابه
واجراح . تقول لحب الدين . وهي تبكي : ليس هناك ما يستحق
الموم . وانها تنتظر مشروع المهندس ولولاه لركت السراويل .
ونها لا تطلب منه سوى ان يترك البلد معها ، فهو خسارة ، الدنيا
واسعة . يدها على كتفه . ستضعه تحت رمش العين . وفي بلاد
انه الواسعة سيجدار الكثير . قالت له : انه لم يجرب ان يكون
وحيدا ، لا اهل ولا اصحاب له . قامت انها لم تشاهد اولادها
مند سنوات . تختم حديثها بالبكاء . تحمر العيون ، ويبدو لحدود
منورمة ، وفي الصباح . تفصل بندي العجر دموع ليلة الامس .
وتحاول ان تفنى .

ولدت في حارة قديمة ، متفرعة من شارع محمد علي ، بجوار
باب الخلق ، اسمها في شهادة الميلاد ، عطيات . واندها طفال ،
يقول عن نفسه : ضابط ايقاع ، اما امها التي لم يرها ابدا ، فكانت
تعمل راقصة .

احبها ابن الجيران . كانت صغيرة . ايام البراءة المفقودة ، في كل
مكان ، في الحارة ، على الناصية ، امام دكان ابقالة ، عند بائع
الفول ، داخل محل الكشري ، كانت هناك عينان في خضرة
الترسيم ، تحدقان فيها . تبعثان لها الوعد والامان ، عيناه ينسوع
حزن ، متاهة . قرأت فيهما اشياء رائعة ، الزواج ، الراحة ،
الاستقرار . كان صبيا صغيرا ، اقرب الى الطفولة منه الى الرجولة .
قالت لنفسها ، وهي تبسم له : ضل راجل ولا ضل حيطه .
كانت تعيش بمفردها مع ابيها . كرهت الحياه . والحجرة الضيقة
والسطوح والشمس التي ترهقها كل يوم . غير انها احبت اباها .

في المساء ، حملت صورة والدها ، وقفت بها فوق أعلى مكان في سطح المنزل ، صورة قديمة ، تكسر زجاجها ، لا يبدو منها سوى شارب كث ، يقف عليه الصقر . يقول لها والدها : ان هذا الشارب ، من أيام الريف ، أيام الصلابة والعناد ، ذابت في شارع محمد على أشياء كثيرة . تحول ابن سنته الى رجل يرقص بالطلبة كاللمبان ، وتتلوى زوجته امام عينيه طوال الليل بين الرجال . قال لابنته ان امر ما في الدنيا هو لقمة العيش . قال : وكان لسانه ثقيلاً من شدة السكر : لماذا لا يخلق الناس بلا بطون ، وهل من الضروري ان ناكل ونشرب ونلبس ؟ لم كل هذا ؟ حملت سكر صورة والدها ، اشارت الى وجه ابها ، ان كان يريد لها ، فعليه الحضور الى منزلها ، لا تعرف اللف واندوران ، نليه ان يكلم والدها ، ومن ناحيتها هي متوافقة . كان خشب الصورة القديمة ، يضغط على حلمتي ثدييها النافرتين . احسّت بأن شيئاً ما ، قد ثبت بداخلها ، اكتشفت ان مساحة صدرها عريضة ، وان الامور قد تغيرت ، فرح عصمت ، اشار الى سماء الله العالية ، وقال ان نجوم الليل شهود على ذلك .

تقول سلسبيله لحب الدين ، وهي حزينة : كان هناك رجل كهل يتابعها ، لم تكن تعرف عمله ، كان في الجسد رعشة ، وفي القلب خدر ، وفي الصدر وحشة . لم تجد من تخبره ، سألت الجارات عن عمل الرجل الكهل ، ابسمن ولم ترد واحدة منهن عنها بما يفيدها ، فادركت ان في الامر سرا ما . وعندما كان يسير وراءها ، كان يلد لها ان تسرع في سيرها . الرجل يجري خلفها ، وصوت تنفسه يصل الى اذنيها شديد الوضوح ، أحياناً كان الرجل لا يستطيع السير ، فيجلس على أقرب مقهى ، ينتظرها حتى تعود .

سلسبيله بنت جميلة ، قالوا لها : انها يوم مولدها ، كانت طفلة رائعة ، اختلف ابوها وامها على اسمها ، كاد الامر يصل الى الطلاق ، تدخل اهل النخيل ، اقترحوا اقتراحاً ، ان يدون في شهادة الميلاد ، اسم غير الاسمين ، ثم تنادى بالاسمين معا . قال والدها : انه سيسمياها باسم امه في البلد ، ورفضت الام مرة اخرى . واصبحت لها ثلاثة أسماء . تعيش مع والدها ، فوق سطح احدى الممارات القديمة . سلسبيله تعود ذات مساء ، لتجد حجرتهم الصغيرة مرتبة ، السرير السفري فرشت عليه ملاءة

نظيفة ، وعلى الارض حصيرة يجلس عليها والدها ، ومعه الرجل الكهل الذي يتابعها كثيراً من قبل .

— سلمى على عمك علوانى يا سكر .
— بس لو ما كنتش تكبرنى يا ابو سكر ، عمها ايه .
بعد الرجل لها يده ، تسبقه بسمة خربة . يسلم عليها ، يحتوى كفها البضة بين يديه . يجلسون ، الليالى . بعد ذلك ، هي ليالى الرجل الغريب . الرجل ينطق بسخاء . ووالدها يشمر ان طاقه القدر فتحت له ، وان الدنيا استجابت لدعائه اخيراً .
— يا سكر وافقى بقى .

احسّت بالهوان ، قالت ان ذلك لا يمكن ان يحدث ، تذكرت النسب اصغير ، عينيه ، شبابه ، مستقبله . وذات مساء ، وهي في طريق عودتها الى المنزل ، شمت رائحة اللحم ولسمن المحرووق على الحارة . فقررت ان توافق . لا تدري الآن سبباً واحداً لذلك عادت بسرعة ، صعدت درجات السلم المتأكلة ، أمسكت بالدرازين الخشبي عندما اوشكت ان تقع ، كان والدها ينام في السرير على صهده . السرير منخفض من المنتصف ، ولم يكن يبدو اى شيء منه . عناءه يحدق في سقف الحجرة . اقترب منه ، جلس بجواره على السرير ، راحت تنظر اليه ، ادركت ، الى اى حد ساءت الحال .

— خلاص يا بابا امرك ، اتجوز على علوانى .

علم عصمت بالخبر ، جرى خلفها ، وضع في يدها ، في غفلة من العيون ، ورقة زرقاء مغموسة في دموع العين . لم يتكلم ، لم تر وجهه « اهلى له موافقوا ، ما زلت تلميذاً في المدرسة ، عندما شمت والدى . لم تستمع الى باقى كلامى : وامى في ترب الفقير . والايام صعبه ، ساهيم وحدى كثيراً في حوارى الحلمية الجديدة ، لسنا امامنا سوى التسليم : ساهواك حتى تجف الدموع في العين »

تزوجت ، في ليلة الفرح ، كانت البيرة تسد عين البحر ، الاكل ، الشراب ، الرقص حتى الصباح ، الرءوس الدائخة ، يقدم لهم والدها حجر الجوزة ، به المعسل فقط .

— امضى باسئ العلمات .
تضع ما في يدها في منتصف الحجر ، وهي مغمضة العينين ، ضحك الرجال .

— ابن الول عوام .

- ولعى باست سوسو .
تتميل الرءوس ، وترقص الاجساد ، وتدور الغابة بين الافواه ،
تمتد الاصابع دون وعى ، تمسك آخر الغابة ، تدسها بين الشفتين
- كانت ليلة ولا كل الليالى .

تقول سكر : ان عمها علوانى ، انفق كثيرا فى هذه الليلة ، وان
الذين كانوا حولها ، منوها بالميراث ، واستمعجوا موته . قضت معه
ليالى مترمة بالاسى ، سبحت معه فى بحار العرق ، لا تذكر سوى
النهاية ، تحملته ، منحته كل مايمكنها منحه ، أنجبت منه بطنين ،
ولدا وبنتا . البنت فى حلاوة أنشهد ، لا تعرف أين هى ؟ طلقت
من علوانى . فى حياة سلسيله أشياء كثيرة ، لا تحب ان تذكرها ،
وعندما تحكى قصة حياتها لحب الدين ، فانها تمر عليها سريعا ،
يتوقف حب الدين امامها ، ويعاود السؤال عنها . تقول له : انها
لا يعجبها هذا التدقيق فى امور عادية . تكمل ، ما أهمية السؤال
والجواب ما دام الامر قد مضى ؟ يرد عليها ، بصوت هامس : ما
فائدة السؤال والجواب ، ما دام الموت هو نهاية كل النهايات .

الطلاق ، شارع محمد على مرة اخرى ، الليل ، الحجرة
الصغيرة فوق السطوح ، ذكرى ليالى علوانى ، لهفة الجسد ،
والحنين الى صدر رجل حقيقى ، تذوق مرارة خيبة الامل كل ليلة
الحوارى ، الشوارع ، الحارس المتعب المكدود ، النوم يرف فى
انميون كطائر حبس يود ان ينطلق ، نساء شارع محمد على .
الاصباغ والالوان والبسمات المترنحة على الشرفاه والحدود
والحواجب . السكرى ، محاولة تصيد كلماتهم المتناثرة مع هبات
الرياح آخر الليل . نظرات الرجال . والدها لا يحضر الى الحجرة
كثيرا . وقال لها زملاؤه انه يعيش مع راقصة فى شارع كوت بك ،
لم تهتم بالامر . قالت لهم : انه لابد وان يعود الى هذه الحجرة
فات : انها لا تحب هذه الحجرة ، وانها لا تقدر على البعاد عنها ،
وان امرها غريب ، فهى المكان الوحيد ، الذى يدوم لهم فى
النهاية . سكر لا تذكر كيف كانت تقضى الايام والليالى . تجلس
وسط الحجرات المتناثرة ، فوق السطوح طوال النهار ، تتحسس
حسدها ، فتشعر سخونة وفوران ينبعثان من الداخل ، تحن
الى شيء ما ، لا تعرفه ، تحدث نفسها . شكك سوء الحال لاحدى
الجارات . قالت لها الجارة : ان الحال عندها أسوأ . ووعدها
بعمل ما يمكن عمله من أجلها .

ذات مساء ، طرق باب حجرتها شاب صغير خجول ، مربك ،
ينطق الكلمات كاملة الاحرف . أحسنت انه ما زالت به رائحة
النفوثة ، لم يكن قد حلق ذقنه بعد ، ذكرها برائحة ابنها الذى
لا تعرف مكانه . قالت لنفسها : الشاب غريب ، أمه ليست هنا
حتى تفصل عنه غبار الايام ، بعد انتصاف الليل ، وضع بحوار
سريها كل ما كان معه ، النقود والاوراق والمواطف والاحزان .
تذهب الى الاسكندرية ، تغنى ، ترقص ، تشهد نجوم الليل على
مهد والاحلام . يبحث عيناها عن عصمت ، تتحسس اورد
الزرقاء التى تحمل رائحته ، والتى ما زالت تحملها معها . تقول
لنفسها ، فى ليل الاسكندرية : انبا فى ايام شبابها الاولى ، احب
شاب صغير ، لا تذكر حتى اسمه .
- اسمه ايه يا سكر ، اسمه ايه يا سكر .

رفضت الخروج معه ، قال لها : انه سيقتل نفسه ، ضحكت
عليه ، وذهبت الى منزلها . ضرب نفسه بالنار ، أنهى الامر بيده
سكر ، انت قضائى وقدرى . كانت الورقة ملوثة بالدماء ، لقاء
بحوار جثته .

عاشت سلسيله فى الاسكندرية ، تقول لحب الدين : كان امام
منزلها مسجد صغير . الاذان هو كل ما يربطها بالناس . تذكرها
مرور الايام والليالى . يومها يبدأ فى منتصف الليل . وينتهى فى
الثانية بعد الظهر . الحياة كالحلم الثقيل ، والنوم كالغشاء ،
البقعة الحارقة استعدادا للنوم . يأتى الرجال سكارى ، مهزومين
تقدفهم السفن والبحار والبلاد البعيدة ، يشربون الدفء المعطر ،
تذوب كلماتهم مع صمت الميل ، تقف عيونهم بالجسد الابيض .
دمعون ، وعندما كانت تنام ، فان صورة الشاب المتحرق . تلى .
تملا عليها الحياة ، تصحو مفزوعة ، كرسى ياسوسو ، امضى
يا معلمة ، تضع يدها على الحجر ، وكل الناس غرباء ، تسمع
اسماءهم ، تعرف القابهم ، تسأل عن بلادهم البعيدة التى قدموا
منها ، الامر لايعنيها . ترص المعسل فى الحجر : تسوى كل شيء
باصابع يدها .

- ولعى الحجر دا يا احسن سكر فى العالم .
يخرج الدخان ، ومع لحظه خروجه ، تذكر ان كل شيء فى
الحياة ، يتساوى . سلسيله تقول لحب الدين : لم يكن معها
ما يستحق المحافظة عليه وأضاعته ، لم تندم لحظة على شيء

أرطت فيه . أصبحت في الأيام الأخيرة ، لا تذكر حتى وجه أبيها ، أب شكل أمها . وحملت ذات ليلة ، ب وفاة والدها ، واحتراق أمها ، بسبب لاتدريه . وبن أولادها يحوضون معركة الاسلام الأخيرة ، في مكان ما . من الدنيا . تقول سلسيله : انها لفت ودارت في بلاد الله الواسعة ، كي تقابل حب الدين في النهاية ، تل ما يحدث لنا ممدد ومكتوب حتى قبل أن نولد ، ومهما جرينا نرهننا بفضنا ، فلن نحصل على أكثر من نصيبنا . أن الأيام تقضيها بالطول وبالعرض ، وبأى شكل كان .

في دمنهور ، التقت بحب الدين ، لا تذكر سبب وجودها في دمنهور ، كانت تلبس بدلة الرقص ساعتها . اقترب منها ، لف وراءها البلد ، قال بصوت عال : أنه ابن عمدة ، وأنه بلا عمل ، وسيلف وراءها القطر المصري كله . كان يرتدى جلبابا من الصوف الغامق . على الكتف عباءة ثمينة . وفي اليد جريدة . وعندما وجد نفسه معها بمفردهما ، قال لها دون لف أو دوران :

— اسمعى يابت ، ما تبجي معايا البلد .

— بلد ايه يا ادلعدي .

— السوالم ، قبلى وبحرى .

— واسم الكريم ايه أن شاء الله .

— حب .

— ايه ؟

— حب الدين سرحان .

استراحت له ، قالت لنفسها : قد يكون بر الامان ، حضرت معه الى السوالم ، سلسيله تقف على باب العشة ، وهى تدرك ان الليل موحش لحد الموت ، تنحس انظلام بيدها ، بصحك يفرق في الضحك . السوالم تشرب ايلها الاسود على مهل ، وسلسيله تضحك ، تقول لنفسها ، وهى تجمع اشيائها :

— الضحك على الشفاتيح .

والقلب يصبغ مناديل .

انها تدرك ان كل رجل في السوالم ، يتمنى ان تمنحه نظرة ، برمى عليه السلام ، تطالب منه خدمة . خيوط النظرات التى تربط بينها وبين عيون الرجال . ليست سياطا من الرغبة ، بل هى نوع من الآمال يلغها بداخله . كان ذلك يسعدها بالليل ،

وكانت تقول : أن كل شيء هنا تحت أمرها ، وما عليها الا أن تسير بأصابعها فقط .

سلسيله تجمع اشيائها من العشة ، وفي نفسها خاطر محدد ، بان أيامها انتهت ، الحياة في السوالم انقطع عيشها . كانت الأيام ، أياما ميتة . وفي السوالم ، جدلت من الانتظار حبلا طويلة ، علقته في السماء السابعة ، وصعدت عليها ، وهناك لم تحد شيئا العشة خالية ، وأذان العشاء لم يصلها بعد من فوق مئذنة سيدى الفريب ، الرجال الذين ذهبوا الى المهندس لم يعودوا الى العشة . اطفأت الكلوب ، حملت القفص . الشارع الرئيسى والحارات . قالت لنفسها : أن تغيير نظام الحياة ، آذن بانتهاء كل شيء .

في البيت ، الوحدة والصمت والضوء الخافت . سلسيله تتحرك في الحجرة الصغيرة ، ومن يشاهدها يكتشف ، أن سكر الفاتنة ، التى ملأت قلوب الرجال بالوعود ، تسير الآن في حجرتها الصغيرة ، كامرأة كهلة ، تقدمت بها الأيام ، تشعر انها لا بد وان يفعل أى شيء ، الأيام لم تعد تطاق في السوالم . في البداية ، تحملت الفراغ ، انحوارى الجرداء ، البيوت الطينية ، الناموس بالليل ، التوم على الارض ، وقالت من أجل ميون حب الدين ، يهون العمر كله ، لكل شيء حدود . الرجال يمررون في الحارة أمام انبيت ، يشاهدون البيت مضاء على غير العادة ، وفي الداخل ، كانت سكر تنام ، تتحرك ، تعرك يديها ، تعانى هما غريبا . قامت غيرت ملابسها ، تزينت ، وقفت طويلا أمام المرأة ، أطفاسات المصباح وجلست في الظلام . حب الدين لم يعد ، انه مع المهندس في الخيام ، وهى تنتظر عودته . قالت لنفسها : كار ايا عصب . احبته في الزمان القديم ، ومن بعده ، فار اقلب قدمات ، كل ما يحدث لها من حلاوة الروح ، وحب الدين ، هو الذى ايقظ الاشياء بداخلها ، كانت تقول : أن المولى لا يطلبون سوى انكفن وللحد والرحمة ، غير انها اقتنعت بعد ذلك بحب الدين .

وبعد حضورها الى السوالم ، قال لها حب الدين : انها هنا زوجته ، ويجب ان تعامله على هذا الاساس . قالت ان الكذب هو أحلى ما في الحياة ، نعمت بالوهم . أحست ان الحجرة خائفة صعدت الى سطح الدار ، انها نادرا ما تصعد اليه . وفوق انسطح كانت السماء والنجوم ، قالت لنفسها : فلنحلب نجوم السماء ،

ومن حليتها نمجن تراب الأرض ، نضع فيه حصوات ملح قليلة ،
ونصنع منه لقيمات مكسورة ، مغموسة بالاهانات ، نأكلها معا .
فزامن النزوج قد حل أخيرا .

هبت عليها نسمة هواء ، حملت اليها رائحة الأرض الشرائق ،
والاشجار الخالية من الاوراق والزهور ، لقد أدركت ، معنى ما
يقوله الرجال في العنة أحيانا . ان الأيام التي نمر بها السوائم ،
هي أيام الجفاف . يكمل الرجال ، أن أيام الجفاف قد طالت
هذا العام .

يحكى انه حدث في قديم الزمان ، وسالف العصر والاولان ، ان
كان في بر مصر ، أم الدنيا ، ملك من ملوك الرمان ، له هيبنة
وصولجان ، وجند وأعوان ، وان هذا الملك قد دان له كل شيء ،
الأرض والناس والبلاد وأزمان ، وان الناس قد تفنوا به ، وقالوا
هو المخلص ، الذي جلبوا به منذ آلاف السنين ، ثم انهم عبده .
حدث ان ابي رجل من فاح البلاد . رجل طيب القلب . جميل
الحيا . سمح الخلقة . كانت الشعيرات البيضاء ، تجلل رأسه .
دل الناس عنه . انه حكيم الزمان ، انه معجزات عظام . يقرأ
الغيب ، يتنبأ بما سيكون ، يعرف ما يدور في الخاطر ، يطل على
الأيام القادمة ، اتجه الحكيم الى قصر الملك ، وكان القصر مبنيًا
على مكان مرتفع ، وهناك ، فرش حصيرا صفيرا ، وجلس عليه .
سأله الحراس عن سبب جلوسه امام قصر الملك . قال : ان الملك
سيرسل في طلبه ، متى آن الاولان ، وهو هنا جالس حتى يطلبه
الملك ، سيجلس حتى آخر أيام العمر . في اليوم السابع : ارسل
الملك في طلبه فتعجب الناس من امره ، ثم ان الحكيم ، الذي كان
يعمل فلاحا . في أول ايامه ، تقدم نحو الملك ، وقبل الأرض بين
يديه : « يا ملك العصر والاولان ، اب الذي سجل الناس في كل
مكان احسانك ، لك عندي نصيحة ، ان اخفيتها عنك ، اكون ابن
رأى ، وان أمرنى ان ادبها لك . لا اطلب منك سوى منديل
الامان » . رضى الملك له منديل الامان . قال له : وما نصيحتك ؟
قال : ايها الملك الجليل ، لقد قال لنا القدماء ، ان من لم ينظر في
العواقب ، فما الدهر له بصاحب ، الملك عسى تغير صواب . الملك
انزعج ، واصل الاستماع . ان قوانين قاعة العدل ، قد افر بها ،
تدوسها الناس بالاقدام في المحال العامة ، الرجل يضرب اخاه ،
فما العمل . انظر ، الرجل يذبح وهو بجانب أخيه : اتحدث
اليك ، فهل تسمعنى . اقول ان المتحلي بالفضائل يسير وهو
محرور لما يحدث ، انهم يقولون : ان العداوة مبرجودة باسمها
اعلم ياسيدي ، ان الملك اذا جعل الناس بخافونه ، دل ذلك على
ضعف . يقول ابو السعود : الحكيم قال للملك : « في حال تجد

عليها البلاد الآن ، اوصيك بأمر واحد ، لا تغلق قلبك أو عينك أو أذنك ، وفي مصر الآن ، يزداد الاغنياء غنى والفقراء فقرا . ومن جديد سنسمع عن ائذن يقضون ليلهم بغير عشاء . فهل يرضيك هذا .

سمع الملك ما قاله الحكيم ، امر بتاجيل الموضوع ، في الصباح ، صاح الملك بالسياف ، اضرب رقبة هذا اعداء ، ارحنا منه ، ومن سره ، امرك يامولاى ، يقول ابو السعود : ان اهل المدينة شاهدوا في العصر ، رأس الحكيم ، معلقة على باب القصر ، فتعجبوا من احوال زمانهم .

ابو السعود ، رجل طيب ، بعد الاربعين بقليل ، حرم نعمة الحياة الهادئة . لم يتزوج الا منذ سنوات قليلة ، ينتسب الى اباء كلهم من اولياء الله الصالحين . يقول ان عائلته فرع من عائلة سيدى الغريب . وان سيدنا الغريب ، قد زاره في المنام وهو شاب صغير ، قال له : اصبر على الظلم ، فلن يدوم اى شيء . قال له : انه سيقف بجواره في نهاية الامر . ابو السعود متزوج من امرأة عربية ، اب لاربعة اطفال . يوم ولدته امه : سموه مسعد ، قبل للناس في البلد ، انه بنت ، خوفا من الحسد ، ولم يكتشف امره الا بعد ذلك . لا يعرف احد ، من اين يعيش ابو السعود ، يكاد يستدين المال من كل من يلقاه ، حتى من المعلم يعقوب ، رغم انه لا يرد ما عليه ابدا . يستعذب الحزمان : ونادرا ما يشكو حاله للناس . اسمر اللون ، حلو التقاطيع ، في اصابع يده خواتم نفصوص زرقاء وحمراء ، يضع في قدميه «بلغة سوقى» ، يقول عنها رخيصة وخفيفة . يحمل في صدره كلمات الله ، لا يكره احدا . يحبه كل الناس ، محفظته فارغة دائما . كل دور البلد داره . كل حقول البلد ارضه ، انظف من الصينى بعد غيبه . غير انه يعود ومعه من خيرات الله الشيء الكثير ، لا يكره في البلد سوى الشيخ محمود .

الرجال يجلسون في حلقة واسعة حول ابو السعود ، اول مرة يجلسون فيها بعد حضور المهندس ، شغلهم مرضوخ البئر . شاهدوا ابو السعود ، امسكوا به ، حلسوا حوله . لم يشأ ان يحدثهم عن البترول والبئر والمهندس ، اختار ان يعبد الى اذهابهم هذه الحكاية القديمة . حكايات ابو السعود لا تنقطع ، وفي كل مرة ، يتساءل الرجال : من اين يأتى بهذه الحكايات . الكل

يعرف ان ابو السعود عنده في منزله صحارة قديمة ، فيها كتب صفراء ، ورثها عن ابيه ، ويقول الناس سرا : ان الكتاب الذى افه سيدنا الغريب ، عن السوالم ، موجود في الصحارة ، ابو السعود يحتفظ به لنفسه ، لانه يعيش منه ، ولا بد وانه يوى ان يعطيه لابنه من بعده ، هو سر الاسرار بالنسبة له ، ولعائلته كلها . قد يخافون من لسانه ، يعملون له ألف حساب ، ولكن احدا لا يستطيع الاستغناء عنه .

ابو السعود ليس شيخا ، وان كان يلف رأسه بعمامة ، وينسق ذقنه بعناية ، انه حليق الشارب ، وذقنه تبدو كخط دائرى شديد السواد ، جلبابه أزرق غامق ، لم يغير لونه . ابوالسعود ، هو مستودع الاسرار في السوالم . الناس تقول : ان ابوالسعود وجد في اكثر من مكان في وقت واحد . يقسم الرجال : انهم شاهدوه ذات مرة على الجسر ، وامام دكان المعلم يعقوب ، وعند دوار العمدة ، في وقت واحد . ومن يومها ، وهم يقولون في السوالم ، اكثر من «ابوالسعود» . ابوالسعود لا يذهب الى المسجد رغم ان الناس تناديه : يا فضيلة الشيخ ، انه يقول : انه اولى بالمسجد من الشيخ محمود ، فهو الوريث الوحيد للامامه في البلد ، العدل والظلم مسألة تحيره . زمن عجيب ، وهو يشق ان سيدنا الغريب ، هو الذى سيفصل في المسألة ، سيقوم من نومه ذات صباح ، ويتولى الامر بنفسه .

في كل مساء ، يجلس ابو السعود على الجسر ، او في ارض الوقف ، او في عشة سلسيله . يحكى الحكايا ، يقص اخبار البلد ، ويوم يذهب الى المركز ، او تكللا العنب ، فانه يعود ، ومعه حكايا غريبة ، أشياء يقول انها ستحدث ، في الايام القادمة ، وتأتى الايام ، كى تصدق ما قاله ابو السعود للرجال . وعندما يبدأ ابو السعود في حكايته ، فان الرجال يقولون : ان في فمه الف نسان ، وان في رأسه أشياء كثيرة ، وقد يضحك الرجال من كلامه غير انهم يعجبون به ، يطلبون منه ان يستمر في حديثه . يقولون له : ان خير ما في هذه الايام هي الحكايا .

في الصباح ، يخرج ابو السعود من منزله مبكرا ، لا ينام قبل منتصف الليل ، ولا ينام قبل ساعة القيلولة ، لم يمرض ابدا ، ولم شاهده احد من الناس في منزله بالنهار ، يقولون : « فيه شيء لله » ، وان عنده سرا ما من اسرار الحياة . وعندما تحدث في

السؤال حادنه ما . ويصل الامر للحكومة . وترحل من يحق في الموضوع : ويكون الحادث قتلا أو سرقة أو حريق بيوت أو عراكا بسبب المياه . فان انقادمين من البنادر ، لا يباشرهم عملهم . الا بعد سماع أبو السعد . لا يقاطعونه أثناء حديثه . ينصتون له . يسألونه رايه . ويقولون ان رايه هام . يقول عنه بعض الناس : انه خباصر اعمدة . ينقل له كل ما يحدث في السوالم .

أبو السعد . يتحرك طوال النهار ، في الحواري والبيوت . يفسر الاحلام للنساء . يسمع منهن ما يقلنه له . يكتب الوصفات الدلية : يدخل كل البيوت في ابلد . يدفع الباب يقدمه اليمنى . ويدون ان ياذن له أحد : فانه يدخل . يذهب الى دنان المعلم يعقوب . يشرب الشاي والمسل ، يذهب الى دوار العمدة . يدخل حجرة التليفون . يتقى السلام ، يسألهم عن الحال . يجلس على الأرض بجوار الكتبة . يسمع كل ما يقال : ولا يعترض احد في السوالم على وجوده . يقول لهم : ان خير ما في الدنيا . ان تضحك .

أبو السعد جالس على افريز الجسر . ساهم وحزين ، يضع يده اليمنى على خده ، ينظر الى الذين يعبرون الجسر ، ولا يتكلم ونظراته تدور في الاركان بسرعة ، يقترب منه اكثر من رجل .

— مالك يا أبو السعد .
— مافيش .
— مالك يا ولد .
— قلت مافيش . خبر ايه يا ناس .

يحلف لهم بالطلاق ، الاشيا معدن ، الحال عال . حزين بسبب ما . لا يتكلم . يقول لنفسه : مهما حدث : فكرامة الانسان أهم ما في حياته . أبو السعد ، في حكاياه عن السوالم ، لا يباي . لا يقف أمام الكلمات طويلا ، الموضوع عندما يتصل بحياته . يتوقف ، وتظهر من عينيه الدموع ، حب الدين يقول للرجال : ان اولاد أبو السعد في المنزل بدون اكل منذ يومين . وابنه الصفي مريض ، أوشك على الموت . يتعجب الرجال : أبو السعد رغم الضحك والسخرية ، وتناقله الحكايات عن الناس ، فان له قلبا .

وفي الدنيا الواسعة ما يبكيه هو الاخر . القلوب تفيض بحنان دافئ معطر ، وتسكرها لحظات الحب والوفاء النادر . تذهب النساء الى بيت أبو السعد : ومعين الذرة والفصح والدقيق

والسمن واللبن والجبن . أبو السعد يضحك من جديد .
— الشحات له نص الدنيا .

الليلة ، بعد ان حكى أبو السعد للرجال ، حكاية الحميم ، ورأسه المعلقة على باب القصر . يقول لهم : انه يحزن كثيرا على هذا الحكيم ، ويطلب له الرحمة .
— الاذي حصلت والا من عندك يا أبو السعد .
— الا من عندي .

في الكتب كل شيء ، خاصة الكتب الصفراء ، الحكاية حدثت وكل ما يفعله أبو السعد ، انه يحكيها لهم . يقول الرجال لابي السعد : ان لم يرشح نفسه في انتخابات الاتحاد الاشتراكي ، بدون جميعا استعدادهم كي يعطوه ما هو اكثر من اصواتهم . يقولون له : انه يعرف كل شيء ، وخير من يمثل الرجال ، قال لهم اكثر من مرة : ليست له في هذه الامور ، السياسة لها ناسها ، وهو رجل على قد حاله .

الرجال ، بعد عودتهم الى منازلهم المتناثرة في قيعان الخارات الضيقة ، يحاولون ان يستعيدوا ما قاله أبو السعد الليلة . الكلمات تنوء ، فيدركون ان أبو السعد رجل غريب . أبو السعد يكحل عينيه ، وعندما يسأله بعضهم عن السبب في ذلك ، يقول . ان عينيه موجهتان ، والده اصابه العمى في آخر ايامه . من المفروض ان يذهب الى حكيم العيون في دمنهور ، الحال لا تسمح بذلك . يحرك اصابعه . كمن يعد النفود المطلوبة لذلك ، يخاف العمى ، وعندما يرين على الرجال صمت . يتذكرون خلاله ، ان عيونهم جميعا مريضة ، أبو السعد يضحك .

— الله جميل ، يحب الجمال ، والكحل جمال .

زوجته ، الست اصيله ، ليست من اهل السوالم . ذهب في احد الايام الى دسوق ، مولد سيدنا ابراهيم الدسوقي ، ابو اعينين . مكث هناك سبعة ايام بلياليها ، شعر الناس بالشوق اليه ، والى حكاياه وكلماته . عاد وهي معه ، امرأة ناعمة ، نطفي وجهها بطرخة سوداء ، وتسير خلفه . اول مرة ، يعود فيها أبو السعد من أحد الموالد ، وهو لا يحمل قفصه الصغير ، كان ينادي زوجته ضاحكا :

— من هنا ، يا أم أبو السعد .

سأله الناس عنها ، قال انها من أبناء الطريق ، نسل صالح .

اشت أصيله معه على الخير والشر . الرجال في الحقول ، والنساء في البيوت ، يحسدون أصيلة . فأبو السعود في نظرهم ، رجل طيب القلب ، خفيف الدم ، أصيلة صابرة على مآثليته معه ، تأكل يوما ، وتجوع باقي أيام الأسبوع وتقول : كل شيء : يهون من أجل سواد عيون أبو السعود .
أصيلة بخلع الملابس التي كانت تلبسها ، والحناء التي كانت تصبغ يديها وقدميها بدات بحنفي . ولهجة البنادر بدات سلاشي من كلامها . أنها ذهبت إلى الترع . ويعود . ونسباً في الحواري . قال أبو السعود . عن النضر الذي طرا على روجه ، ساحتها : الدنيا قطار قشاش ، لا يترك الراكب راكباً ولا ينسى الماشي ، الحال لا بد وأن تنغير .

أبو السعود لحاد البلد . يحيى الليالي في البيوت . ويرد النساء ذنبن ، بعد اللطم على الخدود وشق الملابس وحلف اليمين الباطل وقول الكذب الأبيض . يمسك الذكر . يحضر الوفاء بالنذور ، يذهب إلى ابتائ البارود ، ودمنهور بالشكاوى المجهولة سرا ، يتصرف فيها ويعود . أحياناً يرسله العمدة أو المعلم بمقرب إلى البنادر ، في مهام خاصة ، يذهب إلى منزل لأم . أبو السعود يداوم على الذهاب إلى الموالد في الناحية . وفي أيام رواجه الأولى . كانت أصيلة تذهب معه . وبعد أن أنجب أولاده ، واستقرت روجته ، فإنه يذهب بمفرده .

أهل السوالم . يشاهدون أبو السعود . ساعة المعصاري . ماراً على الجسر . في يده قفص صغير . معه ما يحتاجه في سفره ، عدة الشاي . بعض الطعام القليل . غيارات . ومعه بعض الكتب الثقيلة ، ندور طلب منه أصحابها أن يضعها في صندوق النذور . يقطع الطريق على قدميه . ينام أينما أقبل عليه الليل . يذهب إلى سيدي إبراهيم الدسوقي في دسوق . سيدي الأربعين في الضورية سيدي مسعود في دمينسا ، سيدي أحمد البدوي في طنطا . يعود بعد سبعة أيام . لحظة الفروب . يضع قدمه على الجسر . يسمع الحد ، يدوس على أرض الجسر بحكمة كما يفعل القرياء . يشاهد واحداً من أهالي السوالم . يتنسم ، يضع القفص على أرض الجسر ، بماتته ، يمسح القربة في أحفائه . بعلاً عينيه بمنظر السوالم والناس . تفتح الشوق بالقلب وفانت الدوع في المآقي . ولا بد من السوالم . وأصيلة وأولاده وأهله . وذكر بانه وحكاياه .

في القفص حمص وحب العزيز وخبز أبيض وطعمية . أبو السعود رغم فقره ، غير بخيل ، يفتح القفص على الجسر ، يخرج مبادخله يعزم على الناس بما معه . يأخذ الناس منه ، يسأون أنفسهم : عن مصدر ما معه . يذهب إلى منزله ، يوزع ما بقي على أولاده وزوجته وأبناء الجيران . يقول لزوجته : كل يوم يشرق على الناس ، يخرج معه أرز قهم ، من يموت يتقطع رزقه . أبو السعود يقول لزوجته : أنا ما دمت أحياء ، عند شروق شمس اليوم ، فسجد ما نأكله ، بشكل أو بآخر ، يكمل : ليت مشاكلي الناس كانت هي الأكل والشرب فقط : أذن لهات الأمور .

أبو السعود ، يجلس بعد عودته في وسط داره ، يليس أكبر أبنائه طرطورا ملونا ، أحضره معه من المولد . زوجته تضع الشاي على النار . يقول لها كوب الشاي من يدحا يساوي الدنيا بما فيها . يقول لزوجته أيضاً : أن الناس يلبسون العري ، ولسانهم قد أصابه عوج ثقيل : أن الدنيا انقلب حالها ، الرجل في غير داره لا يساوي بصلة قديمة ، أنه لا يستريح إلا في هذا المكان البسيط . ودون أن تسأله زوجته ، فهو يحكي لها ما حدث ، ما سمعه ، ما رآه أثناء سفرته . أنه متعب من السفر ، ولذا فإن أصيله هي التي تحكي له أولاً . كل ما حدث وهو في المولد ، أبو السعود ، هو المتحدث في كل مكان في المولد . في بيته يكون مستمعاً فقط . أنه يجلس ولا يتكلم . يسأل زوجته عن الأمور التي سافر وتركها معلقة في جو البلد . أصيلة بارعة في حكاية الحكايا ، تتكلم باللسان واليد والحاجب ، ورغم أنه شيخ ، وهي من نسل الصالحين ، فهي في منزلها امرأة ، نسيه ، تسعده بالليل ، وفي النهار ، فهي لا تلبس سوى قميص على المحم رمش عين الجميل .

أبو السعود يخرج من داره بعد شرب الشاي ، يسأل من يقابلهم ، يسمع منهم ، يقول لهم أخبار المولد ، يعرف منهم أخبار البلد ، يمر على النساء اللاتي أعطينه نذورا ، يطمئن الخواطر على وصول النذور ، وأنها الآن نائمة تأكل أرزا مع الملائكة في صندوق النذور . في المولد ، يلتقي أبو السعود ببعض الناس لهم أقارب في السوالم ، يحملونه السلام والعتاب والسؤال عن السبب في الانقطاع أبو السعود يذهب لهم ، يلفهم السلام ، ويعاتبهم ، ويعظهم ، ويقول لهم : العمر قصير .

يدهش أهل السوالم ، فابو السمود ، بعد وجوعه من الولد ، بساعة أو ساعتين يكون قد أكل ما حدث خلال غيابه . أهل السوالم يتراهنون ، أن كان هناك ما يخفى عليه . الرجال يقسمون أنه يذهب إلى المولد ، تاركا عينه ، وأذنه في السوالم ، حتى يعود

في العشة ، يجلس أبو السمود ، يصل ما انقطع ، يحكى أخبار الدنيا الواسعة . الرجال تنصت إليه ، الدهشة والاعجاب والانبهار من جديد ، الناس تقول : الليالي بدون أبو السمود ، لا طعم لها ، يؤكدون ، أنه ملح الحياة في السوالم .

الرجال يجلسون صامتين ، بعد أن استمعوا إلى حكاية الحكيم مع الملك . سأله عن المهندس ، لم تكن عنده رغبة في الكلام ، قال : أن حكاية المهندس لم تتضح بعد ، في الأمر سر . قال : أهل السوالم . يجرون خلف المهندس ، وأنه هو أيضا جرى فيمن جرى . يؤكد لهم ، أن سنوات عمره التي مضت ، والصفحات التي قراها . وكلام الله الذي يحمله في صدره ، يؤكد حقيقة واحدة أن الدنيا بكل ما فيها . وكرر : الدنيا بكل ما فيها . لا تساوى منا كل ما نفعله فيها .

يفت الرجال حول دكان المعلم يعقوب : وبعضهم يجلس . أمام دكان . دكان من الخشب القديم . مستند إلى الحائط . وفي مواجهتهما مصطبة ، فرشت عليها حصيرة متأكلة الجوانب . ضلقتا باب الدكان مفتوحتان ، ربطت كل منهما بحبل صغير إلى الحائط . على واجهة الدكان ، فوق إطار الباب ، فروع شجرة لبلا ، مشدودة إلى أعلى ، تساقطت من فوقها الأوراق ، فبدت عارية . في داخل الدكان ، لافتة صغيرة ، بهت لونها الأصلي ، تطلب في رد ناعم من الزبائن الكرام ، ألا يخرجوا المعلم يعقوب « فالشكك ممنوع » ، والزعل مرفوع ، والرزق على الله مضمون .

المعلم يعقوب يتحرك بين البضائع في خفة ومهارة ، يلبي طلبات زبائنه من أهالي السوالم . الساعة من أهم الساعات في اليوم ، فيها تكثر الطلبات ، يقبل الرجال ، عادوا منذ قليل من حقولهم ، ومعهم مواشيهم ، بعد يوم من العمل . في منازلهم ، غيروا ملابس العمل ، وركبوا مئاساتهم ، وخرجوا ، بعد أن اطمأنوا إلى عشائهم . عند الدكان ، يقفون أو يجلسون ، وبين الحين والآخر ، يخرج الكلمات من أفواههم ، يشتمد بهم انحناس ، فترتفع أصواتهم ، وتعلو أياديهم . وفي أثناء جلوسهم ، يدخنون ، يلغون سجائر رقيقة من علب دخان صدئة ، وقد يكون مع بعضهم قروش قليلة ، في جيب حافظته الجلدية ، فيشتري بضائع ، غير السجائر والشاي والسكر ، رطل خلوة لولاده ، روح النعناع لزوجته . عبر الشارع ، يمر الأطفال الصفار ، والنسوة والرجال . المعلم يعقوب لا ينصرف إلى جلسائه كلية ، بمجرد أن يحضر أحد زبائنه ، فإنه يصمت ، يترك الجالسين ، يحضر للزبون طلبه ، فالمعلم يعقوب يعرف كل أهالي البلد ، ويعرف طلباتهم . الشيخ محمود ، علب النشوق ، أبو السمود ، يسأل عن اللبان الذكر . وعندما يجده عنده ، فإنه يهرش بيده في قفاه ويضحك .

— أول ما يفرجها ربنا ، جهز لي ورقة منه .

ورداني لا يطلب سوى باكو الدخان ، أن ورداني يأخذ الباكو

بيده : يضغط على منتصفه ، يقربه من عينيه :
- ما توزن الباكو يا معلم يعقوب ، دا احنا بندفع فلوس .

يحضر المعلم يعقوب باكو آخر ، يضمهما في كفتى الميزان ينظران . عينا ورداني برسمان وتنخفضان مع حركة الميزان البطيئة . يأخذ ورداني الباكو الأكثر ثقلا . حب الدين يحضر الى الدكان ، ويسلم ويسال عن الحال ، يسال المعلم يعقوب عن جريدة ونادرا ما تكون عند المعلم يعقوب جريدة ، فالجرائد تحضر بالصدفة . المعلم يعقوب يعرف أن في البلد رجالا لا يتعاملون معه إلا مع أى بقال آخر ، يذهبون الى البنادرة ، يحضرون ما يحتاجونه . في منتصف الدكان عمود ، معلق فيه الكلوب ، على العمود والحيطان والكلوب واللافتات والدوابب ، طبقة لزجة سوداء ، في لحظة الغروب ، الذباب يغطي كل ما في الدكان . من يمر على الدكان يشاهد المعلم يعقوب ، بيده فوطة كبيرة ، وقد اكتسب نشاطا غريبا على سنه ، المعلم يعقوب يقف فوق كرسي في منتصف الدكان ، ينثر الذباب . وفي منتصف السقف ، سلك مدلى ، في آخر السلك ، صليب ابيض على لوحة سوداء ، تحت الصليب لافتة سوداء ، مكتوب عليها بحروف بيضاء « الرب معين لى » .

الرجال يجلسون ، يتحدثون عن المهندس والبشر وارض ورداني ينتظرون أن يحضر حب الدين ، والمعلم يعقوب ، لم يعلن رايه في الموضوع ، رغم انه يعنى نفسه ، بأن يبيع الكثير ، بل يعنى نفسه بأن يفتح للمحل فرعاً عند البئر . حتى في ايام الخريف الجافة ، ثمة مساحات في النفس للأحلام والمنى ، ورغم جهامة الحياة وتجردها من كل بناء ، فان الناس يحلمون . المعلم يعقوب يعترف بأن معلوماته عن الموضوع بسيطة . المهندس لم يحضر اليه وهو لم ير اى فرد من العاملين في المشروع . احبانا يطول الصمت . وتدور عيون الرجال الصغيرة : المكتحلة الصبر والحرمان في محاجرهم التي بلا رموش . ويحدقون داخل الدكان وسط العشة ، في أجولة العدى والارز والفول : ومسناديق الصابون وعلب الشاي والسكر . نظراتهم تستقر على المعلم يعقوب وهو يتحرك بين البضائع ، رغم الزحام ، وامتلاء الدكان من آخره ، فثمة طريق يسلكه المعلم يعقوب ، يعرفه جيدا ، حتى وهو مغمض العينين ، نظرات الرجال تستريح عليه ، يفقدون في انه رجل ناجح ، وانه يملك الكثير . ويدرك الرجال انهم يحسدونه

الحسد حرام ، انهم يتوبون ، ويستغفرون ، ولا يبقى في الاذهان سوى صورة ملامح وجهه المجهدة ، ابتسامته الدائمة ، سرعة حركته ، ضعف بصره ، النظارة لسميكة التي يرتديها بالنهار فقط . انهم يعجبون به ، ويتساءل كل منهم : لحظة تركه الدكان . ننادا لم يكن من حظه ان يفتح دكانا ، العمل قليل والربح كثير . الرجال يقولون ان الدنيا حظوظ ، يقولون لانفسهم : شاعر البلد لا يسليها . الدكان لو كان لاحد من اهل البلد ، لما نجح ومهما فكر الرجال فسيظل النجاح والفشل ، الفقر والغنى ، أسرار لا يفهمها أحد . الرجال عقب تفكيرهم في هذه الامور ، يرفعون عيونهم نحو السماء ، تتبع عيونهم منبذة سيدى الغريب ، ترتفع النظرات على قوالب الطوب فيها ، وتصدع معها حتى الهلال المفضى ، وهو اعلى مكان فيها ، منه تنسحب النظرات لى الخيمة الزرقاء وعند هذا الحد ، فانهم يكفون عن التفكير . العبد في التفكير والرب في التدبير ، وفي هذا الكفاية .

ذات صباح ، حضر الى السوالم رجل غريب ، استأجر دارا خالية ، سكن فيها . كان رجلا وحيدا ، يخرج في الصباح ، يدور في حواري البلد ، حارة ، حارة ، يجلس على شاطئ ترعة ساحل مرقص ، او اقربز الجسر القديم (لم يكن الجسر قد بنى بعد) . يرمى قطع الطوب الصغيرة في الماء ، ينسنى برؤية تموجات المياه بعد رمى الطوب ، وهي تبدأ كنقطة صغيرة . ثم تتسع مع تموجات المياه ، وتتسع ، حتى تصل الى شاطئ الترعة الآخر . في المساء كان يعود الى داره ، يتذكر الناس ، انه كان دائما بمفرده .

« الساعة الخامسة ، لقد حان الموعد . القاهرة ، والساعة فيها الآن الخامسة ، الآن تبدأ برامج السهرة ، ايها السادة : اسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، القاهرة تحيكم وتقدم لكم نشرة الاخبار الثالثة » . ينصت الرجال ، الكلمات الغريبة ، تسقط على الاذان والقلوب فتحدث فيها آثارا جديدة . فترة قصيرة ، ملؤها هدوء مؤثر ، تستأنف بعدها المناقشات الحامية . وقد يطلب رجل مامن الباقيين ، ان يصمتوا لدى سماعه خبرا يعتقد انه عام . يعاودون الصمت ، ولا تطول فترته ، اذ سرعان ما يكتشف الرجال ان الخبر لا يعنى شيئا ، وبصوت منخفض ، يخدش احدهم ستار الصمت . كلمة صغيرة ، ويبدأ الحوار . ان ما يتسفل ورداني ، هو الاسماء التي يسمعا ، بلدان ورجال واحداث :

اجزاء بعيدة من العالم ، يقول ووداني : انه كان يعرف ، منذ ان ولد ، ان آخر الدنيا من الناحية البحرية هي الاسكندرية ، وبعدها البحر المالح ، الذي يقول عنه الرجال انه بحر بلا شاطئ آخر ، وان آخر الدنيا من الناحية القبلية ، هي مصر ، ام الدنيا فوقها الصعيد البراني والجواني . اما هذه البلاد ، التي لا اول لها ولا آخر . البلاد تزداد عددا يوما بعد يوم ، وتزداد اسماؤها غرابة ، مع كل نشرة اخبار جديدة .

— همه بيجيوا البلاد دي منين يا اولاد ؟

— دي حاجه تحير والله ..

— « شوف ياسيدي — قال ابوالسعود — في العالم مائة دولة ، كل دولة منهم قد مصر اربع مرات . امريكا لوحدها فيها خمسين دولة ، روسيا كمان خمسين دولة ، والا الصين والهند والسند واليابان ، الناس هناك زي النمل ، تقول يا رحمن يا رحيم » .

عيون الرجال تتسع دهشة ، وئناسهم المبهورة تملأ الصدور . شيء ما ، مذهش وغير عادي ، يشغل الصدور ، الرجال يدركون ان ما يسمعون في نشرات الاخبار ، كل وقت ، اسماء لها معناها . العالم كبير ، واسع الارحاء . قال المعلم يعقوب ، من خلف البنك وهو يعطى البضاعة لاحد الزبائن : ان الحياة في كل هذه البلاد ليست سهلة بالمره . ادرك ووداني انه حتى آخر ايام العمر ، ثمة اشياء كثيرة لا يعرفها الانسان . وصمم بينه وبين نفسه ، ان يعلم ابنه ، واو وصل به الامر ان يبيع نصف الفدان الذي لا يملك سواه

في بعض الاحيان ، يخلو الدكان من الزبائن ، يقف المعلم يعقوب مسكنا على البنك ، يبدو متعبا ، وعيناه تدوران في محتويات محله وقد ينقل شيئا ما من مكانه الى مكان آخر ، يفرغ من عمله ، يقف في احدى زوايا الدكان ، يشن جسمه ، يعاود النظر في محتويات دكانه . يتجه ناحية الرجال ، يفتح فمه ، يتهيأ للكلام : الرجال ينصتون له ، يقول نصائح غالية للرجال . اهل السرايم كلهم امامه رجال صفار بلا تجارب ، وهو مسئول عن اسداء النصيح لهم . ومن المؤكد ، ان احدا منهم لا يناقشه فيما يقوله . الرجال يهزون رؤوسهم ، مصدقين كل ما يقوله لهم . وفي كل مره ، يكتشفون ان الرجل عاش حياته كلها ، كل لحظة وكل ذائبة : رجل واع وعفر ، لف بر مصر من اوله الى آخره . المعلم يعقوب يسترسل في سرد ذكرياته ، مغامرات ، سفريات . خرج من بلده

رجبيه خال الا من الهواء ، لف ودار . الرجال يكتشفون ، انهم يفصلون عن الحياة ، اغلقوا العمر عليهم ، على المكاسب الصماء ، واصبحوا معزولين ، ومع مرور الايام ، ضمرت مشاعرهم ، وغاض من ماء وجوههم سر التجدد الابدي ، جذورهم قطعت ، واسبحت الارض التي ينبتون فيها بلا ماء . والعزاء ، انه في الاعماق منهم ، قية من حياة ، موجودة في قاع وجودهم ، يحسون بومضاتها في بعض الانفعالات النادرة .

ختاما لهذه النشرة ، نعيد على حضراتكم موجزها . انعقاد الاجتماع الاول للمؤتمر الثاني لرؤساء دول عدم الانحياز بالقاهرة ، ٨ دولة تشارك في الاجتماع ، ١٠ دول تشترك كمراقبين .

يذكر اهالي السوازم ، ان مصباح حجرة سيدى الغريب ، كان اخر ضوء ينطفئ في البلد ، وقبل ان ينطفئ ، كان الرجل يجلس ، امامه طبلية صغيرة ، عليها كتاب كبير ، جلده اسود متين . يقرأ بصوت مرتفع . شباب البلد تسمع ما يقرؤه بتأثر عميق ، وبصوت بطيء .

« في الليل ، على فراشي ، طلبت من تحبه نفسي ، فما وجدته ، اني اقوم وأطوف في المدينة ، في الاسواق ، وفي الشوارع ، اطلب من تحبه نفسي ، طلبته فما وجدته ، وجدني الحرس الطائف في المدينة ، فقلت ارايتم من تحبه نفسي ، فما جاوزتهم قليلا ، حتى وجدت من تحبه نفسي » .

قال الرجال : الغريب به مس ، خلفه حكاية ، يطول شرحها ، وقال الصبية الذين خانتهم عيونهم ، وسرقت نظرة او نظرتين من داخل البيت الذي يعيش فيه ، لا يوجد في البيت سوى حصيرة ومخدة من القش وصندوق خشبي قديم ، وطبلية ، وكتاب اسود ، وصليب معلق على الحائط .

السوازم مهتمة بالرجل الغريب ، اسمه يعقوب ، مسيحي طبيب وهو هارب من بلده البعيد في الصعيد الجواني ، من ظلم وقع عليه ، وقيل ان الحال هناك لا تسر ، له عائلة وزوجة وأولاد ، وقد يحضرهم الى البلد ، ان استقر به الحال .

— الرئيس عبد الناصر يقدم في خطابه في افتتاح المؤتمر الثاني ، لدول عدم الانحياز بالقاهرة ، مشروعا باعلان بيان عن تحقيق السلام بالتعاون الدولي .

شباب البلد يحدثون يعقوب ، وهو اثناء سيره في حواري

السؤال ، يلقي التحايا على الرجال ، يقول لهم بصوت رفيع .
 « سعيدة » ولا يرد على السلام الا بعباراة « سعيدة مبارك » .
 يعقوب يعبر حوارى السؤال الآن ببطء ، وخطواته المتسرعة ،
 المعجلة تغيرت ، وعيونه التى كانت تنظر لى الارض ، أصبحت
 تحدقان فى كل شيء ، وانحناء ظهره اعتدلت ، والرجال يتحدثون
 عنه بحب . والنساء فى السؤال . يثنان لمعيشته بمفرده فى دار
 واسعة عليه . ويتحول بيت يعقوب الى مكان يسهر فيه الشبان .
 اهل السؤال يعرفون شرب الخمر ولعب الورق : زجاجات
 صغيرة . رقيقة الصنع ، مرسوم عليها صورة حاوة . فى البداية ،
 لعب الشبان الورق . للتسلية وقضاء الوقت . والليل يحزر بلا
 نهاية . الليل متاهات الرجال . والرجال فى السؤال ، يصنعون
 مراكب من ورق الاحلام ، يبحرون بها فى الليل ، على أمل الا
 يعودوا بعد ذلك ابدا ، سفر طويلا المدى . ولحظة سقوط الليل .
 هى لحظة طرح التساؤلات المرة . يبدأ الحوار من طرف واحد ،
 مع النفس والظلام والبيوت . ان المتزوجين يخافون من العودة
 الى الفراش . والشبان . يمثل لهم لحظة المساء ، ضيفا .
 فيخرجون من البيوت الى اى مكان . يعرج يعقوب ذات مساء .
 ان يلعبوا بالنقود ، نقود قليلة : يشترون بها اكلا وشربا لزوم
 السهرة . كان يعقوب يعزم على الرجال بالشرب . تمنع الرجال ،
 وكانوا راغبين . لم يدم التمتع . كويت حلقهم : تحشواوا .
 احسوا بلاذة الاكتشاف . تدفوا شربا فى طعم المر . انبعثت فى
 نداهه نشود رائعة . بحرروا . قطع النوى ، المفى ربط اقدابه
 برضى السؤال . وحسوا انهم يخيرون . يخربون الليل . ويضاجعون
 النجوم . فقد الواقع اشكاه المألوفة : وتحطمت قواعد الحياة
 الرتيبة ، دارت الرؤوس .

- خمسينه والنهى يابى يعقوب .
- عشرة صاغ او سمحت .
- ع الحساب ، كره تفرج .
- سكك لا . وما تبش رغل .

تتحول الحجرة الصغيرة ، الى ساحة حرب ، المكسب والخسارة
 المهاره فى اللعب ، حركة الابدائى فى خفة ، العيون المتعبة من متابعة
 الورق والنقود وحسابات اللعب والضوء الشاحب . يقول الرجال
 يعقوب يخسر كثيرا ، لا يفض من الخسارة : تسالى وقت . وفى

آخر الليل ، ينصرف الرجال . يعقوب يوصلهم حتى باب منزله .
 يضافهم ، يأتى الى اسماعهم . نباح الكلاب ، منتشر خلال
 دسوسات الحيل الليلية . يعقوب يقول لهم . بصوت مخمض وفى
 رحابة الليل : « الرب اعطى ، الرب اخذ ، فليبارك اسم الرب
 فى العالمين » .

تطورت الامور ، الرجال يتراهنون على اموال كثيرة ، ويربح
 يعقوب كل ما مع الرجال . يعقوب يجمع بهدوء حديدى من فوق
 الطايله كل النقود . يجمعها فى حجر جليابه . غفلة مرثر وباب
 فى الورق . ويده التى تجمع النقود ، وترحزها حتى حافة الطايله
 ويدعها دفعه بسيط . فسقط فى حجر جليابه . محدده رسنا
 عريبا ، انه يدرك ، ان كل العيون المحيطة به ، تجلده بنظرات
 الطمع والدهشة والاستغراب ، يعقوب يرفع عينيه ناحية الرجال ،
 تسمح نظراته غضبه . وثوقف كلا عند حده . وتساءل للموم ،
 مقال الانفار . وكان احد نحايا اللعب مع يعقوب : الا يخاف
 يعقوب اهالى البلد . وحاول ان يلعب له بذلك ، يعقوب طمأنه :
 الرجال هنا طيبون ، وقد يشور فى النفوس شيء ما ، ولكنه لا يصل
 الى ضرره أو ايقاع الاذى به . فى آخر الليل ، نظرات الرجال ،
 تتحول حوله الى ينبوع حزن ، والكلمات مذبوحة على الشفاه .
 - تلعب يا للموم .

لا يرد للموم . يخرج الورق من جيبه . يضعه على الطايله ،
 ويعقوب جالس كما هو . لا يبدى فرحا او حزنا . ولا يستطلع
 احد من الرجال : ان بقرا انفعالاته ، يجلس اسامهم . وجه بليد ،
 لا يظهر عليه تعبير . ويشعر الرجال ، رغم الصمت الموحش ،
 انهم متفاهمون . فى النهار . يتفقون على ان وجود يعقوب ، خطر
 عليهم . البيوت اقتربت من الخراب ، نقود للموم التى انت من
 لا شيء : ها هى تضيق : ان نسياع جزء من نقود المعلم فى اللعب .
 يدفع الرجال ان يتطلعوا الى السماء ، وعيونهم مقبولة بالشكر .
 تعلم حب الدين من المعلم يعقوب أشياء كثيرة : اهمها ان يبيع
 ارشه ، « لعب الورق كثيرا . غير انه تنفق النقود فى احدى
 اخرى . لأول مرة . ينف رجل فى السؤال . كى يقول عن الارض
 انها لا تترك للناس سوى الخرب ، وانها سر الضيق والمصائب
 وكل اللاء ، حب الدس ، تنكلم بلسان غير لسانه ، كلمات يعقوب
 بقولها حب الدين دون خجل ، وسط الناس . الرجال تحلقون

الايمن ، بأنهم لن يذهبوا الى منزل يعقوب ابدا ، وبعد العشاء ، بعد أن تستقر مربعات الظلام في قيعان الحارات ، فان الرجال يرتدون ملابسهم ، يقولون لاولادهم : انهم ذاهبون الى الجامع للصلاة ، وهم يعلمون انهم يكذبون ، وبمجرد ان يسلموا انفسهم للحارة ، فانهم يتجهون الى منزل يعقوب .
- يامرحب بالبلديات .

جهم لمنزل يعقوب كالقدر ، لا فكك لهم منه ، يكرهونه ، غير انهم يذهبون اليه كل مساء ، الناس تقف ضده ، كلهم ضده ، احد منهم لم يستطع مواجهته ، تواعد النسياس على حرق منزله ، نسوا الوعد . للوم ، حلفت عليه امه الا يذهب الى منزل يعقوب ، حدثته عن المستقبل والنقود وتحويشة العمر ، اغلقت عليه الباب وجلست خلفه ، قالت له : ان كان يريد الذهاب ، فليقتلها ، فهي لا تحب أن ترى أيام زمان . وخير لها ان تموت . للوم يجلس في المندرة بالقميص والصديري يدخن ، يعمل الشاي لنفسه ، يشرب الجوزة ، يحرق في حائط منزله ، بعد اكواب شاي في سواد ومرارة ايامه ، ينظف أسنانه بعود كبريت ، ينتفضر نجاة .

- يعقوب بيناديني يا امه ..

يلبس جلبابه ، يركب مداسه ، يأخذ عصاه في يده ، يخرج ، لا يكون هناك يعقوب ولا غيره ، وحتى امه لا تعرف السر في تركه يخرج . يقسم أن يكون اللعب هذه المرة للتسلية . في حمى اللعب ينسى . نفدت نقود حب الدين وللوم ، وكان يعقوب يمد نقوده في هدوء .

- انعب يا يعقوب .

- على .

صمت حب الدين ، هرش شعر رأسه .

- اللعب على نص قيراط أرض .

- لا يا حبيبي ، فلوس وبس .

يسهر حب الدين ، يقول لهم يعقوب : انه لا يلعب لا على النقود ، يضحك ، يضع الورق على الحصى ، يمر بيده على وجهه المحمد من اثر السهر كل ليلة ، يريح ظهره على الحائط . ويستأذن الرجال في ادب ان يمد قدميه على آخرهما . يقول للرجال حوله . انه حدث مرة ، أن راهن عامل في محطة السكة

الحديد . بعد منتصف الليل ، اثناء اللعب . لم يكن هناك سوى انوار البلوك في المنطقة ، ثم الظلام والصمت . كان الرهان ، أن يحلق المهزوم نصف شاربه بموسى على الفور ، لم يكن معه نقود ، أحضر الموسى ، وقطعة من الصابون وقليل من المياه ، ابادى لرجال ترتفع الى شواربهم الكثة فجأة ، يتحسسونها . يتأكدون من وجودها .

- وبعدن ، حصل ايه ؟

- حمت ص شنى .

من الامور المألوفة الآن ، أن يشاهد الشيخ محمود ، اثناء ذهابه الى الجامع ، لصلاة الفجر ، منزل يعقوب مضاء ، من ينظر من النافذة ، تطالعه ، وجوه مسعدة ، وعيون ذبلت من السهر . لقد تعود الخفراء ، اثناء سهرهم في الليل ، أن يشاهدوا يعقوب ، يسير بعد منتصف الليل ، مع احد الرجال ، يذهب معه الى منزله ، يعودان بعد قليل ، يسيران متلازمين ، يفهم الرجال ، ان الرجل نفدت نقوده ، فطلب تأجيل اللعب حتى الصباح ، يعقوب يامر ان يذهب الى منزله ، كي يحضر نقودا ، ان كانت هناك نقود ، وعند ما يدعى الرجل الكسل ، فانه يقوم معه على الفور

- حصل منك حاجات كثيرة يا يعقوب .

- غير صحيح يا عمدة .

- تسببت في بيع أرض حب الدين سرحان .

- دا راجل ومسئول عن نفسه .

- الرجاله يتشرب الخمره عندك .

- اللي يعمل غلط يتحاسب عليه .

- بتفتح بيتك لغاية الصبح .

- طول عمري متعود على السهر ، انا باحب الليل اكثر من النهار يا حضرة العمدة .

- بتقرى الولد حب الدين في كتابكم طول الليل .

- هوه اللي بيتقرا .

- يا يعقوب امش كويس ، احسن لك .

- شوف يا عمدة ، انا عمري مارحت احد بستانه ، ولا عمري مارحت احد فيهم علشان يبجي مندى .

- مويس تشومس يصل الى القاهرة فجأة ، في محاولة لحضور

المؤتمر الثاني لدول عدم الانحياز ، المؤتمر يتخذ قرارا بعدم حضور تشومبي الى المؤتمر .

يسأل الرجال عن تشومبي : يتحدث فتحي سالم . كلمات قليلة هي التي فهموا معناها : باقي كلمات فتحي سالم سماء : لا يفهمها احد ، تصل الى الاذان ، ولكنها لا تعنى اى شيء بالنسبة لهم . يقول فتحي سالم : تشومبي هو الذى تسبب في قتل الزعيم الافريقى باتريسي لومومبا ، وانه يعادى الثورة . من المفروض ان يذبح في القاهرة : بعد ان يدوروا به في الشوارع امام الناس . يقول ابر السعد : انه يتكلم بآلف لسان ، انحيزى . مرساوى . وشكله اسود فطيس ، وانفه مثل قرن الففل الكبير الافطس .

ان يعقوب يتذكر انه بعد ان حضر الى السوالم ، سأل عن المسيحيين في البلد ، وذهب اليهم : اكثرهم علما : سأل من اى طائفة هو ؟ اجابه يعقوب مازحا ، انه من الانجيليين ، عرف باقي المسيحيين ذلك ، تجنبوه ، وخافوا منه ، رفعوا ايادهم الى صدورهم وجباههم ، راسمة علامة الصليب . حاول يعقوب ان ينفي ذلك . لم يصمدقوه . قرروا ان يلفروا فسيب كنيسة الضهرية ، خير وصول يعقوب الى السوالم ، اهالى السوالم لم يفهموا السبب في الخلاف ، يعقوب وحده ، وباقي المسيحيين ، كانوا يفهمون . وبعد ذلك ، فان يعقوب ، الذى لم يعرف الغضب ابدا ، كان يسأل عنهم .

— الجمهورية العربية المتحدة ، تحدد اقامة مويسر تشومبي ، في قصر العروبة .

ذات مساء ، حرق بيت يعقوب ، شب فيه حريق ، اندلعت السنة النيران كعبدان الغضب في قلب الليل . قالوا ان احد الرجال الذين كويت قلوبهم من خسائر كل ليلة ، حرقه . احضر الرجل ، ولا احد يعرف من هو ، جوربا قديما ، حشاه بقطع قماش ، تقعه في الجاز يومين ، اشعل فيه النار ورماه على سطح المنزل ، ظن الناس ان يعقوب تحول الى فحمة سوداء ، اكتشفوا بعد اطفاء النار . ان يعقوب غير موجود في المنزل . في الصباح ، عرفوا الامر ، سافر يعقوب بالامس ، ساعة الفجر الرمادية المرحشة ، بعد اللعب وحسابات الريح والخسارة الى بلاده . عاد بعد عشرة ايام معه زوجته واولاده ، لم سهر من بعدها ، لم تعبت قدم غريبة باب منزله . بنى لنفسه منزلا ، وفتح دكانه ،

وملاه بالبضاعة من النفود التي كسبها من اللعب ، اما هو فيقول لها من قطعة ارض . كان يمتلكها في البلد ، باعها ، لم احضر اولاده .

لاحظ الرجال : ان جسم يعقوب ، اصبح اكثر امتلاء ، وملابسه اصبحت نظيفة على الدوام . الرجال ينادونه بالمعلم يعقوب . وفي صباح الاحد . لم يكن يفتح دكانه . كان يريد اخر ملابسه . يخرج من الصباح الباكر هو وزوجته واولاده يذهبون الى الضهرية . لحضور الصلاة . لم يكن في السوالم قبلى او بحرى نيلمه او ششت لانعام او دميستا كنيسة . الكنيسة الوحيدة في المنطقة كلها . هي كنيسة الضهرية .

المعلم يعقوب من احب اهالى السوالم . وتربطه بباقي المسيحيين علاقات ود . يلتقون امام دكانه مساء السبت ، يتحدثون عن انيس والصليب ، الابن والاب والروح القدس . العذراء مريم ، بهيم العوس مع كلماته ، تملأ المآقى بالدموع . وتشفق الصدور ، وهم الرجال مع الكلمات . ان العواطف تسعل من مضها مع الكلمات . والمعلم يعقوب ابن نكتة ، حتى الذين كرهوه . لم يملكوا الا ان يعجبوا به .

الصمت يرين على الرجال ، والليل احتواهم بداخله . العيون والقلوب والابادي غمست في سواده وسمه ورهبه . استمعوا الى نشرة الاخبار . وتحدثوا حتى تعبوا ، شربوا الشاي . انهم في جلستهم لا يبدو منهم سوى انصافهم . ومستطل الضوء الخارج من دكان المعلم يعقوب . بفضح المارين في الشارع ، بالمارون يمرعون بمجرد دخولهم في منطقة الضوء ، وفي نفوسهم الحسد . حسد الجالسين على الدكك والمصاطب ، فالجالسون في الظلام . يرون المارين . المفسولين بالضوء . المعلم يعقوب يقف خلف البنك . يرفع يده الى جبهته . حاجبا النور عن عينيه . حتى يستطيع ان يرى الرجال .

— ايه اخبار البشر والمهندس والبتروول ياسى حب . .

تتجه انظار الرجال الى حب الدين ، يلمع في العيون ، رغم لظلام ، بريق ابيض . حب الدين كان يريد ان يتكلم منذ ان حضر ، لذا هو سبب حضوره . بعد ان سأل المعلم يعقوب احتسار اذا سيقول ، وجاش في وجدانه احساس بان الامور ستكون على ابرام ، وبعد ان يتدفق البتروول . ذلك اصبح قريبا منهم . انه

على وشك الحدود . مع حب الدين معه على آخره . بدا
للرجال . قاع العم والاسنان واللسان وجره العم . لم تخرج
الكلمات ، فوجيء حب الدين . بان كل شيء مختلط بداخله ،
وبانه سعيد . وان الرجال يجب ان يقنوا بلبس والبتترول والمهندس
- ما تتكلم ياسي حب .

- ما نقولشي الواد ملك البسيطة .

- حاقول ايه يا رجاله . الحكايه عال والحمد لله .

- تسناهل - قال أكثر من واحد - الحمد ياسيدي ..

بدا الحديث . وكنه يحدث نفسه ، الرجال سكارى بكلمات
حب الدين وظلام المسيل الريفي الدافئ المعطر . بدا لهم البئر
وعصمت والبتترول . مكافاة بسعادة أتت بعد صبر طويل . اتصال
محدد . حصلوا عليه منذ ان ولدوا . بايام هنيئة ، قد يعيشونها
ارتفعت الايادي ، وكان حب الدين يتكلم . صمت . حاول الرجال
ان يكملوا الحديث . وفي مثل هذه اللحظات ، عندما ينظر الرجل
بداخل نفسه . فيجد سديما كاملا ، عالما ضبابيا مهوشا من الحزن
والخبطه والفرح والحبور والجنون ، الكلمات تخون الرجال .
ضحك المعلم يعقوب .

- سي حزنس . اسم العنبر ولت .

الرجال يملأون صدورهم بحديث حب الدين . ويفهمون
عيونهم في الاماني والاحلام . قال كل منهم لنفسه : خلاص .
وتنحج فتحي سالم ، وضع ساقا على ساق ، قال موجه كلامه
الى حب الدين . ان العائد من المشروع ، يجب ان يكون لمصلحة
انبلد . الارض ارض ورداني ، حب الدين له دور في خطوا
المشروع . رد عليه حب الدين ، كان قد افاق من سكر حديثه
عباراته الموشاة برائحة الاصيل المعطرة بماء الكافور الملونة بزرة
لحظة ولادة الفجر على صفحة السماء ، قال ان الموضوع
ميسدرسه المهندس . سي عصمت . قال حب : المهندس نكا
معه وعلى الرجال ان يطمئنا . قال المعلم يعقوب ، بعد نجا
المشروع ، وتدقق البترول ، قد يأخذ احد الرجال اكثر من غيره
لايد وان يكون هناك مظلومون ، وبعدد المظلومين ، فهناك ظالمون
في نفس الوقت : تلك طبيعة الحياة ، المعلم يعقوب ، يعتقد
اقل نصيب : سيكون خيرا من الحال الآن .

- الحال سيء يا جماعة : حد عارف الدنيا ماشي ازاي

قال حب الدين : ان المهندس افهمه ان اشركة ستتولى كل شيء :
انضرائب . المباني وكافة الانشاءات المطلوبة لتحويل السوازم الى
مدينة تسبح في النور بالليل . لايد من تحسين حال الناس ، وبناء
المستشفيات والمدارس والمصحات والمرافق العامة بكافة انواعها .
ودور العبادة والمهر وقضاء الوقت والحدائق والمكتبات . كل هذا
حير للبلد . فتحي سالم يقاطع حب الدين ، يطلب من المتحدثين
السكوت .

- انا باعترض . على جملة امور في الكلام .

يصف كلام حب الدين بالخيانة لمصلحة انبلد ، مسانه نظام
والمظلوم لايمكن ان تقبل ، العدل بكل صوره ، حق مبدئي لكل
الناس .

انا احذر - قال فتحي سالم - باسم الناس . الاتحاد الاسراكي
حايضى المشروع ، لو حصل فيه اى انحراف ، استطع نبي انبلد .
كلامي د كويس ، فاهم ياسي حب . ولازم تفهم المهندس بتاعك
الكلام ده .

لم يرد حب الدين ، قال المعلم يعقوب . ان فتحي سالم متهور
وعنده ظروف خاصة مؤلمة ، وغير واقعي في تفكيره ، العدل والظلم
والانحرافات مسألة وجهات نظر .

شوف يا فتحي ، ياسي فتحي . ياسيد فتحي ، يا استاذ
فتحي ، يا فتحي بيه ، يا جناب العضو المحترم - حب الدين هو
المتحدث - اللي عنده اكثر من خمسين فدان ، معناه وجود تسعة
واربعين غيره محرومين من شبر ارض ، ودا حقهم ، ايلي معاه
اكثر من عشرين جنيه في محفظته ، معناه حرمان اكثر من واحد
من وجود مليم في محفظته .

- لازم ابليغ عنك ، انت علشان سقطت في الانتخابات اللي فاتت
الناس عارفك .

لم يعلق المعلم يعقوب على كلام فتحي سالم ، الرجال ينصتون
بدهشة ، وحب الدين لايرد على فتحي سالم الذي يشعر بشيء
يهدر في داخله ، انه الفراغ المتوتر بعد ان قال كل ما عنده وعاد
الى جلسته ، قال في ترفع ، وبصوت عال تعمد ان يسمعه الجميع

- عموما يا جماعة ، انا ملتزم بتعليمات اللجنة ، والا كنت
قلت كل حاجة ، انا مش حا اعلن عن الاجراءات اللي حا اتخذها .
انما اليه تكذب الفطاس .

— ثم ان يابى حب ، كلامك ذا معناه ايه ، الناس تهجم على بعضها ، هجوم الكل على الكل . الفنى غنى والفقر فقير . ابولدا كذا ، دى حكمة ربنا ، عايز تغير الكون ، تعيد تنظيم الدنيا ، انا نجحت فى الانتخابات وانت سقطت . فيه فى السما رب ، وفى مصر حكام ، اولو الامر . اللى الدولة شايفاه بتعمله . الواحد منا ينام ويحط فى بطنه بطيخة صيفى ، اللى يعملوه فى مصر صح ، لازم يكون صح ، هو كذا صح من غير مناقشة ، واحنا نفهم ايه ، وانت تفهم ايه . اللى هناك حكام ودا شغلهم . وعموما الكلام اللى قلته دا مش كلامك ، وانا حا اربى اصحابه واربيك .

صمت الرجال مشحون ، ملئ بالتوتر ، وفى نفوسهم ثور الاحلام المحنطة والامانى المؤجلة .

— اختلفوا ، وانماركوا ، واتناقشوا ، المهم كل دا حا يحصل امتى ، احنا بنتفرج لغاية النهاردة .

الكلمات تخرج من فم ابو السمود ، منحوتة من حبة القلب ، هل سيجد الرجال ما يطلبونه ، ومتى سيأتى اليوم . قال حب الدين ، انهم رغم كل ما يحدث ، فان تدفق التترول فى ارضى وردانى ، سيفعل لهم ما هو اكثر من اى تصور . وطار فى العيون طائر الاحلام حاملا معه كل شىء فى حياته ، سقط فى منتصف الطريق ، ولكن الرجال ، ندبوا حظهم ، تباكوا احوال العالم ، ونسوا ، انه كان طائرا مكسور الجناح .

حياة الرجال ، بكل ما فيها ، بلدهم واولادهم ، ارضهم ، احلامهم الخريفية الممتدة ، حرمانهم ، تقف الآن ، وتحول الحياه بكل ما مضى ، بكل ما هو آت ، الى هذه اللحظة . فتحنى سالم يحاسب نفسه ، ويقدر انه لابد من ابلاغ المسؤولين ، حتى يقف حب الدين عند حده . لقد ارتاح الى انه لم يسكت ، وتكلم بكل شرف ونزاهة ، وكان ملتزما بالتعليمات . وتوعد الناس ، قال انهم كلاب يميلون الى حب الدين ، وتمنى ان ياتى يوم يخنق فيه كل الناس ، ويكون كل شىء بيده ، الاكل والشرب والتدخين وحتى التنفس ، وعندئذ سيصرف الناس ، من هو فتحنى سالم ، ويعملون له الف حساب وسيكون الكلام فى حضوره بحساب . ولا بد وان يعرف الرجل ما سيقوله قبل النطق به .

صمت الرجال ، يتحول الى صمت هادى ، هدوء نابع عن احساس بالرضا عن كل ما فى السوالم ، وقد لا يدوم هذا الرضا مساحة الليل فقط ، غير انهم سمعوا بلحظات الرضا الصغيرة . على امتداد انعم الطويل .

احس الرجال ، ان الجلسة اوشكت على الانتهاء ، لم يعد ما يقال ، قاموا من اماكنهم ، قالوا كل ما كنموه فى نفوسهم . ضحكوا ضحكات موشاة بالحبور . بالطيران فوق الارض والناس والاشياء ومشاكل الحياة اليومية . قالوا النكات ، سألوا عن ائمان الحبوب واخبار الجمعية التعاونية ، واسعار المواشى فى السوق ، تحسوا اجسامهم . مدوا اقدامهم على آخرها ، رفعوا ايديهم فى الهواء . قالوا ان الجاوس يضر بالجسم . ضحك ابو السمود ، قال ان ابناء السوالم اهل ضيق ، ولا ينفع فى الناس سوى الشغل الحمارى ، من اول النهار الى آخره . وان الراحة لها ناسها فى البنادر . اهل السوالم يموتون من الشغل ، والناس فى البنادر تموت من الراحة ، فتعجب من حال مصر .

— واهى دى احدى العجائب السبع .

ضحك الرجال من كلام ابي السمود ، اخذوا من دكان المعتم يعقوب ما تحتاجه المنازل ، شاي وسكر وجاز ودخان وورق بقره . وتناثرت الكلمات بين الرجال ، وعادت الضحكات الى الشفاه ، واضحى الليل امام عيونهم موشى بكثير من المسرات ، ياترف ارجال ، سار كل منهم الى منزله ، ذهب بعضهم الى الجامع ، او عشة سلسيلة او الى دوار العمدة . قام حب الدين ، نفخ ملابسه من التراب ، سلم على الرجال الباقين ، قال له المعلم يعقوب ، وهو يحتوى يده بين كفيه ، وبهزها ضاحكا :

— الرب معين لنا جميعا .

تعليق على ما يحدث في السواحل

الأطفال ، يكبر الصبية ، تنمو لهم شوارب كثة . يحبون ، يهيمون بحظلة الغروب في الحقول ، يتزوجون ، يموت الرجال . يدفنون والسر في باطن الأرض . وقد يكون البوح ذات يوم . أو يضي العمر كله ، وسر الأسرار ، في مكان ما ، تحت الأرض السبعة .
- الموضوع فيه ملعوب .

يقول لهم : أن حامد أبو الليل ، من أهالي الضهرية . كان يتكلم بالامس عن المشروع ، وقال أن نتائج المشروع لن تعود على السوانم فقط . ستعدها إلى البلاد المجاورة . يقول بر السعد : أنه سمع في البلد . المسألة مسألة علم . وما دامت الشركة قد قامت بكل هذه الجهود . فإن وجود البترول حتمى وبكميات كبيرة . بو السعد يتكلم ، لا يبرد عليه أحد . الصمت مرة أخرى . في المساء ، ذهب الرجال إلى الحقول . وقفوا حول الحفر القديم . جلسوا على التراب الأسمر الداكن . هب عليهم سيمه هواء حريفة باردة . نظروا إلى السماء ، فاستقرت في نفوسهم زرقعتها تدكنة . أمسكوا بقطع أطوب الصغيرة . نظروا . سمعوا في الحسم القديم . أحسوا بالعجز . الأرض واجهتهم بأمر لا يمكن لأي منهم أن يفهمه . لن يقتنع أي رجل ، بما يقال له . الرجال يخفرون في الأمر . ومن الصعب أن توجد في عقولهم فكرة ، أنه لا بترول ولا أرض ولا أحلام ، وهم يدركون أنه من المستحيل عليهم العودة إلى ما كانوا عليه . ايقظ حضور المهندس أشياء كثيرة ، كانت قد ماتت . فطعت جذورها . حجبا عنها الماء وطراوة الأرض . لدرجة أنهم تصوروا أن الأمور انتهت . حضور المهندس إلى أسوائهم . قلب كل الموازين .

ورداني يجلس بينهم . وهو يدرك أن أرضه لم تبع بسرها ، أنه سمع : وبغنى النفس بالحظ . فجأة تتغير حاله . في الحلق نصه . ويرى أصب عذيق . ورداني . يكذب من لسانه . ويسأل نفسه : أين التساليع في الأمرين ؟ يقول ورداني : قد أصل إلى السر ذات ليلة ، ثم يعود ويقول : أنه لن يكون أكثر من مهندس وأعله والورق والقلم . بخلت الأرض بما عندها . ورداني يدرك أن الأرض لم تعد أرضه . أرضه كانت مساحة مستوية من الخضرة والسواد . أما الآن : فأنسى هناك شيء آخر .

- أنما الحكاية مش داخله دماغ حد .

- ذا زمن الاعاجيب .

عشة سلسيلة مرة أخرى ، الرجال يجلسون . الوقت بعد العشاء ، حب الدين لا يملك القدرة على مواجهتهم ، على أن تلتقى الصيون في صمت مبلل بالأسى ، ما يشغل حب الدين . أن يبلغ هؤلاء الناس ، الرجال الجالسين حوله ، ما قاله المهندس . حب الدين لا يتصور أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة . أنه صامت . تنال أمام عينيه الأحلام ، وبين شففيه ينهم عقاب سيجاره . كان ذلك أمرا محتوما . انطوى النهار ، وملامح الرجال هادئة ، السوائم تبعث لهم يروائح المساء ، روث البهائم ، الأرض الجافة ، الزيت المحروق ، التوابل والدهن والدخان ، احتراق الخشب والخطب ، والقوالب ، المياه المرشوشة على الأرض في الحارات والشوارع الرئيسية .

قال حب الدين للرجال : أن المهندس عصمت . سيحضر إلى العشة بعد قليل ، لم يقل له السبب . حب الدين يخمن الأمر . قد يرحل المهندس من البلد ، بعد يوم ، أو يومين على الأكثر .
- وكأننا يا بدر .
- لا رحنأ ولا جينا .

لا يصدق الرجال . وتدرك سلسيلة خلف النخبة ، وهي تعد الشاي وترعى المعسل . أن كل شيء قد يؤجل العمر كله . الرجال صامتون ، يدركون ، أن الأرض ، تلك الرفيقة القديمة . قدم العمر نفسه ، ليست شيئا عاديا ، وأنه في تلك المساحة الصغيرة ، التي يملكها ورداني ، يكمن سر الأسرار . بعد أيام . تعود الأرض إلى ورداني ، وتردم البشر ، يرمون بداخلها الاماني . ولكن ما كانوا يظنون ، برءس في قاعها المصب . ثم يردمون عنها بالطين . وعندما يشق سن المحراث باطن الأرض ، وتبذر البذور في رحمها . وبأى الشمس والهواء والماء . وتنعاقد الأيام والليالي ، فإنه يحدث ذلك الشيء الهائل ، الدائم الحدوث ، ينبت زرع أخضر لامع الخضرة من وسط حبات الطين ، ويتحرك مع هبات التسيب . السر سيقظ في باطن الأرض . الأيام تمر . بولد

— لا ولسه ياما نشوف .

ليلة الامس . عاش ورداني ليلته ، كانه يعيش معركة ضد اعداء كثيرين ، لوثوا ارضه وحياته . بقع زيت ، اماكن دق الاوتاد ، انار عجل السيارات ، مكان المظلة جراح تملا ايامه . كان عليه ان يماربهم ، ابعده عن ارضه . ربطوه الى شجرة في ارض مجاورة راحوا يخرجون له السنتهم ، ضحكوا عليه . ورداني يكتشف انه غير مربوط ، غير انه لا يستطيع حتى ان يتحرك من مكانه ، وفي الجو ، كانت رموس الناس مقطوعة ، وعلى الطريق ، الابادى والارجل وقطع الاجساد وتقاط الدم .

— ايه يا ورداني .

— هيه .

يرفع وجهه للرجال ، في الغد يتسلم ارضه ، يعود اليها مرة اخرى . قال ابو السمود ، وهو يتكلم جادا بلا ضحك : مما دفع الناس الى الانصات له . ليلة الامس تأخرت في نومى ، سهوت كثيرا . الرجال ينصتون . كان ينام بمفرده ، وكان الناس اكلون لحما نيئا له رائحة ، الابادى يقطر منها الدم ، بين الاسنان لون احمر قان . كان هناك شخص ما يدور على الرجال ، يعطيهم اللحم بغير حساب ، يؤكد لهم ان هذا الشخص ، هو المعلم يعقوب ، يضيف ، ان امر الشخص محير ، مرة المعلم يعقوب ، ومرة فتحي سالم ، ومرة ثالثة العمدة . استيقظ من نومه وهو يستفتى الى الله تعالى ، الا يكون هذا الكلام صحيحا .

— قال الله ولا فالك .

قال ابو السمود : اللحم النيب في الاحلام فال سيء ، السوالم تنظرها ايام عصبية . سلسبيلة تجلس خلف النصب هادئة ، حزينة . تنصت لكلام الرجال ، وتدرك ان هواء العشة الليلية ، غير نقي وانه ملئ بارواح غريبة للدرجة انها تشمر بالزحام في العشة — يا ناس فضكوا من دى سيرة .

كل الرجال ، يريدون هذا من قلوبهم ، حديث الامانى ، شيء مختلف عما يقومون به الآن . الحال لن تطاق ، يتعاهدون على الكلام في موضوع آخر ويحاولون ، يختارون موضوعا بعيدا ، يتحدثون ، يبرحون مع الكلمات ، وتثقل الالسة ، وتلوك الاحرف . وفي النهاية فانهم يعودون رغما عنهم الى الموضوع الرئيسى .

يسمعون نخعة ، صوت واضح النبرات ، على باب العشة :

— يا ساتر .

— افضل .

— مساء الخير يا رجاله .

المهندس ، بمفرده . يدخل العشة ، يسبقه عطر ، يقف الرجال المرة الاولى التى يدخل فيها للعشة ، وربما كانت الاخيرة . سلم على الرجال . شاب مملى ، يتمتع بصحة جيدة ، ملابسه نظيفة ومكوية ، على وجهه بسمة عريضة . اخيرا يقف عصمت فهمى النجماوى امام سلسبيلة على الله . ارط سهما خوط من الضوء والرغبة والحزن ، يقترب منها على مهل ، يرفع يده ، تتسع عيناه دهشة ، يفتح فمه ، يرين صمت على العشة : وعلى الرحال .

— انت سلسبيلة ، اهلا ، سمعت عنك كثيرا .

يكمل وهو يسلم عليها :

— الحقيقة ، كان نفسى اشوفك من زمان .

تنام يدها الصغيرة ، بين كفى المهندس . يذكرها دفء اليدين بأشياء كثيرة دفعة واحدة . يوقظ في النفس الحزن والالم والذكريات . تستريح نفسها على وسادة الصوت الحنون . تستقر يدها في راحة كفه . لا ترد عليه ، تفعم الكلمات نفسها بالرجاء ، بجيش في وجدانها احساس بانغرية ، وتتصور ، وهى تنظر اليه ، شوارع القاهرة ، موجات المياه المرتفعة فوق سور الكورنيش في الاسكندرية ، اعلانات الامبسادير التى تنطفئ وتضى ، رائحة الشواء والدخان الخارج من ابواب المحلات بالليل ، الاصواء ، السيارات ، العشاق في شوارع الزمالك المظلمة ، السيارات الواقفة على جانبي طريق المعادى بالليل ، الهمسات والتأوهات والملايس الملقاة فوق المقاعد ، مناجاة ابن الجيران ، المقاهى المزدهمة ، شارع عماد الدين لحظة خروج حفلة تسعة من دور السينما . معاكسات الشيبان ، كلمات الفول ، ثرثرة السكرى في البارات .

— انا ماكنش فاكرك حنوه كدا .

حديث المهندس يتحول الى نفمة اشتياق عالية ، ترتعش لها النفس . وفي هذا المكان النائي ، البعيد ، المظلم ، فان سكر ، يتضح لها الآن ، ومع كلمات المهندس ، كل الاكاذيب التى عاشت عليها في الايام الماضية . ويسبح القلب في ابخرة الغضب .

— شرب الله يا مهندس .

— طلبه على حسابي ..

— على حسابي أنا ..

— عنكو ، أنا اللي عازمها ، احنا الاثنين غرب ..

سكت الرجال ، واحست بعنين في داخلها وهي تتحدث عن
الغربة :

— اسمعوا يا رجاله ..

يجلس الرجال ، يجلس المهندس ، وسطهم ، ينصتون له .
بيدا حديثه ، سكر تقول له : انه ضيفها الليلة . وانها سعيدة
به ، الرجال ينظرون اليها ، يقول ان الليلة ، ليلة فرح . وان
القلب بنفس عن نفسه الحزن والصدأ . يقوم سلسبيله ، نسوي
ملابسها ، وتذكر كم هي رائعة ، وتلمن السوانم وحجب الدين ،
وايامها التي مضت ، تمسك بيدها صينية صفراء ، عليها كوب
شاي وكوب ماء ، تقترب منه :

— اتفضل يا زين الرجال ..

في حديثها نحة ألم . يخرج الصوت من عمق الفم ، فيوتر له
الجسد ، تدوس على أرض العشة . تقترب من المهندس ، تشبه
فيه رائحة رجل . بقايا العرق ، رائحة التراب . الملابس التي لم
تنظف ، الشعر المثل بالمياه . يعود سلسبيله . في حركة بطيئة ،
الى مكانها خيف النصبة ، وهناك تجلس ، تطفئ الزبور ، تمد
يدها بسلك اراديو . يحول الى عينيها ينظران الى المهندس .
— احنا بنشوف بعض لآخر مرة الليلة .

اكمل المهندس كلامه ، قال لهم انهم لا يجب ان يياسوا . البترول
موجود ، كل الذي حدث ، هو تأجيل المشروع فترة من الوقت ،
حتى نكول كمية بترول كافية . ما يهمه هو ان يؤكد للناس
وجود البترول ، قد يختلف معهم في اكثر من شيء ، والاختلاف
امر مشروع ، هناك امر لاسبيل الى الاختلاف فيه . وهو وجود
البترول .

— دي حاجة تلخبط يا عم ..

— فيه حاجة هنا اتغيرت ..

— مستحيل نعيش ثاني ..

— كنا متاكدين من وجود البترول .

لاستطيع المهندس ان يرد على تساؤلات الرجال ، الكلمات
مسلية راحاء . ناطقة بمدى ما وصل اليه الرجال في الايام الاخيرة ،

احسن المهندس بالذنب . قال الناس لاذنب لهم فيما حدث . قال
بلاي كثيرا . كل شيء على ما يرام ، لو شاهدتم حل غيركم ،
لادركتم ان حالكم احسن من سواكم . قال : ان ابن عمه في
البلد . كان بلا حذاء . وليسبب ، هو ان اصيما من قدمه اليمنى
كانت مقطوعة . كان ابن العم يبكي ، يملا ايامه ولياليه بالدموع .
واشمعني اني يعني ، هوه انا كنت عملت ايه . ظل الشاب يبكي ،
يعيش حياته بمرارة والم . يقول المهندس : ظل ابن العم هكذا .
حتى ذهب الى مستشفى المركز . وعلى باب المستشفى ، شاهدنا
معا ، امام باب مستشفى المركز ، شابا آخر ، بلا قدمين . ان اهله
يحملونه الى المستشفى . يقول المهندس ، ابن عمه عاد الى البلد
على الفور ، قال لاهله : انه شاهد ، من هو اسوا منه . وعند
هذا الحد ، ادرك ان حاله لا تستحق حتى البكاء .

الحل هنا قال المهندس : احسن من بلاد اخرى ، باجماعة انا
من الفلاحين . فلاح ابن فلاح . حالكم دي احسن ، يا
باحسدكم . البترول مهم دا صحيح ، انما دا الي حصل .

يقول لهم : انه سيعود لهم ذات يوم ، الرجال يجب ان يذهبوا
الى حقولهم ، من الصباح الباكر ، لننسى ما حدث .
— بس ازاى يا باشمهندس ؟

— مش ممكن .

في اليوم : لتعبر ما حدث من كابوس . او حلما . ضحك
المهندس ، فلتكن حكاية مثل حكايات ابو السعود ، التي يحكيها ،
في الليالي الخوالي . الرجال يشعرون بكرهية نحو المهندس .
ما طلبه من المستحيل تنفيذه . يقول المهندس : انه يحب السوالم
ويعتبر نفسه جزءا منها ، خاصة وان البلد فيها رجال ، مثل
حب الدين وللموم وابو السعود والمعلم يعقوب وفتحي افندي سامي
سي ان يقول لهم والعمدة وشيخ الخفر . قال لهم : ان شئنا
السب سلسبيله عزاء كل الناس ، وهو يتحسر على الايام التي
مرت ، لانه لم يعرف طريقه الى العشة الا الليلة .
يا شماعة اهل البلد والبلاد الثانية فينا .

سلسبيله تجلس في مواجهة المهندس ، تحدق فيه ، تنرب
كلماته . انها تصحو الليلة من حلم طويل ، من نومة عمرها مائة
الف يوم . الناس تنتظر وعلى وجهها يستريح احساس مريح ،
انها تحرك عينيها الواسعتين ، وتعر على الرجال . وكل رجل

يؤكد لنفسه ، بطريقة ما ، ان بين هذه المرأة ، وبين المهندس شيء ما ، همس راجف ، قشعريرة ليلية ، وعود غامضة ، رغبات راعشة .

أما الباشمهندس منين ؟

يحسدها الرجال على جراتها . يلتفت الباشمهندس ، ترسم لئلا يده على أرض العشة ، خطوطا بالطول والعرض ، لحقول حرثت وخططت وزرعت غير انها أصابها البوار .

— مواد في الصعيد الجواني ، وشغلى في مصر ، وتعلمى كان في الاسكندرية .

— ياه .

وقالت لنفسها ، مرحى يا زمن النزوح ، الدنيا واسعة ، وانها هذه ميتة تنتظر يوم الدفن ، والدفن ككل ما في الحياة بالدور ، وكل شيء محسوب ، ان ما في الصدور كثير بلا حدود .

— والله حاتوحنونا يا رجاله .

يقول لهم عنوانه ، عنوان العمل والسكن ، يطلب منهم ان راسلوه . أما الذين سذهبون الى مصر ، لسبب أو لآخر ، فهذا هو رقم تليفونه ، في العمل فقط ، فالتليفون في المنزل ، امتياز خاص بالاغنياء فقط . يتساءل الرجال ، ان كان في مصر أم الدنيا اغنياء ، فقراء ، ومعجبوا من حال الدنيا . المهندس يحلف الناس ، بمقام سيدنا الفريب ، يطلب منهم ان يملوا عليه ، وسيكون تحت امرهم ، ولن يغفر لاي فرد منهم ان ينزل مصر ولا يمر عليه . — بكره حاتكون في مصر يا باشمهندس .

تسأله سلسيله ، الامر حقيقى ، قالوا لها ساعة الغروب ، ان الامر مزاح ، وسيتم ايضاح الموضوع في الليل عند حضور المهندس ، يبدو ان الامر صحيح . قام أبو السعد ، خرج دون ان يسلم على أحد . انه حجه الى منزل المعلم يعقوب ، سر سبط . يفكر في الامر . قال لنفسه : ان المهندس سيأخذ موته في اول الشهر . ممما حدث للبلد ، السواله والناس ، والامر لا نهمه . المصيبة ام تقع الا على رؤوس الناس في البلد . كانت البلدة نائمة ، غارقة في الظلام ، مقبوسة في الصمت . قال لنفسه : انه لن يفعل أى شيء ، الا بعد ان يسمع رأى المعلم يعقوب .

يطلب المهندس من الرجال في العشة ، ان يعاهدوه ، على ما تم الاتفاق عليه ، الرجال لا يدرون ما يفعلونه ، بل انهم لا يدركون ان

كان المهندس ، يتكلم جادا فيما يقوله . كان الموضوع كابوسا غريبا . طلبوا من الله ان ينجيهم شر الايام . كانوا ان ايام الابهاء والاجداد كانت خيرا من هذه الايام ، وان الايام القادمة ، ستكون اسوأ من ايامهم . قال الرجال لانفسهم : ان الامور كانت تسير حسنة أو سيئة ، المهم انها تسير باى شكل ، حتى اتى المهندس وها هو ذا ، يريد ان يترك البلد . ليت ما حضر .

سلسيله لا تسمع حديث الرجال ، انها ثملة ، اسكرها الحزن ، تنظر الى الرجال ، تدرك انهم متفاهمون دونما كلمات . الايام ثقيلة ، ثقل الحديد . وحكاية البشر والبشرول والحياة الجديدة ، ستتحول مع الايام القادمة الى حلم قديم صدى . يقول لهم : انه يعلم ، بوحي من داخله ، انه لا بد وان يتم اللقاء ذات يوم .

— ومسير الحى يتلاقى .

يقف المهندس . يتواعدون على اللقاء صباح الغد . وعلى الجسر ، سيكون الوداع .

— ما لسه بدرى .

— المهم تسلم على مصر يا باشمهندس .

يسرع في المرور توف ورعة . بمد له يده . تحض كفه يديها الاثنين ، ينام الصمت على صدر العشة ويخرج الرجال معه . — الا الباشمهندس اسمه ايه ؟

تقف سلسيله ، تنادى عليه ، تسأله عن اسمه . يقول لها ، وكان قد ابتعد عنها : عصمت فهمى النجماوى . تقترب منه ، بدون قد أصبح على الجسر . السجائر في الايدى ، ترتفع ، تدور في نصف دائرة ، تقترب من الإفواه ، تشتعل نارها ، ان انسجائر تبدو كالنجوم الليلية البراقة .

— انت اسمك عصمت بصحيح .

المهندس لم يسمعها ، تراه من الخلف ، تحاول ان تميزه ، تجرى . تراه عن قرب ، كثفاه متدلتان الى أسفل . يدها تطوحان في الهواء ، ورأسه مدلى ، والقدم تصطدم بأرض الجسر .

— انت اسمك عصمت بصحيح ..

لم يرد عليها . في العشة جلست سلسيله تبكى ، لم يكن هناك أحد .

الحديث عن البئر والبتروول والمهندس مساحات في القلب .
وحكاياته معلقة في أمانى العيون . والرجال لحدث لهم الا عنه .
شعروا ان الموضوع كله اكبر من فهمهم . فحاوروا ان يفهموه .
نعت منهم العقول والقلوب ، الحال يختلف الان . في كل مساء ،
يجلس حب الدين وسط الرجال في المشقة ، يشرب الشاي ،
ياخذ نفسا من الجوزة . يتراهن مع الرجال . على ان يشمل
النار من الجوزة ، ينظر في الوجوه ، يتفرس في الرجال . يقسم
لهم ان الايام القادمة ، ستحمل لهم حكاوى كثيرة . كلمات لا حصر
لها ، وعند سماعنا لها ، لن نصدق الاذان . سنكذب كل
ما يصل اليها ، انه يختم حديثه في كل ليلة ، بانه مازال
صغيرا في السن ، ولا يزال هناك متسع من الوقت ، سننتظر
ما تأتى به الايام القادمة . يصفق بيديه بعد ذلك « هيه
دنيا » ويرين على الرجال صمت ، يقول بعده حب الدين للجالس
بجواره :

— دا ملك منظمه سيدك .

حب الدين صامت الليلة . الوقت هو اول الليل . وحب الدين
يجلس في ركنه الصغير . قال له الرجال اكثر من مرة : مالك ؟
لم يرد عليهم . غمغم ، ما فيش حاجه والله . كان يتساءل : هل
يخبرهم بانه يتصور ان الامر كله خدعة ، اكلوبة من الاكاذيب .
أعمته الحيرة والتساؤلات ، قرا الفاتحة لمشايع البلد ، قال انه
ليس هناك اى شىء صحيح بالمره ، حاول ان ينعم بالوهم طول
النهار .

ذهب الى منزله ، وكان قد صبحا مبكرا على غير العادة ، كانت
سلسبله نائمة باندخل ، لم يشأ ان يوقظها . قال لنفسه :
النوم رحمة ، ولكن أين هو ؟ في الرأس صداع ، وفي الصدر
الم ، ولكن أين النوم : نام على ظهره : راح يتحسن الحصى
بيديه ، سرحت عيناه في السقف الواطئ . المخاوف تتحقق كلها
مرة واحدة . ادرك ان شتاء هذا العام ، لن يكون قاسيا . كان

يتصور ان النقود والبتروول والمهندس ، ستذيب برد الشتاء .
كان يقول : ان عدم وجود النقود ، هو سبب البرد . قال له
المهندس ، وكانا يسيران معا على شاطئ بحيرة تروقة ساحل مرفص ،
بمفردهما : ان المشى مريح جدا للصحة ، خاصة من اجل القدمين .
كانت تلك هي اسعد لحظتهما . أصبحت عادة ثابتة ومحبة ،
لم يكن احدهما يتصور ان ياتى يوم ما ، لا يخرجان فيه معا
ساعة العصارى . يتمشيان ببطء وبغير نظام ، لمجرد الرغبة في
المشى . الناس تحسد حب الدين ، على هذه اللحظة كل يوم ،
والحسد قد يصل احيانا الى درجة الكراهية الغمياء .

قال له المهندس : انه قد ثبت بالفعل ، وجود بتروول في
المنطقة ، الشركة لم توافق على الحفر ، لانه بتروول غير اقتصادى .
لاحظة . لم يفهم حب الدين ، بدت ايامه التي مضت ، كاحظات
مسطوة . غارقة في الوهم والصاب . وقال نفسه . ما احلى
العلم ، وشعر بالاسف لانه لم يتعلم في الايام التي مضت من عمره .
قال المهندس . مكثا حديثه : انه سيصفي كافة اعماله منذ
سباح انقذ . قد يرحل عن السواحل بعد ثلاثة ايام . ومجرد
وجودهم . يحمل الشركة نفقات ، وانه لا يستطيع ان يتحمل
المسئولة : ما دامت قد صدرت له التعليمات بنهى المشروع ، على
اساس ان المشروع مؤجل . قال المهندس : انه لن ينسى البلد .
ان ينسى حب الدين بالذات .

— انت شاب عظيم يا حب الدين .

— الله يخليك يا باشمهندس .

— انا مش باجاملك ابدا .

يسيران ببطء . حب الدين يسبح في بحار الدهشة ، يسيطر
عليه نوع ما من عدم الفهم . وحب الدين بطبعته بطيء في فهم
المواقف الجديدة . وهو عادة يستغرق وقتا ، حتى تفصل الامور
اليه . عصمت بالنسبة اليه ، لم يصبح مجرد مهندس وبئر
ومستقبل ، بل انه صديق من لحم ودم .

— دا معناه ايه يا باشمهندس .

— ولا حاجة .

— انا محتار .

— انا اكثر حيرة منك .

أخاديد المראה : تنسال خلال بسمه المهندس . انه يشرح .

يقول كلمات مرة ، وتحول كلمات المهندس الى أسئلة : ومن خلفهما ، كانت السوالم . تبدو لهما يتيمة : تتألم بصوت خافت ، تطلب الامان من الليل المقبل ، وان كانت تعلم انه امان مؤقت .
- انما يا باشمهندس . دا مستحيل
- واية الفرق بين الممكن والمستحيل يا حب الدين ؟

يتكلم حب الدين بلسان غير نسانه ، يدور اللسان في الفم دون أن يدري ، يلوذ الكلمات في فمه ويطنحها تحت الاضراس قبل أن ينطق بها . وبعد الحديث . بعد الكلمات المتناثرة والاصوات للآخرين ، تبقى في الذهن معان عالقة ، لم يعبر عنها ، تاهت في زحمة الكلام . حب الدين يتذكر انه لم يقل للمهندس ، ان اهل البلد ، خاصمو العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفر والخفراء ، خاصمو الحقول والسواقي والارض والبيوت والمياه . انهم لم يذهبوا الى الحقول منذ ايام . قضا هذه الايام ، على الجسر . في انتظار البئر والبتروول والمهندس . من الصعب على الناس ان يعودوا الى ما كانوا عليه . كانت الليالي طويلة ، وفيها حلموا بأشياء كثيرة ، والسبب هو المهندس .

حب الدين يريد ان يقول للمهندس . انه اكتشف الآن ، وبعد العمر الطويل . ان كل ما يحدث حوله . يتجه الى اسفل ، وانه يهيم في الحياة بلا هدف . وان طعم المرارة في فمه قد زاد عن حده . لقد طبع اللسان والاسنان والفم كله بلون قائم . نسي ان يذكر له ، ان الالفة التي تربطه بالبلد والناس قد انقطعت .
- انما الحكاية دي حصلت من قبل .

- حكاية ايه ؟

- ان الحفر تم . وبعد كذا يقف .

- طبعاً حصلت ..

- بدمتك يا باشمهندس . قول الحق ..

لا يرد المهندس ، يقول له : الرجال بدءوا يضيقون بحياتهم . افوها طوال سنوات العمر ، الحال تغيرت في الاسبوع الاخير . ابدى بعضهم ضيقه بسبب الظلام الليلي الدسم . وقال آخر : الى متى نعيش في البيوت الطينية ، وقال ثالث : الحياة اكوام من التراب ، تراب في البيت ، وتراب في الحارة والشارع والحقل ، وتساءل ابو السمود : كيف عاشوا السنوات التي مضت من العمر حتى الآن ؟

الحنك تصدم من فم حب الدين في سرعة . والمهندس توقف ، وهو لا يتكلم . يكتفى بالانصات . ينظر الى حب الدين وبسمة رضا تنير وجهه . ويقول لنفسه : ان كل انسان كنز في حد ذاته . ويقول انه كان ساذجاً . لم يكن يتصور ان يصل حكاية البئر الى هذه الدرجة ، وان يقول حب الدين كل هذا كلام . ان تندفق العبارات من فمه . عبارات جميلة . وان تانت مرة المذاق .

يعودان الى البلد . والشمس قد تحولت في الافق الغربي ، الى قرص في لون الدم . وقد اقترب من الارض . الظلال طالت . واشعة الشمس للينة تداعب الاشياء . لحظة الغروب . والمهندس يقول احب الدين : انه اكثر حزناً من اهل البلد . بسبب ماحداث . المشروع كان اول اعماله بعد التخرج . وكان يتمنى ان ينجح فيه . ماحداث فل سبيء بالنسبة لمستقبله . نجاحه في المشروع ، كان يعنى حياته ومستقبله . لا يستطيع ان يقول مع الناس . الموضوع كان «قسمة ونصيب» . بل ان هناك ظروفًا . هي التي حالت دون ان يتم المشروع في البلد . سارا معا . كانت الناس تجلس على افرز الجسر صامتين يردون السلام والتحيات ثم لا يتكلمون . الشارع الرئيسي ، الحوارى الضيقة . ارض الوقف ، الخيام . السوالم بحرى . الخيام والبيوت والناس . المهندس يقف امام الخيام . يتحدث مع حب الدين . يرفع يده . يسلم عليه . يسير حب الدين بظهره . يرفع يده . لا يكون ليده ظلال على الارض ، فيدرك انه المساء . يقف حب الدين ، يستدير . يسير ناحية البلد . حب الدين يجلس بالقرب من الرجال . وهو يفكر في حياته وحياة الناس ، بعد رحيل المهندس ، وطعم الحياة في السوالم ، عندما يحاولون العودة الى ما كانت عليه . انسام ، الضجر اليومي المتجدد . الرجال جالسون . يتحدثون . لقد كانوا يتحدثون عن المناصب والوظائف والحياة الجديدة . تناقشوا ، تعاركوا ، تركت الايام والليالي ندوبا في القلوب والنفوس والصدور ، كرهوا بعضهم لحد الموت .

بعد ايام ثلاثة يرحل المهندس . وتعود الحياة الى ما كانت عليه لن يوجد بتروول ولا مهندس ، يقترب الرجال من حب الدين ، يجدون انه يبتسم ، يتكلم بعبارات غير مسموعة :
- انما الموضوع صحيح يا حب الدين ..
- ماهو مش لازم التكد في اول الليل ..

- ايه رايك يا سلسيله ، ما تتكلمى .

يصمت الرجال ، يستنشقون روائح ايامهم الجافة ، ايام متوجة بالنوحيس والصلوات ، موشاة بالطمأنينة الكاذبة . انهم ينظرون الى الليل ، وفي الظلام تسبح المخاوف على اجنحة الظلام . حب الدين يجلس منكمشا على نفسه . وعبر عروقه يتمدد الوجع والاسى ، ويصمت الرجال ، وتحمل لهم الرياح ، من الشاطئ الآخر ، صوت رجل يتغنى بجمال الليل ، الصوت احلى من صوت اى رجل آخر ، الكلمات تدعو الحبيب ، اينما كان . تطلب منه الحضور ، كى يتمتع معا بجمال الليل . وكنسمة هواء رطبة . يرتفع الصوت ، هادئا واضحا ، يتحول الى نفمة حزن واشتياق ، ثم يبعد الصوت الى جزء صغير من كتلة الاصوات الليلية المبهمة .

- الحكاية كانت حلم ، احنا كنا مغفلين ، كنا مساكين ، انتو عارفين يا جماعة ، كل واحد فينا كان عامل زى الفرقان . زى ايه ، كان غرقان بالفعل . لقينا قشة ، قشاية صغيرة . قطعناها بايدينا واسناننا ، كل واحد فينا خد حته صغيرة ، وقال لنفسه خلاص الاشيا بقت معدن ، وسبحنا ، كنا عارفين ان الواحد منا لو طال الثاني حا يفرقه . انتو طبعا عارفين ايه الى حصل بعد كدا . اكتشفنا فجأة ، ان الى فى ايدينا مش قشة ولا حاجة . كل الى حصل ، اتنا قعدنا بعد كدا ، وما فيش حد فينا مصدق . نسبنا ان احنا غرقانين ، نضحك ونبكي ، وبعد كدا قعدنا ننتظر معجزة تحصل اتنا . قلنا يا خلق هوه ، زعقنا ، رفعنا رءوسنا فى الهوا ، ما كانش فيه حد خالص علشان يسمعنا او يشوفنا . اودان انسدت ، والعيون عميت . جت موجة عالية ، عالية . وتبان لازم نفرق ، كان لازم نفرق . انتهى حب الدين كلامه . وصمتوا ، كان الظلام مفروشا فوق صدر الليل ، وانزلت الامانى والاحلام الى اسفل ، تاركة الرجال يصعدون فى بخار الغضب والحزن ، كانت السوالم كلها صامته ، مفبوسة فى الدهشة والحنين ، وكانت نظرات الرجال مذبوحة ، وفى الصدور شىء ما ، كالانين الموجع . الرجال ينظرون الى بعضهم البعض ، وكأنيهم تجسس اخايد المرارة فى اعماق القلوب

رفعت سلسيله عينها من فوق النخبة ، نظرت اليهم ، دارت نظراتها فوق الجالسين فى العشة ، همست بصوت ناعس :
- وحدوه

منارت العبارات من افواههم .

- لا اله الا الله .

ضحك سلسيله .

- كمان وحدوه .

- لا اله الا الله .

يحدث احد الرجال ، وجه حديثه الى حب الدين . رجاء ان يخبرهم بالامر كله ، فى الحكاية نقطة لا تفهمها عقولهم . لم ته الحفر ما دام المشروع لن يتم ؟ . هذه النقطة تعذب الرجال . لم يرد حب الدين عليه . قال لهم : عليهم ان يصبروا . ذات يوم سيعرفون الامر ، ارتفع صوت يغنى فى الحنول . لقد اصبح الليل الان اكثر هدوءا ، والكلمات تسقط على القلوب فتوجع الرجال

- زرعت لو كان .

- سفيته ياريت .

- طرحت ما يجيش منه .

ينظر الرجال ، يكتشفون ان وردانى ليس بينهم ، لم يحضر الليلة اتى لعشة . تخيل الرجال ارض وردانى والبئر وخيام الغرباء . اكذ الرجال ان فى الامر سرا ما ، قالوا : فلندهب الى المهندس ، نعيد عليه الكلام ، المزاح فى هذه الامور ، غير مريح . قرروا الذهاب الى المهندس : غير انهم تكاسلوا ، فانوا فلندرجل الموضوع حتى افقد . طلبوا الشاى ، دخخوا الجوزة ، تحدوا فى كل الامور ، تمنوا ان يكون الامر حلما . الرجال يدركون ان السرور الذى نعموا به فى الايام الماضية ، كان سرورا كاذبا ، مسروقا . لم يكن من حقهم ، الكلمات تتراخى ، وتصبح اصواتهم ممللة بالنماس ، ويتمعن الرجال فى احلام الايام المهجورة ، وتبقى منها فى ماقى العيون اشياء عارية معلقة ، الاحلام وانبتول والمهندسين والحياة الجديدة .

- ولا يهكم يا اهل السوالم .

تضحك سلسيله ، تخدش ضحكتها الصمت ، ينظر الرجال زاجبتها :

- خبر ايه ، هوه انا كفرت .

تبلم ابتسامتها ، يبقى لهم الصمت ، افق شاحب من السكون واليقظة ، يمسكون به بين ايادهم . وفى نهاية السهرة ، يقسم احد الرجال ، ان الارض فيها بترول ، وانهم سيقتلبون على

المصاعب . ويطلب منهم ارجاء الموضوع الى الغد .

الرجال يعودون الى منازلهم المتناثرة في جميع الحارات المتباعدة . وفي الفاعات الضيقة ، المزدحمة باظلام والسم . المبينة بالهجر والحرمان . يجتروا حكاية البئر . ينفضون عن القلوب غبار الايام ، ويعودون من رحلتهم . يقولون لانفسهم ، في الليل الناعم . ان السبب في يقظتهم احارقة ، انهم عادوا منذ قليل من رحلتهم الطويلة ، من بلاد واق الوق . وانهم لم يجدوا كنوز الملك سليمان . ولم يكن هناك ملك بهذا الاسم . يقول الرجال : انهم عند وصولهم الى بلاد واق الوق . مرفا الوصل وبرا الامان . حطموا مراكبهم . انشعوا خشبها ، وعلى النيران ، اذابوا الخوف الجليدي النائم على الاعماق . وفي طريق عودتهم . كانوا يتدقون على مهل . لاحساس الطاريء بخيبة الامل . لم يجدوا ما يعودون به . صنعوا من ورق الاشجار مراكب . ومن ثيابا ملابسهم المزقة . اشبعه تعب الهواء . ومن شعورهم الموشه حبال . وعادوا . ذلك انه لابد من العودة في نهاية الامر . وقال احد الرجال لنفسه : ان الامور في هذا الزمان عجيبة . وانه محزن .

ذهب احد الرجال الى منزل ورداني . كان ورداني جالساً في روضه ستمود اليه ، وان المهندس سبترك البئر . وبعد . جبط على الباب ، وايقظ النائمين ، قالت له زوجة ورداني ، من خلف الباب : انها لا تستطيع ان تفتح . ورداني جاءته الازمة . لا يستطيع حتى ان ياخذ نفسه . وان ورداني والاولاد وهي جاسون جميعا ، ينظرون الى السقف الواطئ ، في انتظار ان تأتي الرحمة من عند الله .

رئيس المجلس .
قالت زوجة ورداني . واكن عصبها :

● خبر ●

يتسلم ورداني ارضه ، صباح انيوم ، من المهندس ، بعد عمل معدات الحفر . ويقلل ان البئر المحفورة في وسطها لم تزد بعد ، فظلت كالجرح في قلب الارض ، وتبدو كميات الطين الخارجة من رحم الارض ، للعبون وقد جفت . بفعل الشمس والهواء واخبار ونظرات الناس ، ويقال ان ورداني لن يرد للشركة ميمما من ايجار الارض . يقول ورداني لنفسه : ان الارض والبئر وما فيها . ستمود اليه ، ورداني لا يعرف ، هل يفرح او يحزن ، ورداني يعود الى منزله ، متمشياً على مهله في الحواري الصغيرة المتباعدة . يصل الى حارته . يقف في اولها ، امامه تصعد الحارة الى اعلى . البيوت الواطئة ، مساحات من التراب على الارض والجدران والنفاد ، الابواب المنكفة على صدر الحارة الرجال احجائز . الاطفال الصغار ، في الابادي بقايا طعام جاف ، الميون الذابلة . المحاجر التي اكلها الصبر والسهاد والمرض ، انعمت التي تطل من جوف البيوت ، بلاد الارض ، آخر أشعة الشمس المنكسرة على اسطح البيوت . الحارة من جديد ، تزحم انفه رائحة التراب . وينتفش الهواء مثقاباً رائحة البيوت ، ويسمع ثرثرة الناس ، كلمات قيلت من قبل . في حقله لم يشم رائحة الخصوبة . معالم الحقول فقيرت . اباد جهنمية عشت بها . بعد منتصف الليل ، الظلام ، السم ، النجوم الالامعة تبدو كثقوب في رداء الليل . الظلمة شقي الحلو : السر ما زال بعيدا . السوالم تعود الى ما كانت عليه . في الغد ، سيذهب ورداني الى حقله . سيعالج الامر ، يستر العورة التي رآها كل الناس دونما رحمة . وعندما يهب هواء الصباح الطرى . المشبع بالندى ، قد يفصل عن الارض عارها . ورداني يصعد في الحارة ، يتوقف في المنتصف ، من تحته نزل الحارة حتى الشارع الرئيسي ، الذي يقسم السوالم الى

نصفين . في الشارع اطفال صفار ، رجال عائدون من الحفول .
ومن اشوارع ، صعدت نسمة هواء خريفية . على البعد .
تنمئس آخر اشعة الشمس ، فوق اعالي الاشجار والنخيل
واسطح البيوت . ورداني يدرك انه لايد وان يواجه الارض بمفرده .
ورداني يستدير ، يصعد في الحارة ، في وجدانه تنسل كلمات
وال حزين ، وعلى الجدران البليدة رسومات . كلمات من ايام
لانتخابات لتي مضت ، وفوق البيوت عيدان حطب ، غسيل
منشور ، غرف صغيرة ، مخزن معاش ، لا شيء تغير في السوالم
وحتى عودة الارض اليه ، واستلامها ، لا قيمة لها عند الناس .

● اشاعة ●

ارض ورداني ، ارض مسكونة ، يسكنها اهل الجان . جعل
الله حديثنا خفيفا على قلوبهم واسماهم . وعندما تم الحفر من
قبل . لم يستدبرهم احد من ابناء السبيل . لهذا غضبوا من اهل
البلد . والمطلوب . عمل «ختمة» لهم ، حتى تنفك العقدة . ويمنحوا
الارض الامان ، ويظهر المختفي في باطنها ، على ان تكون الختمه
بله الجمعة ، وان يلذع فيها ثور اسود غطيس ، ولا يوجد في
جسمه شارة بيضاء ، يشتري من بلد ، يقع بحرى السوالم وليس
قبلها . ويستحم في مياه النيل ، قبل الذبح بيومين ، عندئذ
ستجود الارض بسرها العظيم . ورداني يشعر ، بختين دافئ يهب
عليه . انه سمى بى زوجته عازة ، ان تكسر نظراته عن جسدها
الابيض . تذكر في هذه اللحظة ، انه لم ير جسدها عاريا من قبل .
وتذكر ان اصابعه الخشنة قد تمر على النعومة الحريرية لجسدها .
الحجرة تكون مظامة ، وصوت تنفس الاطفال النيام حولها يزحم
الليل .

ورداني يضع قدمه على عتبة داره ، ثمة وقت للزوجة والاولاد
وسط عناء العمل . واجهة منزله تطالعه ، باب صغير منخفض .
من خشب تاه لونه لاصلي ، عليه آثار دماء متجمدة ، حل لونه
الاحمر . يقول ورداني : ان الدماء هي دماء خروف ذبحه ، بعد
ان اعاد بناءها ، وانه صيغ الباب بدمائها ، بناء على طلب الجزاء ،
وحفظ نفرويه تمام عليها في ليلتي الشتاء الباردة . في منتصف
اطار الباب العلوى ، حدوة حمار صدنة ، مثبتة بمسامير من
الخشب ، فوق الخشب ، تصطبغ نظراته بيلادة الجدران
الطينية . من الباب يبدو وسط داره ، يهب عليه من داخله ظلام

رطب . من داخل وسط الدار ، تتحرك زوجته واولاده ، ورائحة
الدخان تزحم المكان .

ورداني .

— نعم يا باشمهندس .

— دلوقت انا باسلمك ارضك ، وطبعاً انت استلمت كان
مستحقاك المادية عن استغلال الارض في المدة التي فاتت .

— حصل .

— ارجوك ، وقع لى هنا ، باستلام الارض .

— حاضر .

— وقع لى هنا ، بانك استلمت كافة مستحقاك .

— حاضر .

— احنا ظلمناك في حاجه يا ورداني .

— ما حصلش .

يمسك ورداني القلم من يد المهندس ، يشير له حب الدين
باصبعه الى المكان الذي يجب ان يوقع فيه . ورداني لايعرف
الفراءه . يعلم في القسم الليلى كيف يكتب اسمه فقط . ينظر
ورداني الى حب الدين ، تسال عيناه عما في الورقة . ورداني
يعرف ان القلم والاوراق تخون اجدع الرجال . الحكاية مرة
كالقلم . ورداني يتذكر ، انه ما من مرة ، أمسك بالقلم ، ونظر
الى ورق ابيض امامه ، كي يوقع فيه بامضائه . حتى يخاف من
المحضر والحكمة والحر والمركز . واضرب على الفنا والمصاريف
ودفع الريال للشاويش في التوفيقية والوقوف بلا سند امام
الحكومة . ورداني يقرب عينيه من الورقة . يدب له الورقة كشي
لايمك فهمه ، ان تشابك احروف كالمناهة ، كسكة الثعبان عندما
تعبير الطريق الزراعى وقت الظهيرة ، يعاود ورداني النظر الى حب الدين :

— يا راجل امض عيب .

يحرك ورداني يديه ، يكتب اسمه ، ويعطى القلم للمهندس .

— شوف ارضك وحدودك .

تتحرك ورداني ، شعر نخج . العيون تفرس نظراتها في
جسمه ، يدور حول حقله من الجهات الاربع ، يجلس ، يتحسس
الحديد ، يدرك انه في نفس مكانه ، وان جيرانه كما هم . قديما ،
قبل ان يموت والده . رحمه الله . نصحه بان يعلم حدود حقله
علامات لا يعرفوا اجد سواه ، ابناء الحرام ، لم يتركوا لابناء

الحلال شيئاً ، في هذه الايام ، اى شيء ، هذا زمن ايام السوء ، وقد ينفلون الحديد بالليل ، فتقل مساحة ارضه وهو لا يدري . من يومها ، وهناك علامات صغيرة ، بجوار الحديد ، طوبتين من الطوب الاحمر ، عود نجيل مربوط عليه فتلة دويرة من المنتصف وفي آخر الدويرة عقدة لا يستطيع احد ان يعقدها . دار ورداني حول ارضه ، تاكد من الحديد في الجهات الأربع ، تحس الارض بيديه ، ثم سار ناحية المهندس :

- خلاص يا باشمهندس ، لارض زى ما هي ..

يقف المهندس ، تعبت نسيمات الخريف بملابسه ، يلف الاوراق ، يضع القلم في جيب قميصه . يمد يده لورداني ، يبدو اتساع الحقول ، كأنه يسبح في نفوس الرجال ، ورداني ينظر ناحية الشرق تلتقي زرقة السماء الغامضة بسواد الارض ، وعلى خط الافق ، شراع سفينة ، تسبح في انبيل ، وغراب يطير في السماء ، وخط اشجار يمتد على طول الطريق الزراعى .

- ورداني .

- ايوه يا باشمهندس .

- في الحقيقة ، انا مش عارف أهنيك بأرضك ، والا اعزى اهل البلد .

مرت فترة صمت ، لم يتكلم احد . احس ورداني انه من الواجب عليه ان يقول اى شيء ، الكلمات تاهت منه ، تذكر ان هذا الرجل ضيف عندهم ، وان سكوته قلة ذوق ، بحث في ذهنه عما يقوله ، حرك شفتيه ، رفع يديه في عجز وتسلیم .

- الحكاية ان احنا زعلناين عشانك ، كنا عرفناك واللى تعرفه احسن من اللى ما تعرفوش ، اهل زمان قالوا لنا كذا .. اصل . لم يستطيع ان يكمل حديثه ، حرك يديه ، هز المهندس بده ضراب في وجهه :

- اهلا بيك يا ورداني .

سار الرجال خلف المهندس ، استدار ورداني الى ارضه . قال لنفسه : هذه الارض ليست ارضه ، لقد ورثها عن ابيه ، انها امانة لابنائه يسلمها لابنائهم من بعده . ارضه هي ما يشتره بنفسه ، من حر ماله وعرق جبينه . اما هذه القطعة من الارض . فما عليه الا ان يسلمها لابنه الاكبر . تصور ورداني . وهو يقف على رأس حقله . انه بتسليمه الارض للمهندس . قد خان العائلة

وان عظام ابيه قلقة في قبره ، كان يجب ان يدافع عنها . حتى ولو ذهب الى السجن . قال ورداني لنفسه : انه كان جباناً ، اليوم الذى ياتى لا يمكن ان ياتى يوم آخر مثله . رجال هذا الزمان ليسوا رجلاً . قال له والده : من يفرط في ارضه ، فقد فرط في عرضه . الايام ليست سهلة ، سأل نفسه : اين هم الرجال الذين كانوا سيقفون معه في وجه المهندس . لقد نسي خيانة السوام له ، تركوه بمفرده امام الحكومة ، مما اضطره الى التسليم . والعزاء الآن . نه في باطن الارض ، يوجد السر . الذى سيكون له وحده . استشهد بنجوم السماء ، كان الهواء ممتداً على البساط دائرياً حول حواشى الافق .

ورداني يقف وسط دره ، وزوجته تحادثه ، وهي في آخر وسط امدار :

- مالك يا ورداني ، لازم صدرك تمبك ..

امامه حجرة صغيرة ، ينام فيها بالليل مع الاولاد . يستقبل فيها الضيوف ، ويجلس فيها ايام الاعساد والمواسم ، تفرش الحصر الجديدة ، تسند الى الجدران ، مساند جديدة في وسط الدار ، باب صغير ، يفتح على الزريبة وحجرة المعاش . بجوار الباب سلم خشبي يقضى الى سطح داره . وفوق السطح غرفتان : غرفة يضع فيها خزين الحبوب ، واخرى تربي فيها زوجته اراتب كثيرة ، تباع يوم السوق ، ولا يأكل منها الا نادراً .

يجلس ورداني وسط داره ، كل ما حوله يؤكد ان الليل احتوى البلد بداخله . ومع قدوم الليل ، يخاف ورداني ، يدرك انه يموت ، وقد لا يرى القدر . وستبقى لحظة انتصاف الليل ، هي لحظة مجيء الازمة . ان ورداني يشعر بضيق مفاجيء . يقوم ، يخرج .

- ما تستنى لما تعشى العيال ..

يستدير ، وهو على الباب . ينظر الى زوجته واولاده ، لا يرد عليها . السوالم تستسلم لعالم الظلام ببطء ، والشمس واهبة الحياة والنور ، اختفت . ورداني يسير مسرعاً ، وفي انفه رائحة اختمار الارض الشراقي بعد الري ، وفي اذنه آنين الرياح في اللبالي الشتوية . وفي الصدر احساس مبتل بالحزن .

قال ورداني : في صباح القدر ، سيذهب الى الحقل . هناك سيواجه ارضه بمفرده ، الارض أصبحت غريبة عليه ، وفي القلب والعين ، ينمو احساس مر بالخيانة .

١٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٤ .

في صباي ، كنت أحلم ، بأن أقضى العمر في المدن الكبيرة .
أعيش حياتي بالطول وانعرض لعمق والارتفاع ، في ساحات
اقتال الواسعة ، أماكن يسيل لها اللعاب ، بلاد الثلج والضباب
في شمال أوروبا ، مساحات النباتات في المناطق الاستوائية ، فوق
ظهر باخرة ، تذهب حتى القطب الجنوبي . وهناك تمزق امتار
المجهول . حلمت بالسفر الى بلاد بعيدة ، المدن النحاسية ،
البلاد المفسولة برائحة الكافور ، التمنى بأحلام لن تتحقق أبدا ،
الرغبة في عناق العالم بساقين من الحب والرغبة . اسمع الأغنيات
انغذية على ضفاف الدنوب . اشرب الفودكا في تروى سيبريا
الخالية . اتناول الخراف المشوية في خيمة مفروسة في وسط
صحراء مترامية الاطراف ، مرتديا ملابس أمير عربي . أدور في
بلاد لا أعرف من لغة أهلها حرفا واحدا . أصبح بصوت عال :
ليس أحماقة قلوب أجبر من حدود . حتى شاء لي أن أواجه
مصري بمفردي . في تلك البقعة الموحشة من العالم . كانت ممركي
الاولى . وذلك هو ختامها .

قد يشك من كافة التحليلات : أحببانا . ومن خلال البئر
الاختبارية وجود بترول بالفعل ، قد يكون بترولا غير اقتصادي .
بمعنى أن العائد من البترول المستخرج لا يغطي نفقات الحفر
والاستخراج والتكرير ، ويكون التصرف في مثل هذه الحالة أن
يُحجّل المشروع فترة من الوقت ، فترة طويلة . قد تفصل الى
مئات السنين تتحول البئر خلالها الى بئر اقتصادية ، وقد تبقى
كما هي .

في أيامي الاولى ، كان عندي يقين انه يوجد هنا بترول ، وان
المشروع سيتم على الوجه الأكمل ، وبدأت خطوات المشروع ،
الدراسات النظرية ، حفر البئر الاختبارية . ومن خلال هذه
الخطوات ، أمكن التوصل الى حزمة أمور هامة . تحدد اقتصاد

المصيدة البترولية ، غور البئر ومساحتها ، سمك الطبقات
الرسوبية ، بيانات جيولوجية واقتصادية . تقييم للإمكانات
البترولية في أجزاء المنطقة ، توصيات عن مناطق أخرى ، تستحق
دراسات تفصيلية . ومن خلال الدراسات ، توصلت ادارة الشركة
الى أن البئر الموجودة في أسوالم ، بئر غير اقتصادية ، وبالتالي
توقف المشروع . قلت لهم : هنا بترول ، شُيِّمت وانجته
واحسست بوجوده ، وقررت عنه في عيون الرجال ، قالوا انه
بترول غير اقتصادي ، فلم انطق حرفا واحدا بعدها .

أما في هذا أيام قلائل ، كي أنهى المشروع ، أسلم الأرض الى
ساحبها ، أخلع لخيام ، أرسل المعدات الى الشركة ، أشكر الذين
عاونوني . ما يهمني هم الناس . كانت الناس قد تركت العمل في
الحقول ، وراحت تنتظر البئر . اتساءل : كيف سيذهبون ذات
صباح الى حقولهم ، يزرعون ويقلمون ويعيشون حياتهم اليومية
المألوفة ، ذلك صعب عليهم ، بدأ بعض معاوني في السفر ،
أحسست بالضيق ، قلت لمعاوني انني لا أريد أن أقابل أي فرد :
- حتى ولو كان حب الدين ؟

تذكرت انني نسيت ، لم أرد عليه ، دخلت خيمتي ، كنت
أفكر في أمر حب الدين ، أهم الناس . رجل بسيط ، لم يتعلم
كثيرا ، ولا يزاوِل مهنة يعيش منها . في دخله شيء ما يميزه عن
باقي الناس . أحببته ، استريح له . تصورت انني سبق أن
فأبأت حب الدين من قبل في مكان غير أسوالم . انه شاب لطيف
وضع في مكان غير مكانه . قلت لنفسي : أصعب الأمور أن يفهم
الناس ما حدث ، وقد أتكلّم مع الناس ، يهزون رؤوسهم علامة
الفهم والموافقة ، البدلة التي ارتديها تقيم مسافة بيني وبين الناس
بعد أن أتكلّم ، أحدهم يقول شيئا ، لا يعترض ولا يناقش وإنما
يعطى حيل الحديث . أنا لا نتعلم شيئا ، ذلك أننا لا نجد متسما
من الوقت كي نتعلم ما نجهله ، الأيام تدفعنا الى اللعب ، يشرح
أنا شخص ما قواعد اللعبة ، بسرعة وبعبارات خاطفة وبلفة أخرى
غير لفتنا . وفي أثناء اللعب ، عندما نرتكب الخطأ الاول ، ولو
كان ذلك بحسن نية ودونما قصد ، فنحن نفتال بلا سبب .

- المشروع حائِزٌ ، بصفة نهائية باعصمت .

- حاضر يا أفندم .

رفعت عيني اليه .

— بس يا أفندم .
— فيه آيه يا عصمت .
— لا ولا حاجة .

كنت أريد أن أقول ، ما ذنب الناس في السوالم ، كنت أريد أن أحسنه عن حب الدين وورداني وأبو السعود والمعلم والمقوب والعمدة والأرض والحقول والجسر . سلم على ، ودعني : ركب سيارته ، تركني وحدي . وأمامي في السوالم كان العسل ، أجلس في خيمتي ، أمامي خطوات المشروع ، لرسومات ، الخرائط كامات مدونة بالحبر ، عبارات بالقلم الأحمر ، توقيعات ، لمرض على ، نصديق ، يعاد النظر في الموضوع . مرت بأصابعي على المشروع وذات نفسي : الاحلام هنا في أحروف الصغيرة : على الأوراق . وخارج الخيمة ، في السوالم كلها ، لم يكن هناك شخص يعرف الخبر ، قررت أن أخبرهم غدا ، في سبعاة المعاري ، على أن أخبر حب الدين أولا ، في سيرنا اليومى .

— النتيجة دي زعلتك يا عصمت .
— هيه ، لا يا أفندم .

قالها وهو يقف بجوار سيارته ، تعثرت الكلمات على لسانى ، قلت لنفسي : أن لصمت الزاخر بالمرارة ، خير من أى كلام . أحضرت ورقة صغيرة ، ساسطر فيها رسالة الى أهلى ، أقول لهم فيها ، فشلت في مشروعى ، قد أحصل على اجازة طويلة ، أقضيها هناك بينهم في قريتنا التى تنام في حضن الجبل والنيل . سأقول لهم : أن سافرتى الأولى ، لم تصل الى نقطة ما ، والسوالم يا والدى ، كانت مرفا الامان وساحل الهلاك في نفس الوقت .

أن ما يهمنى ، أهل السوالم . البشر والبتروول والمهندسدس والحياة الجديدة ، يتحولون في حياتهم الى كذبة كبيرة . وحتى لو قلت إن كل السعداء على الأرض ، لا يملكون آبار بتروول ، ولا حياة جديدة ، فما استمعوا الى كلمة وأحد منى . أقول ، وأريد أن يسمنى كل رجل في السوالم ، أقول بصوت عال : أن هذا البلد في حاجة الى نبي ، رسول جديد ، يوقظ المرتى ، ويغسل الالم ويمسح الجراح . كل ما في السوالم يوحى بالقدم . أن الزراعة والرعى وحياة الناس من ميلاد ونمو وحب وزواج : كل ذلك يجرى ، كما كان يحدث منذ ألف السنين . الرجال يزرعون لأنه ليس هناك عمل آخر يمكن القيام به ، أنساءل : هل هؤلاء

الناس رى فيما يحدث . وعندما استمع الى اخبار العالم من لراديو في آخر الليل . القاهرة تحبكم . اغفاء تكيثا خروشوف من جميع مناصبه . انهيار الحكم العسكري الرجعى في السودان . الصين تعجز قنبلتها الدرية الاولى . قرض من الاتحاد السوفيتى قدره ٢٨٠ مليون جنيه وذلك لاستصلاح ٢٨ ألف فدان . سقوط حزب المحافظين في لانتخابات البريطانية وتآليف حزب العمال للحكومة الجديدة . ادرك لحظة سماعى لهذه الاخبار ، أن ذلك يحدث في عالم آخر ، كوكب شقيق لنا . الناس ممزولون عن كل ما يحدث . وأن سمع أحدهم ما يحدث . وعرفه بالصدفة ، فإنه يفتح عينيه اللتين بلا رموش . ويتوقف في مكانه ، يفتح فمه ، يقول : ياه ، بقى كل ده يحصل في الدنيا ، يا أخى دي الدنيا واسعة . ثم يمضى في طريقه . كان الامر لا يهنيه . أقول : الناس مبرتى ، يدفنون كل في ميعاده ، وكل ما يطلبه الناس في الفترة التى تسبق الدفن ، فترة الانتظار التى يسمونها العمر ، أن يكون الاكل والشرب والزوجة ، مضمونة حتى آخر أيام العمر .

انذكر كل ما حدث . كنه كابوس . مقابلتى للعمدة ، رئيس مرة ششت الانعام . معاون نقطة البوليس ، مفتش الصحة ، رئيس مجلس مدينة أبتاى البارود . أعمدة رجل غريب الاطوار ، كيف كنت ساتعامل معه . رجل بليد الحس ، رجل أعمال متخلف . لقد كنت أريد أن تمتلىء العيون والقلوب والعقول بأشياء أكثر انسانية . انتهت حكايئنا ، وغدا أو بعد غد ، يجلس معهم حب الدين على الجسر أو في العشة ، ويحكى لهم حكاية البشر كلها وعندما يחדش شكل الحياة حادث جديد ، فإن الرجال يعجزون عن فهم الأحداث مهما تكن بساطته . السوالم كلها ، تلك الكتلة الصماء من الناس والأرض والبيوت والحوارى ، قادرة على فهم الاحداث بطريقة بالغة الفراية .

في ثنائى الأخير معهم ، شعرت أن التفاهم قد تم دون كلمات ، كان طلفاء نوعا من الصلاة ، صلاة جديدة . صلاة صامتة . كنا نصلى معا : للأرض ومياه التربة وزرقة السماء وترب الموارى وجدوان البيوت ، ولم يكن أحد يدري ساعتها أن ذلك اللقاء ، هو اللقاء الأخير .

الناس هنا أمام اختبارين : وفي هذا امام الصغير المحدود ، القائم على قيم معمرة ، وشكل واحد ، ممل ورتيب للحياة ،

يصبح السؤال شاقا وعسيرا ، ويصبح الجواب عليه في رهبة
أثوب . عليكم يا أهالي السوالم أن نخشروا ، وأنا أشتق عليكم .
عندما أخبرت الرجال بالأمر ، نظرت إليهم ، وجوههم قاسية ،
يتلامح فوق جلودها النحاسية عناد الريف الصامت ، وادركت أن
الصبر الإيوي المتربسب في نفوسهم ، يستيقظ الآن ، وقلت أن
هؤلاء الرجال ، لن يتنازلوا ، لن يتراجعوا بعد ذلك أبدا .

كان الليل قد استقر في الخارج ، وكانت السوالم كلها نائمة ،
خرجت ، أمام الخيام ، وقفت بمفردي .
- من هناك ؟

كنت أود أن أصعد فوق مئذنة سيدي أغريب ، ومن فوقها
أنادي بصوت عال ، أصبح : يا أهل السوالم ، قبلي وبحري ،
يا أيها الجوابون التمساء في رحم الليل ، حينما يحمر الفجر ،
وينشر شفقه الأحمر على صفحة السماء ، لن تبصروا أثرا لطريق
العودة ، من سفر كل ليلة ، ولكن لم العودة إلى السوالم .

الظلام ووشوشات الأشجار وأصوات الليل تحمل الدهشة
والحنين . بدا لي الناس في هذه الساعة ، يغزلون من ظلام الليل
أحلامهم ، ويتمدد الليل في أعماق الرجال . حاولت أن أقرا
الظلام . قال لي الخير أنني بدأت تجربتي الأولى ، ولكنها جرت
بشكل غير سليم ، الحياة ما زلت ممتدة أمامي ، وأنه ما زال
هناك متسع من الوقت ، كي أفعل ما أريده .

القاهرة من جديد ، المذهب إلى المنزل بعد الظهر ، تناول
طعام الفداء في المطاعم المتوسطة ، الجلوس في صدر المهي في
السابعة مساء حل الكلمات المتقاطعة ، قراءة صحف المساء ،
الاستماع إلى فضائح مدينتنا النحاسية ، الشاي والقهوة . لعب
الطاولة والدمسو . قرقرة اللب . تلميع الحذاء . التشراب ،
الاحساس بفراغ عذب . الضام ، التسكع في الشوارع ، العودة إلى
المنزل ، وفي الحجرات الصغيرة ، نجتر الاحزان ، ونأمل ما في
هذا العالم من شجن ومرارة وأخفاق .

وهنا ، في السوالم ، سيقضي الرجال . أيام العمر ولياليه .
في انتظار أن تتحقق المعجزة في حياتهم ، ويمتلك البسطاء الأرض
والماء والفداء . وقد يبذر الرجال في رحم الأرض أحلامهم .
وينتظرون ، حتى يتحقق لهم كبرياؤهم الخاص . وعندئذ قد
يمتلك الناس الأرض والحياة . قد يشعرون بأنفسهم ، ويشامون

على الاسرة ، ويستحمون مرة في الاسبوع ، ويقضون حاجاتهم
داخل مراحيض نظيفة ، ويشربون مياه نقية . قد تمتلئ المحافظ
بالنقود ويتعلم انصبة ، قد يمسك الرجال بالجراند اليومية
معدولة ، ويفهمون الأحرف السوداء عليها . وحتى يحدث هذا ،
سأنتقل ، أنا عصمت فهمي النجماوي ، أجوب البلاد ، مزهوا
بالتكساري ، وقبل أن أرحل . أن أسافر بعيدا . يجب أن أقول
لأهل السوالم ، ماذا أقول لهم ؟ أوصيهم بالصبر إلى أن يأتي
الخير . أننا نهزم وبعد الهزيمة . لا أحد الوقت الكافي كي يعاود
السكر . فالمت يجرى سريعا .

جمعت أورقي ، وضعتها على المنضيدة . أعددت فراشي .
وحلب . انصت لملصم الليل . وقبل أن أرحل ، قبل أن
ختم السفرة الأولى ، سأدور في حواري البلد ، وسأذهب لأول
واحد مرة إلى عشة سلسيله ، وأرمي على النسي والبيد السلام
الأخير . في الليالي التي مضت . كان الرجال يذهبون كل مساء .
إلى عشة سلسيله . عشة صغيرة على شاطئ النبعة ، وفي
الليل . اشترط الضوء تبدو من خلال ثقب العشة . أمام العشة
يلمع رصاصية الماء ، ووسط الليل الصامت الهادي ، تبدو
العشة كتلة من الحياة الصاخبة ، مدفونة تحت صمت السوالم ،
وفي المنتصف طبلة قديمة . في آخر العشة من الداخل قفصان
قديمان كفا على الأرض ، فرشت فوقهما جرائد قديمة ، وفوق
أوراق الجرائد : أكواب ، صينية شاي صفراء ، أحجار جوزة
فارغة ، ماشه . وأنرجال يكونون دائرة حول الطبلية .
لن أنسى ذلك أبدا .

عندما ذهبت إليهم ، أفسحوا لي مكانا وسطهم . جلست .
سأولت من يد سلسيلة كوب شاي صغير ، عبارة عن سائل لرح
غامق السواد . مرارته مركزة . يترك أثرا دسما على اللسان . ويحد
التردد على مكان مرفيع بجوار سلسيله . صوب عال ولا أحد
ينصت إليه . نسيت أن أقول أن سلسيله رائعة . جميلة .
نساءت لحظة مشاهدتي لها : كيف كانت تعيش هنا . جلس
الرجال في مواجهتي ، ابتعدوا عني : لم يكن يجلس بجواري أحد
منهم . ذكروهم بالحاكم والمحكوم ، والحكومة ، كما قال لهم حب
الدين من قبل ، لا أحد من رجال الحكومة يجلس لرجال بجواره
النظرات متبادلة بيننا ، الصمت يزحم المكان ، اقترب حب الدين

منى . في يده الجوزة . الرجال تنظر اليه بدهشة . قدم الى
الجوزة . لم اشأ ان اردھا . دسست غابتها بين شفتي . سحبت
نفسا . شيء حاد ساخن يسرى في النفس ، يختلط بمرارة ودسامة
الشئ . يشيع في النفس سرورا مفاجئا . تعتمد سخونة هادئة
من الصدر الى الراس . ان لكل مجموعة من الناس سرانهم
الخاصة . ومهما تكن الحياة جهمة شائبة . فان الناس قادرون
على خلق مسرات صغيرة . يستسلم الراس . تدور الغابة بين
الرجال . تنعقد سحابات الدخان الازرق في جو العشة . لا يبدو
من الرجال سوى انصافهم . تهيم النفس ويغيب العقل . وتبدو
سلسلة كحلى نساء امهات . ولبس لفسى . من الى جدران
واسع وطاوية من الحوف وقدم تشققت من اثر مباد البرى . وصدر
مغطى بالشعر وشارب كث وذقن غير حليق . وعند هذا الحد .
ستبدو سلسيلة غاية المنى . تتحرك اللسنة . واهمس في بطن . وتشاغل
ان جسد سلسيله وعد بلذة دائمة . وانها احلى من نساء
الفاهره . اين كانت في الايام الماضية . وبصيني هم مفاجيء .
دائما تكتشف احلى الاشياء بعد فوات الاوان ، نحب بعد تساقط
نعيرات الراس . نتزوج بعد ان نصيبنا الكهولة .
- ضمنى وانا اضمك ، ليل الشقا طوبل .
شمس المعصاري غابت . ياللى بلادك بعيدة .
- سلسيله . منى . اسباب الكدمات في حطرى . وفي
الاعماق . كانت الدموع الدافئة تسبح . نظرت حولي ، كنت نصف
نالمة . وفي جز العشة ، كان الصخب والضجيج .

يوم الوداع .

٢١ ديسمبر سنة ١٩٦٤

خيـام الغـربا

قال عصمت لنفسه ، على غير موعد سيكون الرحيل . بدا العمال في فك الخيام ، حمل كل منهم اشيائه الخاصة . ورغم شكوهم الدائمة من الحياة في السـوالم ، واستعجال الرحيل ، ولتباكي من ظلم العالم الذي رماهم هنا ، ذن الرجال هذا الصباح ، يشعرون بحب للسـوالم .
- والله الدنيا دي عجيبة
- حد كان يصدق

وفي مكان الخيام . يبدو آثار الجياه . حفر مكان الارداد . اماكن نظيفة من الارض ، بيضاء لاصقة ، مأكس اسره ومكانب ، اعقاب سجاير ، فضلات مياه مداوقة ، اوراق ممزقة ، غلب بردين فارغة ، ومن اجهات الاربع ، كان اهالى السـوالم ، يقفون في صفوف . عصمت بعف في مكان مرتفع ، ينظر الى الناحية البحرية ، حيث الارض والبئر المؤجلة الى موعد غير معلوم . قال لنفسه : انه احب السـوالم بكل ما فيها ، وان سلسيله على الله ، قد تركت في العين والقلب والصدر ، ما يكوى النفس ، احساس لاذع ومر ومؤلم . وسأل نفسه : هل سيراما قبل الرحيل .
عصمت فهمى يسر بخطوات بطيئة راسما دائرة ، حول الرجال انقائمين بحمل المكاتب والحقائب والخيام واواني الطعام والكراسي والاسرة ، نظروا الى اسفل ، ان عينيه تنظران الى نفس الاماكن التى بدوس فيها بقدميه . عصمت يضع يده انيمنى في جيب بنطلونه الايمن ، ويده اليسرى في جيب بنطلونه الايسر ، انه يفكر .

ان الصغار من اطفال السـوالم قبلى ، والذين كانوا ذاهبين في هذه الساعة الى مدارسهم ، حاملين كتبهم ، وداخين في الهواء ،

محاولين طرد شتاء اثنى قبل الاوان ، ما رانوا يذكرون المهندس . في سيره البطيء ، شباب قمحى اللون ، يرتدى بنطلونا ازرق ، وقميصا سماويا مفتوح الصدر ، شاب طويل ، يقال عن مثله من ابناء السـوالم ، انه ولد في ايام الرخاء ، وانه من بيت عز . من فتحة القميص يطل شعر غزير اسود ، وفي محجريه تدور عينان عسلتان بيضاء وشاعرية ، تمسحان البلد والحقول . ويومها ، سأل الصغار انفسهم ، وهم في الطريق الى مدارسهم ، عن السبب فيما يحدث ، فك الخيام ، الناس المتجمعون ، ما يحزن المهندس فهو يبدو مهموما ، والمهندس في نظرهم شاب اكمل تعليمه تخرج ، وتوظف ، واستراح من المذاكرة وضرب المدرس وسؤال الاب عن سير الدراسة ، واستجداء القروش القليلة من الاب والاخوة الكبار . ان صبية السـوالم يسمعون دائما عن ايام زمان ، يقال لهم : كانت اياما عظيمة ، اما هذا الزمان ، فايامه بخيلة في النقود والصحة والحال ، ولا يدركون السبب . ان جميع الاطفال ، قد اقموا لانفسهم جميعا هذا الصباح ، بانهم لابد وان يصبحوا مهندسين .

- مالك يا باشمهندس ؟

ترتفع عيناه سائلتين ، هو احد معاونيه ، لا يجيب عليه بكلمات واضحة ، يستمر في سيره . بعد الغد ، يجلس في مكتبه ، في الدور العاشر من احدى عمارات القاهرة ، يشرب القهوة ، ينظر من نافذته ، يشاهد اسطح العمارات العالية ، الميادين المزدحمة الشوارع الطويلة الصاعدة فوق صدر القاهرة ، هذا كل ما هناك .

- المهم ان الحكاية انتهت ..

- حكاية ايه ؟

- سواء بالخير ، او بالشر ، انتهت .

لا يكمل المهندس حديثه ، يستأذن ، يحاول ان يتمشى ، يكشف ان صمت الناس والحقول والبيوت يضجره ، وعندما ينظر الناس اليه باحترام ، يقول ان الاحترام سيقتله . عصمت يجد نفسه مجبرا على ان يرد التحايا ، ويبتسم ، وينحنى ، ويقول للناس : انه رغم ما حدث ، فان كل شيء هنا ، على خير ما يرام .

● الرجال على الجسر ●

لقد تألوا كثيرا ، وتحملوا ويقوا يتسمون .
قال لهم ابو السعود ، ان غبط ورداتى ، كان من قبل منذ

مئات السنين ، فبر شيخ عظيم .

— قبر سيدنا الشيخ رضوان ، رحمه الله

في منتصف الحقل ، دائره صغيرة ، كانت دائما باثرة ، نباتاتها
صمراء . تنمو ، تذبل ، ثم يموت . وتبدو من خلال النباتات ،
سمرة الارض الغامقه . يقول ابو السعود : ان سن المحرث ، او
حديد انفاس ، لم يكن يسوح في هذه القطعة من الارض . ثم يكن
من الممكن اصلاحها ، لا بالسجاد ولا بالكيماء ولا بالمياه .

ابو السعود يرفع صوته . سيدنا الشيخ رضوان زاره في
المساء ، ليلة الامس ، كان حزينا . شكى له اهالي البلد . شكى الايام
التي انعدم فيها الخير . اقترح عليهم ابو السعود ان يقوم البلد
ببناء مقام صغير لسيدنا الشيخ رضوان . في نفس المكار الذي
دفن فيه . وهو منتصف ارض ورداني ، وبعدها قد يفرجها الله .
انهى ابو السعود حديثه . لم يطلق احد على كلامه . لكن
الرجال يذكرون بالعطرد انه حدث لهم خدمه . خيانه . والخيانة
مره الطعم في الحاقق . كاوبه لجباب القلوب . الخيانة حدثت
بشكل او بآخر : سرقة . مؤامرة . اتى اناس في الليل ، والليل
ليس له صاحب او حبيب . وكله اغداء . اذان تسمع . عيون
تري . سرقوا في الظلام ما في ارض ورداني .

السماء صافية ، صفاء خريفى كاذب . بعد قليل . يسافر
مهندس . ياركا البلد . ويعود الرجال الى بيوتهم . بعضهم
اصحابهم بالانهايات . ورسو الدول فوق العيون والوجوه . بدا
لهم الصباح منعجب الجبين . وطار في السماء . طائر اسود اللون
مهاجرا نحو الجنوب . وراح يطعن الفراغ . بجناحه في خفة
وسرعة . وعلقت به انظار الرجال . ياهود . حتى وصل الى حافة
الافق . حيث يلتقي السماء والارض . وعاد عيونهم مرة واحدة ،
نظر كل منهم الى الواقف امامه . وكانما قد عجزوا عن ان تلتقى
العيون : قراح كل منهم يعيث بيده .

— ما توحدهود .

— لا اله الا الله .

ادركوا انهم جميعا موسى . الامام اسى مضت . عيون الرجال ،
ثم كل ابا صاحب . وانامهم انادمة . سكون مائمه باجراح .
الرجال يفقون على الجسر في انتظار المهندس . في العيون نظرات
حائلة . انتظارات تشتعل بومض حار منهب . من حبه . كان

مياه التربة . تسير هادئة . نحو ديمسنا وكفر عوانه . غير مباليه
بما يحدث فوق الجسر ، ليلة الامس ، ذهب الرجال الى حقل
ورداني ، جلسوا حول الحفرة الكبيرة ، وكانت قطع الطوب
الناسجة من الحفر متناثرة . وراحوا يتمعنون في حلمهم القديم .
اقتربوا من الحفرة ، كاد بعضهم يسقط فيها . كانت هناك — مكان
الحفر — مياه نشع تنز من جدران البشر ، وانار اقدام ، في
طريق عودتهم ، قالوا كلاما كثيرا ، ضحكوا ، انفوا النكات ، ضرب
بعضهم بعضا ، وكان الاتساع الليلي يعجن الاصوب والحركات
والاحزان .

وقف المهندس بينهم ، اتجهت اليه العيون والايادي والقلوب .
اتفقوا جميعا ، ان الصمت هو خير ما يقلونته ، حب الدين اتى
مع المهندس ، كان يبدو عجوزا ، راح ينظر الى مياه التربة
الهادئة ، وهو يقضم اظافره بهدوء ، سأل المهندس عما يشغله :
— ما فيش حاجة .

المهندس ينسم . لم يفتح احد من الواقفين بان حب الدين
ليس عنده ما يحزنه . تحركت شفنا حب الدين دونما ارادة
منه ، سأل المهندس : هل معه نقود ؟ فقال : انه معه الكفاية ،
سأله عن سلسيلة ، فاخبره بانها قامت مبكرة هذا الصباح ، على
غير العادة وحضرت الى العشة ، كي تراه قبل سفره . شعر
حب الدين عجب حديثه بخجل . الستر يكتسب معنى خاصا .
قد يعيش المرء حياته بشكل ما ، وعندما يتعري امام عيون
الآخرين ، فانه يشعر بالغضب ، يحاول ان يخفى بعض الاور .
سأله المهندس : ان كان انعمدة قد اغضه ، او هل هو مريض .

— والله العظيم ما في حاجة .

— امال فيه ايه ؟

طلب منه المهندس ان يحكى لهم كيف قضى يومه ، منذ ان صحا
من نومه : حتى الآن . قال كلاما كثيرا ، ان دماء حمراء تصعد
الى وجهه ، ولم يدر ماذا يقول :

— لازم شفت حاجة في المنام .

— لا .

— افكرت الارض والمدارس وليالى البنادر .

— لا .

ضرب المهندس كفا بكف ، ركب السيارة ، وهو يحاول ان

يضحك ، اعتدل في جلسته . نظر في ساعته يده . كانت زرقه
أسماء تنعكس على مياه الترعة . راحت عيناه تدوران في بطاء على
البيوت والأشجار ومئذنة الجامع ودوار العمدة والجسر والترعة .
- سوق يا أسطى .

رفع يده للرجال ، لوحوا له بيديهم ، سارت السيارة ببطء .
وصلت إلى آخر الحرس . استدارت ، اعتدلت على الطريق
الزراعي . خيوط النظرات تربط عيون الرجال بالسيارة المتعددة .
السيارة تسرع في سيرها متجهة ناحية الضهرية . وتسمع
المسافة ، فطالت خيوط النظرات حتى تمزقت . وأسرع الحرس
والأشجار مرتعنين إلى الخلف ، وارتدى الطريق خلف السيارة
دثنا ، متحولاً إلى شريط صغير من التراب الرصاصي ، على جانبيه
الأشجار والحلفاء ، وفوق آخر نقطة في الطريق ، تبدو السماء
زرقاء . السيارة تسرع ، الطريق إلى مصر ، دائماً السفر . وفي
السماء المفسولة بالشهد ، كانت الطيور تطير مهاجرة نحو الجنوب
معلنة اقتراب الشتاء . وكانت شمس الخريف اللينة الصفراء
تسكب أشعتها على الكون .

المهندس يفكر في حب الدين . بالتحديد فيما يضايقه . اعمل
نكره ، قال لنفسه : أنه لا شيء يضايق حب الدين . استدار
نظر إلى السوالم ، كانت البيوت تدور في بطاء ، وكانت السوالم
كلها تتباعد ، وتضفر وتنخفض عن مستوى النظر .

● عشة سلسبيله على الله ●

قال لها عصمت :

- ياتيجي معايا أوضتى ، يا أشوه وشيك بعية النار .
كانت تسير في حاره باب الوداء ، قال أن حجرته بالقرب من
القلعة ، في آخر شارع محمد علي . ليس له جيران . الأيام صعبة
ومن الخير لها أن تطاوعه ، كانت في يده زجاجة صغيرة . وكان
الليل فوق صدر المدينة . سلسبيله تعرف أنه لن يفعل شيئاً .
وقفت في مكانها ، وأستراحت الملاءة السوداء على ثنيات الجسد
الطري ، وراحت تمضغ اللبانه ببطء ، رفعت يدها فوق حاجبها
واهتز الحسد :

- لا ياواد ، خفت منك ، تعال خسر في عبي .
ضفط عصمت بأسنانه على شفتيه ، حتى كاد يدميها ، ثار
في داخله احساس ذاق .

- ما كانش يتعز ياسى عصمت .

- يا سكر .

- قوت بكره .

لم يكن من عادتها أن تصحو من النوم مبكرة . قالت لنفسها ،
بعد أن حضرت إلى السوالم : أن أيام القحط . فاندتها النوم .
كانت تنام حتى أذان العصر ، وكانت تدرك أن ما تفعله شبيه
بالمرض . لم يكن نوماً ، كان نوعاً من الاستلقاء على الظهر ، في
انتظار ما يحدث . في هذا الصباح . صحت من النوم مبكرة ،
حضرت إلى العشة ، كنستها ، رشت أرضها بالمياه ، منذ ليلتين
عرفت أن اسم المهندس عصمت ، لم تصدق ، سألته بصوت عال :
أن كان اسمه عصمت . امتص الظلام صوته . ونادى النداء بين
جنبات الصمت .

سلسبيله تجلس في العشة ، في انتظار أن تراه ، أن تقف
أمامه . وتقول العيون ما يقال . تلتقي الأيادي ، تحتك الأنامل ،
وتعلا الأنف من رائحة جلده ، وتحمله السلام إلى مصر الغالية ،
تريد أن تقول له : أنها هنا ، ترتدى العري ، تحيط بجسدها
نظرات الرجال ، تغطيه بالرغبات .

بعد أن صحت من النوم ، وقفت أمام المرآة ، مشطت شعرها ،
أخرجت من صندوقها القديم ما زنت به وجهها .
- والله زمان يا سكر .

بحثت في صندوق ملابسها ، أخرجت فستاناً زاهي اللون .
ارتدته على مهل ، رفعته قليلاً بيديها ، راحت تخطو على أطراف
أصابعها في الحجرة ، أدركت أنها ما زالت جميلة .
- ياخسارة يابت يا سوسو .

ترنمت بمقطع من أغنية قديمة ، كلمات مبلة بالفراق واللوعة
شكت سوء الحال . قالت لنفسها : الحياة لم تعد تطاق
تعجبت كيف قضت الأيام والليالي والشيور التي مضت . النوم
والأكل والشرب ، النوم والصحو ، النوم والرغبات في العيون ،
غيرة حب الدين . الانتظار ، الوعد بالزواج : الحلم بحياة
مستقرة . السفر إلى المدن الكبيرة . تساءلات وهي تدلق مياه
الفيل . وتخرج الشعيرات بأصابعها من بين أسنان المشط ، بعد
أن أكملت زينتها ، ألم يأت زمن الزواج بعد ، وعصمت لنفسها :
متى تستريح اليد في اليد وتنسج الشفاه كلمات غير مسموعة

وتتحول النظرات الى حبال للمودة .
سلسيله تسير متجهة الى العشة ، المياه تملأ التربة ، أوشكت
ايام الجفاف على الانتهاء ، المياه تجري ، دموع الاحزان الجنوبية
ذكرى عصمت وحارة باب الوداع والدفء المفقود ، السماء المقسولة
الصامتة ، الحقول الممتدة . سلسيله ما زالت تسير في حواري
البلد ، وسلسيله في سيرها تشاهد البلد وقت الصباح ، تشعر
كانها تشاهد البلد لأول مرة . سلسيله تفكر في نساء البلد ،
لا تذكر انها خاطبت احدا من قبل ، تعاملها مقصور على الرجال
وما ان تأتي سيرة سلسيله ، حتى تهتف النسوة :
- الشريره وبعيد .

ربما يرين لها في سرهن . وقد تعجب احدا من بها ، وهي
جميلة ، هذا الاعجاب لا يعلى امام الاخباريات ، وقد تمنى احدا من
ان تنجب فتاة صغيرة في خلاوة سكر ، ونظل هذه الامنية سرها
الذي لا تبوح به لاحد ، حتى ولا لزوجها ، وقد يختلفون في جميع
الامور ، الا انه من المتفق عليه ، ان سلسيله حلوه .

- تقول للقمم قوم وانا افقد مكانك .

ما ترتديه من ملابس ، يدهش الجميع . سكر تعرف هذا ،
وهي منذ ان حضرت الى البلد ، لم تحاول ان تكلم احدي النساء
في كل يوم ، تسير في الحواري الضيقة ، وجزء من الشارع
الرئيسي ، واثناء سيرها ، تنحدر الابواب والبيوت والنسوافد
الى الخلف ، وهي تعرف انها مبطنة بمحاجر صغيرة ، تدور فيها
عيون بلا رموش ، تشاهدها ، يتحدثون عن حكايتها مع حب
الدين . النساء تقول : سلسيله امرأة ماثية «على حل شعرها» ، وقد
تمنى احدا من ان تكون مثلها ، وان تفعل ما تفعله ، ونظل هذه
الامنيات نجوى صامتة ، ورؤى ضبابية في الصدور ، وسلسيله تسمع
كل ما يقال عنها ، حتى ما تنسب به مناقير ابو قردان الارض
العطشى وقت الري ، وشوشات ورق التوت ساعة هبوب الرياح .
ان رجال في السوالم ، في ساعات العراك والغضب مع نسايتهم ،
يعابرونهن بسلسيله ، وعلى الفور يقال كل شيء ، وتبقى حكاية
سكر معلقة في اماكن العيون ، كالبراءة المفقودة ، او المغاف الذي
انتبهك وولت ايامه . وقد تتذكر النساء ، عند مرور سلسيله
عنه ، ذكريات مدفونة في قاع العقل ، الحلال والحرام ، رائحة
زوجها مقترنة برائحة رجل اشتتهه . وقد تتذكر بعض النساء ،

انها تذوقت الحرام في ساعة راعشة ، في الحقول الواسعة ،
وتذكر ن السر كان آخر ما تمناه . تقول النساء : سكر
مسكينة وغبانة .
- دي وليه .

- والوليه مكسورة خاطر .
ويطلبن لها من الله السر والفقران .
في العشة ، كانت سلسيله على الله تنتظر .

● منزل فتحي سالم ●

فتحي سالم يقف خلف نافذة حجرته ، تهيم نظرائه في قضاء
الحقول المتسع ، تمر عيناه ببطء على ما يراه . استيقظ من نومه
متأخرا ، وفي ليلة الامس ، رقد في فراشه ، لم يتم ، ففكر
وفكر ، ثقل على جنبه ، ضغط على رأسه الملتهب بيديه وطلب
من الله الرحمة .

ان سحابة من الغبار تتحرك على الطريق الزراعي ببطء الان ،
ثم تسرع متجهة ناحية الشمال ، في الاتجاه المعاكس لسير الريح
ومياه التربة وطيران الطيور المهاجرة نحو الجنوب . فتحي سالم
يدرك انها سيارة المهندس ، وهو مسافر . قال فتحي سالم عند
حضور المهندس : ان حضوره خطر عليه ، يشعر بفراغ لسبب
سفره .
- خلاص .

يدت له البيوت والناس والترعة والرجال على الجسر ، كصورة
معلقة على جدار الذاكرة ، يستعيد بها الانسان كل صباح ، اني
سفر المهندس عليه وعلى اعدائه ، وهو لهذا ليس حزينا ، في
المركز ، منه بوظيفة ، بالليل يكتب الاوراق سرا ، وفي الصباح ، يذهب الى
المركز . طلبوا منه الا يخبر احدا بذلك ، ولا حتى حبيبة القلب ،
اقسم انه لا يعرف احدا ، وان عزله ليست احساسا زائعا من
الداخل ، بل هي سور قديم بنته الظروف حوله ، قال انه يحدث
نفسه كثيرا ، عندما لا يجد من يتكلم معه ، تعود الناس ان يشاهدوا
نور حجرة فتحي سالم مضاء . انه آخر الاضواء في ليل السوالم
الساھر . والرجال الساهرون على الجسر ، يشاهدون ظله يروح
ويجيء في الحجرة الصغيرة . منزل فتحي سالم في آخر البلد من
الناحية القبلية ، مبني على مكان مرتفع . ويقول الناس : ان
المكان المرتفع فوق كوم كان مسكونا بالجن والعفاريت من قبل .

وفي الصباح ، كانوا يشاهدون فتحي سالم ، وقد استيقظ مبكرا ، رغم سهره . أنه يترك منزله ، وقد ارتدى بدلة قديمة ، مخططة ، لا يملك سواها ، يمسك بيده شمسية ، يلف حول رقبتة منديلا أبيض . أنه ذاهب الى ايتاي البارود ، يحرص في سفره على الا يقترب من أحد بالكلام أو الانصات أو السؤال ، دائما بمفرده .

في ايتاي البارود ، يقول الرجال : أنه يسئم على الحكمة ، ويقول هو لأمه بعد عودته ، أنه قابل فلانا وفلانا وعلانا ، وشرب الساخن والبارد ، وجلس على المقاعد الوثيرة ، ورأى سماء ايتاي البارود المفسولة بالشهد والحنين من خلال نافذة مغطاة بالستائر الوردية الناعمة .

فتحي سالم يدرك ، أن موضوع الوظيفة المحترمة ، والمرتب الثابت أول كل شهر ، والجاه والمنصب ، قد طال تأجيله . الأمور في منزله قد أصبحت أسوأ من أي وقت مضى ، وكبرياؤه في البلد أصبحت مهددة . وفي كل مرة يجلس هناك ، يتشم ، يجفف حبات العرق ، تتحرك شفتاه في حركة تشي بالتنازل .

— باقول لك بإسعادة اليه .

يقول كلاما كثيرا ، البسمة الذبيحة تسبق الكلمات ، والاحرف

المتأكلة تزخم هواء المكتب .

— أنا بس بأفكر سيادتك .

في البداية ، قرر فتحي سالم : أن يصفى حسابه مع البلد .

صفحات مكتوبة مدون عليها بالحبر الاحمر « سرى للغاية » . طلبوا منه أن يراعى الدقة ، وأن يراجع نفسه . ذهب يسأل عن السبب في تحولهم عنه وسوء معاملتهم له : لم يعطه أحد

وجهها . استأذنوا منه ، فالوقت كله ليس مخصصا لمقابلات الناس .

فتحي سالم يعود من ايتاي البارود ذات مساء مريضا ، يسير ببطله ، ينظر ناحية البلد والناس ، كأنه يودعهم . في حجرته ،

جلس ، هدى ، قال كلاما كأنه الهلوسة . قال أن الأعداء من أمامه ومن خلفه . من أمامه أهل السوالم ، ومن خلفه ايتاي البارود .

قال أنه يجب أن يضرب في كل الاتجاهات والله المستعان . صاح ، يلى ، ارتعش جسمه ، نام في سريريه ، أمضى أياما مبللة بالسهاد

والمرض ، خاطب أناسا في الخيال . وفي أحلامه ، تشفى وتوعد . وقال : موعدا الغد ، وليس الغد بعيد . بعد أن شفى وخرج

الى البلد مرة أخرى . قال الناس : فتحي سالم تغير ، المعلم يعقوب همس للرجال ، بعد أن أعطاهم فتحي سالم ظهره ، عائدا الى منزله :

— دى صحوة الموت .

فتحي سالم يقول لنفسه : أنه كان ينتظر الخير على يدي المهندس

— زى كل المرات السابقة ، الواحد يصحى من نومه ، يتصور أن الموضوع فيه حاجة ، يقوم ، يفرح ، يلبس : يشتم ، تكرهه

الناس ، وتخلص الحكاية ، وأفضل هنا لوحدي ، وورايها حاجات كثيرة ، كراهية وخلافات وجراح ، أما قدامى ، بركة ساكنة ،

عليها ناموس وهاموش . أدى الحكاية .

فتحي سالم يستدير ، يعطى ظهره للنافذة ، يطالع المنزل من

الداخل ، وفي داخل المنزل ، أمه وأخوته . يسير في حجرته ، أمامه مكتبه القديم المتآكل ، على المكتب قلم ودواة حبر وورق

أبيض . هنا يكتب للناس شكواهم . هذه المرة سيجلس ، لن يكتب شكوى . سيكتب عن حالته ، تسع شكوى ، لن تنقص أو

تزيد واحدة . يرسلها الى جهات كثيرة . ويجلس هنا منتظرا .

في الخارج ، الرجال يتمددون في استرخاء ، وفي حوارى البلد ،

يستمع الى صوت وأه يستجدي . أنه شحاذ يتجول ، يطلب من الناس ما يفيض عن حاجتهم . فتحي سالم يجلس على مكتبه ، ينظف

قلمه ، يغمسه في الدواة ، وعلى نافذة حجرته ، هبت نسمة هواء جافة .

● حب الدين سرخان ●

مناجاة : انصت يا قلبى ، مددت يدي القصيرة : أمسكت به

بجلبابه الطاهر . توقفت ، نظرت الى : وكانت تطل من وجهه

نورانية . سألته ، قلت له : لم حرق السفينة . وغرقت حتى

القاع . قال لى : السفينة لم تحترق . انتى اتكلم : فهل تسمع

الى . ما العمل ياسيدى . خائنا الريح ، وفرغت القلاع وجفت

المياه . وجنحت السفينة . نامت على أحد جنبها . جالسا على

سطح الماء . انقرست نظرائنا في سماء الله العالية . انتظرونا أن

يطلع علينا طائر ، يحدد لنا مكان البايسة . انقضى العمر : وماضى البعض : الطائر لم يطلع علينا . لم يرد على ، ادار وجهه ، وكان عليه هم عظيم ، سار ، طار في الهواء . وقلت لنفسى : فلنملا

القلاع بما في الصدور ونسد الخرق بقطع من القلوب : وعلى

حبّات الدموع الدافئة ، سيرة السفينة .

بعد قليل ، يستأذن حب الدين سرحان من الرجال ، ويعود الى بيته ، تاركاً سلسيله في العشة بمفردها . فهو يريد ان يحلو لنفسه . سبنام ، يوما او يومين ، نوما عميقا وقد بنام العمر كله . حب الدين سرحان يدرك هذا الصباح ، انه تعب بما فيه الكفاية . هيكلة مريض ، وعظمته تفككت ، ولا يطلب سوى النوم

المهندس ، الباشمهندس ، مهندس البترول ، عصمت افندى ، عصمت ييه ، الباشمهندس عصمت ، سعادة اليه ، حضر المهندس ، ذهب المهندس ، اتى المهندس ، قام المهندس بعمل كذا . قال المهندس . مكتب الشركة الفرعى بالسواحل بحيرة في سكرتيرية مهندس المشروع . قال المهندس لفلان كذا ، المهندس يعلم كل شيء . قلت للرجال في العشة ، ذات مساء اننا ما زلنا صفارا ، واننا سنسمع مع الايام اقادمة حكاوى ، لن تصدقها الاذان لحظة سماعها ، العمر ما زال طويلا امامنا . علم المهندس لا تحده حدود . يا اهالى البلد ، الحاضر يعلن الغائب ، وارتفعت رموس الرجال كسنايل عجفاء تحديق في السماء ، تسمع المنادى ، تقال كلمات ، تدبل على الشفاه ، وسيولد الاطفال . سال وينسون حكاية البئر والبترول واحلام الاناء ، وتحديق الكلمات في بطولة الايام المفقودة . حضر المهندس ، لف وذر ، سافر وحضر من جديد ، ثار على كل ما في البلد ، قرر ان يضع شيئا يبلغ حد الروعة ، غير ان واقع السواحل ، شكل حياته ، كسره ، وعندما استعصى على الكسر قتله . وبعد الحكايات ، الكلمات المبللة بالشوق ، الايام المخضبة بالذكريات . تعود الحياة الى ما كانت عليه والحمد لله . في الليالى الطوال ، غمسوا خبزهم في ماء العين ، مضفوا اللحم حتى التخمة . وفي الصباح ، تسلل شعاع صغير من ثقب الباب . كنت انام على طهرى ، فاتحا عيني عن آخرهما . كانت الاشياء تبدو في شريط الضوء واضحة ، غبار ، ذباب ، ناموسة . تظهر في شريط الضوء ، تعبره في سرعة . تختفى اختفى الشعاع . عرفت ان الشمس قد اصطدمت بمنزل الجيران اناء صعودها فوق صدر السماء ، افتح نهم الباب ، اخذهم بالاحضان ، تمسك اصابعهم الخشنة بالقلب ، تدوس اقدامهم في الصدر ، تضحك ضحكات مسلوخة . وتتحول الاصوات الى ضربات على طبلة الاذن . الى حاصص في السواحل معجزة ، وانا

اصر على كلامى ، انا احذرك يا حب الدين انت والمهندس ، الاتحاد حايصنى المشروع كله ، تجوزنى يا واد يا حب . اقول منى تانى النهاية يا اصدقاء كل ليلة . اسمعونى . بعد ايام تحدث المعجزة ، يتدفق البترول وسعد . صدقونى . ليس هذا كلام المهندس ، او رؤيا شاهدتها في المنام . بل ان هذا ما عرفته بنضى . ستصبح لحظة المساء هي القنطرة ، بين الرجال ، وبين الليالى الدافئة : يا رفقة السهر .

— يقابلك صاحب الملك الصبح .

— اسمعنى .

— يطالبك بأجرة الجلابيه الى لابها .

— ها . ها . ها .

بضحك الرجال ، يضربون اكفهم على حوائط العشة ، يستلقون على الارض ، تسيل من اشفاهم ضحكات باهتة ..

— محفظتك تقول للمعلم يعقوب ساعة ما يطالبك باللى عنك :

— اسمعنى .

— وانا مالى يا بوبيا وانا مالى .

— ها . ها . ها .

تعتلى العيون بدموع مفاجئة ، ويستعش في الاعماق حزن راكد .

استمعوا ، ساحكى لكم حكاية ، من جذب الايام تغزل الحكايات . بالحكايا نلبر في رحم الارض احلامنا . ونجلس ، ننتظر ايام الحصاد ، وفي ايام الانتظار ، نعوم في بحار الكلمات .

— يحكى ، والله اعلم ، انه حدث في قديم الزمان ، وسالف العصر والاولان ، ان كان في بر مصر ، جماعة من الرجال ، ضاقت بهم الحال . وافزعهم سوء المال . قالوا لانفسهم ، لنترك الديار ونسافر ، لنرى ، هل حدث لغيرنا ، في اى مكان آخر ، ما يحدث لنا . ثم انهم سافروا ، ركبوا الريح ، وخاضوا الماء المتأجج ، وداسوا مساحات اليابسة ، غير انهم بعد ان وصلوا الى البلاد البعيدة ، حدث ان ..

القاهرة

الضهرية - بحيرة ١٩٧٢

تمت